
١٩٥٢
١٩٦٤
مصطفى طيبة
رسائل سجين سياسى
ى حبيبته
الثاني

مصطفى طيبة

رسائل سجين سياسى
إلى حبيبته

الجزء الثانى



٦٠ شارع القصر العينى – أمام روز اليوسف – القاهرة
تليفون : ٣٧٥٤٦٦ – ٩٧١٨٢

سجن مصر
ليمان طـــره
تخشيبة الوايلى
معتقل القلعة
سجن الواحات الخارجة
ليمان أبو زعبل
تخشيبة مصر الجديدة
سجن الاستئناف
تخشيبة السيده زينب
سجن المحاريق
سجن القناطر الخيرية

إليكِ

الرســــالة رقم (٤١)

حبيبتى :

فى مثل هذه الايام من شهر **اغسطس عام ١٩٥٨** ، أى منذ **تسعة عشر عاما** ، زجت بنا « الحكومة الوطنية » فى سجن جديد اقامته خصيصا لنا فى قلب الصحراء ، هو **سجن « المحاريق »** . وهو عبارة عن ثلاث عنابر كبيرة ، فى كل عنبر ٢٤ زنزانة ، تسـع الواحدة من خمسة عشر الى خمس وعشرين « حسب الظروف » . جدرانها من الحجر الابيض ذى القدرة الخاصة على امتصاص حرارة الشمس ، وسقوفها وارضياتها من الاسمنت المسلح ويتميز بقدرته على الاحتفاظ بحرارة الشمس فترة طويلة ، وابوابها صممت بطريقة خاصة ، نصفها الاسفل من الحديد المسمط ، ونصفها الاعـــلى به اسياخ حديدية ، حتى يتمكن الحارس من رؤية كل شىء فى الزنزانة، ولها نافذتان عاليتان لا تستطيع ان تطل منها على الصحراء الواسعة الا اذا حملك آخر .

قبل ان نغادر **سجن « جناح »** الى **ســـــجن « المحاريق »** بالواحات الخارجة ، شاهدنا ذات صباح عددا من الضباط،أصحاب الكابات الحمراء وعددا من الافندية ، وكان على راس الضـــــباط **« حمزة البسيونى » قائد السجن الحربى** ، وعلى راس الافنـــدية **« حسن المصيلحى » مدير مباحث أمن الـــدولة** . ويبدو أن المـــأمور قد فوجىء بمقدم هذا الحشد « الخطير » من ضباط أجهزة الامن ، فما أن جلسـوا فى مكتبه حتى ارسل الينا من ينبهنا حتى نأخذ حذرنا ! وبعد أن شربوا القهوة وجففوا عرقهم « النبيل » وجدناهم يدخلون من بوابة السجن متجهين الى حيث يعيش **الاخوان المســـلمين** ، ومكثوا هناك مدة لا تقل عن ساعتين ، ثم عادوا الى مكتب المـــأمور دون أن « يشرفونا » بزيارتهم .. فقط التفتوا برؤوسهم « الكريمـــة » يسارا حيث كنـــا نقف « نتفرج عليهم » ! .. **حسن المصيلحى** فقط هو الذى رفع يده اليمنى « يحيينا » وتوالت تعليقات الزملاء :

— كان لازم تقف فى الناحية التانيه .
— اجبرناهم على الالتفات « يســارا » .
— اذا حياك رجل المباحث .. تبقى الدنيا ومافيها ..
— وربما الآخرة
— يا اخى دى تحية وطنية ..
— والتفاتة يسارية .
— وربما دكتاتورية عسكرية

— أو فاشيه ..
— وتحولت الى وطنية ..

ونشهد حشد **اجهزة امن جمهورية مصر** يركب العربات الفاخرة .. ويزعق البروجى بسلام « اللواء » .. وما تكاد تتحرك حتى نرى المامور قادما نحونا :

— خير يا سيادة المامور .
— لم تكن الزيارة لكم .
— يا خســـــارة !
— اصل انتم موقفكم معروف .
— موقف ايه ؟
— موقفكم من الحكومة يعنى .

ثم يســـــتطرد :

— اصلهم كانوا جايين مخصوص علشان يناقشوا الاخوان الذين لم يؤيدوا الحكومة ويقنعوهم .
— وهل اقتنعـــــوا ؟
— القيادة طبعا مش مقتنعة .
— والقواعـــــــد ؟
— منعوها من الاتصال بهم .
— وهل هناك اى اخبار عنا .. او لنا . ؟
— يحيون موقفكم !
— اكلنا وشــــبعنا ..
— يا جماعة .. الصبر .. **الاخوان المؤيدون خرجوا .. والمعارضون لمـا يايدوا راح يخرجوا** .. وبكره ييجى عليكو الدور ..
— وماجاش علينا ليه ؟
— اصل انتم برضه لكم **وضع خاص** .. ثم .. « يتردد فى أن يواصل حديثه » .
— يعنى .. انا متصـــور انهم محتفظون بيكو شـــويه للقيام **بـدور وطنى** .

وبدهشة ، يقول احد الزملاء :

— يحتفظوا بينا علشان نقوم بدور وطنى .. ازاى ؟
— تقنعوا اكبر عدد من الاخوان .
— سيادتك سمعت الكلام ده منهم ؟ .
— طبعا سمعته .. كلهم متاكدين ان انتم اللى راح تقنعوا اكبر عدد من الاخوان زى ما اقنعتوا عدد قبل كده وخرج افراج .
— طب وهوه ده كل دورنا الوطنى فى نظرهم .

وبضيق شديد يقول المامور :

— انا عارف بقى .. عمرى ما راح افهم فى السياسة .

فى صباح اليوم التالى وصل الى سجن « جناح » ضابط منضباط

الجيش من الذين كانوا يطلقون عليهم اسم **« ضابط الاتصال »** وطلب من المأمور أن يقابل من يمثل الزملاء . ذهبت أنا **وزكى مراد** لمقابلته . وقف وحيانا وابتسامة « رجل المخابرات » على وجهه الناعم وقال :

— عاوز أولا احييكم لموقفكم الوطنى . . وثانيا احمل لكم توقعاتى بالافراج القريب عنكم .
— عن التحية .. شكرا .
— وهل هى توقعات أو اخبار ؟
توقعات تصل الى مستوى الاخبار .
— يعنى نستعد للافراج . . أو النقل **لسجن المحاريق ؟**
— حتى اذا نقلتم لسجن المحاريق . . فهذا لا يلغى الافراج .
— يعنى راح ننقل الى سجن المحاريق ؟
— أنا شخصيا لا اعرف . انما انا جاى لكم فى مهمة خاصة .
— خيرا . .
— همتكم مع الاخوان المعارضين الباقين . كملوا **العمل الوطنى العظيم** اللى بدأتوه معاهم .
— عملنا الوطنى كما نفهمه التزام وليس تكليفا من احد .
— ليس الغرض من زيارتى هو تكليفكم . .
— ما الهدف اذن ؟
— مناقشة سياسية .
— وموضوعها ؟
— مواصلة نشاطكم بين الاخوان — ليس كتكليف منا ولكن باتفاق . .
— موقفنا قبل ذلك لم يسبقه اتفاق ، كان موقفنا نابع من اقتناعنا .
— لكن هناك جديد .
— وهو . .
— أننا سنضطر لاستخدام القوة لاقناع المعارضين من الاخوان .
— ومتى كان الاقناع بالقوة مجديا ؟
— نحن لا نريد اقتناعهم ولكن نريد تأييدهم .
— وما الذى تستفيدونه من التأييد الاجبارى . ؟
— قتلهم سياسيا وجماهيريا .
— وهل تطلبون منا أن نكون احدى ادواتكم ؟
— ابدا . ابدا . . الدور السياسى عليكم . .
— والدور البوليسى عليكم ؟

يضع ابتسامة **رجل المخابرات** على وجهه ويقول :

— مع تجاوز هذه السخرية . . نعم .

ويقول **زكى مراد** بحسم :

— حضرة الضابط . موقفنا الوطنى **التزام نحو الوطن** . السياسة فى عرفنا للبناء وليست للهدم ، لبناء أوسع **جبهة وطنية** ضد الاستعمار وعملائه وليس لتحطيم الوطنيين للانفراد بالعمل الوطنى

ونحن ضد استخدام القوة مع اى وطنيين مهما كانت خلافاتنا معهم واكمل :

— وسوف نستنكر اى اجراء ارهابى **ضد الاخوان المسلمين** . ولنا فى هذا سابقة حيث ارسلنا من هنا استنكارا **للمذبحة** التى جرت فى ليمان طره بعد ترحيلنا بأيام .

الابتسامة « اياها » لا تزال « ثابتة » على وجه ضابط الاتصال ، ويقول :

— على العموم ياجماعة . . انتم معاملتكم لن تتغير حتى لو نقلتم الى سجن المحاريق .

بعد هذا الحديث بيومين نقلونا الى **سجن « المحاريق »** .

وكان السؤال التقليدى المعتاد عندما ننقل من سجن الى آخر هو : ما الذى ينتظرنا وكيف نستعد له ؟ .

عندما بدأنا فى جمع امتعتنا كانت الاوامر التى عند المامور أن ناخذ كل شىء معنا . سألناه :

— الكتب والراديوهات والاكواب والاطباق والملابس المدنية وأدوات الرسم . . و . . .
— كله . كله .. حياتكم لن تتغير هناك .
— استنتاجات . . والا اخبار ؟
— دى اوامر اعلى الجهات .

كانت السياسة الرسمية « للتنظيم الواحد » حتى هذه اللحظة تعتبر الحكم الوطنى قائدا **للثورة والجبهة الوطنية** ، لكن الحكم الوطنى لم يكن يعتبرنا حليفا له ، وهذا ما كان زملاؤنا يتناسوه دائما ! وأيا كان الامر بالنسبة لنا نحن المسجونين فى قبضة « **الحليف** » فان لنا الحق كل الحق فى أن نحذر منه ومن نواياه ضدنا . واعددنا انفسنا لكل الاحتمالات مع ترجيح السيئة منها . أهم شىء بالنسبة لنا هو المحافظة على غذائنا من المعرفة والثقافة والتى تم نسخها على « ورق البفرة » وتخبئتها فى مكان أمين لا تصل اليه يد « الحليف » أو « العدو سيان . ولناخذ معنا كل ما عندنا من كتب وراديوهات وكل احتياجاتنا . ولكن لابدأيضا من تخبئة ٣ « ترانزستور » لاستخدامها بشكل سرى عند الضرورة .

منذ الصباح الباكر لذلك اليوم الذى رحلنا فيه من سجن « جناح » الى **سجن « المحاريق »** كنا قد أعددنا انفسنا للرحيل . صناديق كثيرة بها كل ما نملك من كتب ومجلات ودوريات ، واكياس كثيرة تحتوى على ملابسنا وحاجياتنا الاخرى ، تحملها ثلاث عربات لورى . وثلاثة عربات اخرى تحمل اجولة من الدقيق والارز والفول والعدس والفاصوليا والملوخية الناشفة .

وقبل أن يحل ظهر اليوم ، بدت الحياة التى دبت فى هذه البقعة من الصحراء منذ ما يقرب من ثلاث سنوات ، كأنها تلفظ انفاسها الاخيرة الخيام التى عشنا بداخلها كل هذه السنوات **سقطت** فى اماكنها فى انتظار من ينقلها الى المخازن بعد أن ادت مهمتها . ومخازن الطعام والمخبز ، والمطبخ اصبحت **خاوية** . . هربت منهـــا الفيران . **والقطط تجــرى مذعورة فى الارض الخلاء** . . لن تجــد ما تقتاته بعد اليوم . وأشجار الخروع التى زرعناها حول الخيام كى نستظل بظلها قد جفت أوراقها ، وتراخت فروعها . وزهور عباد الشمس تتجه نحو القرص الاحمر ربما لآخر مرة ، فقد اوشكت على الموت بعد أن توقف تدفق الماء الى جذورها .

كان بعض الزملاء يجلسون الى جوار امتعتهم .. يتأملون ، وترك البعض الآخر أمتعته وجلس الى جوار مزرعته الصغيرة يتأمل ورودها تارة ويرش عليها الماء تارة أخرى ، سوف **تموت هذه الورود** بعد قليل لكنه حريص أن يسقيها حتى لا تموت أمامه ، وملك الصحراء يحتضن ادوات الرسم بحب ويجلس الى جوار خيمته وسكنه ومرسمه ، يلقى عليهـــا نظراته الاخيرة قبل أن يرحل عنها .

لقد انتقلنا من سجن الى سجن ثان الى ثالث طوال السنوات السابقة ولم نشعر فى أى مرة مثلما نشعر به الآن . علاقتنا بهذا المكان كانت من **نوع خاص** . هذه الارض التى كانت موحشة جرداء ، استطعنا ان نخلق فيها الحياة بجهدنا وعرقنا . من ترابها الذى لم ير الماء منذ بدء الخليقة ، خرجت **الورود والازهار والاشجار** ، وتحت سمائها التى لم تشهد بشرا من قبل ، مارسنا كل ما يمارسه الانسان فى أرقى بقعة من بقاع الارض ، قرأنا وكتبنا ، غنينا ورقصنا ، علمنا ، وتعلمنا . كان حوارنا مع أنفسنا ، ومع بعضنا البعض ، ومع الآخرين ، ومع التراب والارض ، والشجر والزرع ، والورد والازهار ، متصلا لم يتوقف أبدا . ما أعظم الحوار وما اروعه حين يكون **صادقا** ! الحوار الصادق ، بين البشر وبين البشر والطبيعة ، هو وحده الذى يخلق **الحياة** ، يجددها ويطورها ويدفع بها باستمرار الى الارقى . متى تعرف البشرية مثل هذا الحوار ؟ فقط حين يصل البشر الى صيغة صادقة للديموقراطية تكون وسيلتهم فى الحوار ، وحين يستخدمون العلم فى حوارهم مع الطبيعة للحصول على خيراتها لصالح الانسان ، وليس فى انتاج السلاح لتدميرها وتدمير الانسان نفسه ، واجد تأملاتى مجسدة فى لوحة رسمها الفنان **داود عزيز** اسمها « **الانســان والمكان** » وهى اللوحة الثانية التى تحمــل نفس الاسم . الاولى رســمها حين وصل الينا من سجن **القناطر الخيرية** من شهور ، والثانية رسمها خلال ساعات انتظار رحيلنا من هذا المكان .

— لوحتان فقط « بالرصاص » رسمتها خلال اقامتك هنا ؟
— المشهدان اللذان انفعلت بهما .
— الاول اكثر تعبيرا عن الثانى .
— ربما لانى لم اكن اتوقع ما رأيته هنا عند حضورى .
— والثانى لان علاقتك بالمكان لم تكن فى قوة علاقتنا به .

— تهتم كثيرا بقضية العلاقة بين البشر ، وبين البشر والاشياء .
— العلاقة الصادقة اداة تقدم الانسان ، واداة سيطرته على الطبيعة لخير البشر .
— حقيقة نظرية !
— والممارسة الصادقة تصوغها حياة متجددة ابدا .
— كنت أود ان يكون حوارنا متصلا .
— ولماذا توقف ؟
— دخولك السجن مبكرا .
— وهل يبتر السجن حوار الثوار ؟
— كنتم معزولين عن الواقع . .
— وكنتم تتعاملون معه من خلال ذواتكم .
— الآخرون يتحملون المسئولية .
— وأنت قبلهم وأكثر منهم .
— لقد نالوا منى . .
— وأنت واحد من الذين وضعوا البذرة .
— كان من الصعب أن نتصل بكم . .
— بل كان الغرور والتعالى والاحكام القاطعة .
— قرأنا كل ما وصلنا منكم . .
— كما يقرأ الاستاذ الجامعى بحوث تلاميذه !
— لم اكن استاذا جامعيا . .
— ساهمت فى زيادتهم . .
— ربما كان هذا خطئى الاساسى .
— عرفته متأخرا ! .
— حين اصابتك أضراره .
— وهل يتعلمون ؟
— التجربة خير معلم !
— ارجو ان يتعلموا . .
— ليس بعد . .

واحكي له ولاول مرة قصـــة واحد منهم جاء يقنعنى **انا ومجـدى فهمى** أن نقبل قرارهم الغريب بعد وحدة التنظيمين ثم التنظيمات الثلاثة :

— القيادة تحتاج الى اصوات فى الخارج .
— حسنا .
— وانتم فى السجن ولا نملك اخذ اصواتكم .
— والبديل ؟
— أن يحل محلكما صوتين لحين خروجكما . .
— ثم ؟
— تمارسان القيادة .
— نتوقف عنها فى السجن ؟
— لظروف خاصة بالاتصال بكم . .
— نفهم أن تحاولوا التغلب عليها . .

— ربما يحتاج الامر الى سرعة . .
— والحاضر يسد ؟ .
— سيكونون هم الاغلبية .
— اليست قيادة واحدة ؟ .
— ليس بعد . .
— اتحاد فيدرالى ؟
— فرضته الظروف .
— الظروف الذاتية ؟
— بل السياسية
— وهل هم غافلون ؟
— سيضعوننا فى الحساب .
— أنتم واهمون . .
— اصبحنا اكثر قوة
— بل اشد ضعفا
— أنتم تعارضون الوحدة اذن ؟
— بهذا المنطق الانتهازى . . نعم .
— نحتاج الى وقوفكم معنا . .
— ولماذا الآن بالذات ؟
— كنا مخطئين .
— بل كنتم مغرورين متعالين .
— نزلنا من ابراجنا .
— حسنة وانا سيدك !
— سخريتكم مريرة .
— ومرارتنا « مفهومة » .
— ترفضون اذن ؟
— الرفض موقف ..
— ممتنعون ؟
— والامتناع موقف .
— ماذا اذن ؟
— غير مكترثين .
— يأس من النضال ؟
— بل منكم
— نوقف الحوار اذن ؟
— بترتموه منذ سنوات .
— نبدأ من جديد . .
— بشرط . .
— هو ؟
— ان تعود الحياة الى الجزء المبتور .
— لسنا أمواتا .
— ليس الموتى وحدهم الذين لا يحسون .

واتبادل التعليق مع داود عزيز حينا ، وحينا اخرى تروح عينى لتجوب هذه البقعة من الصــحراء ، التى تحولت بسواعدنا الى واحة ،

وها هم **يقتلون** فيها كل اثر للحياة ، لتعود كمـــا كانت قاحلة جـــرداء ، وتعود ذاكرتى الى الاربعينات واوائل الخمسينات حتى دخلنا السجن . تركنا **وليدا** مع من لا يملكون عطاء **فقتلوه** بين احضانهم الباردة .

وأسمع صوتا ينادى على وانضم الى القافلة التى تسير بنا الى سجن « المحاريق » **بالواحات الخارجة** . وقبل ان تغلق الزنازين ابوابها علينا هناك فى المساء نحس بمقدمات لا علاقة لها بما كان ينتظرنا فى سجننا الجديد . اكتبها لك فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى . .

٥ اغسطس ١٩٧٧ — القاهرة

الرســـالة رقم (٤٢)

حـــــبيبتى :

تحركت بنا العربات التى تحملنا وامتعتنا الى **ســجن « المحاريق »** وظلت عيوننا معلقة بهذا المكان الذى احببناه حتى غاب عن أنظارنا .

كيف نحب مكانا سجنا فيه ؟

علاقة خاصة جدا كانت تربطنا بهذا المكان الذى كلما بعدنا منهكلما اشتد حنينا اليه ، لمـاذا لم يتركونا فيه حتي نخرج من السجن ، أحياء أم أمواتا ! الى هذا الحـد يكرهون **ابتســامة المسجون** وزرع ورد فى السجن ؟

حرارة الشمس حارقة رغم ان الساعة تجاوزت الثالثة بعـــد الظهر . العربات تحاول أن تجد طريقها عبر مسالك ملتوية وسط كثبان الصحراء ، نلمح سرابا بعيدا ، قريبا ، ليس بعيدا ولا قريبا **فهو السراب !** وتصطدم احدى العربات **بكثبان** وتدور عجلاتها على « الفاضى » وفى محاولة يائسة لتنتشل العربة من الرمال الناعمة . تتوقف كل العربات لنجدة العربة **الغارقة** وسط الرمال الناعمة ، وننزل جميعا لنجدتها ، الرمال ساخنة تلسع ايدينا ونحن نزيحها عن عجلات العربة ، وتلهب سيقاننا الغاطسة فيها حتى الركبتين . وتهب رياح قوية تحمل معهــا كميات هائلة من **رمال الصحراء** وتقذف بها فى وجوهنا تلسعها **كالسياط ،** وتكاد تعمى عيوننا . وفجاة نجـد انفسنا وسط **دوامة شديدة** من رياح الصحراء المحملة برمالها الكثيفة لتتيم احد كثبانها . ويرتفع صــوت نسمعه بصعوبة شديدة .

ــ اصعدوا الى العربات حالا .

ونتلمس طريقنا الي العربات بصعوبة بالغة .

ويعود الصوت مرتفعا :

ــ كلــكم طلعتم للسيارات ؟

الشمس ساطعة ، لكن **دوامة الريح** المحملة بالتراب الناعم تحجب عنا نورها ، ولا نرى بعضنا البعض الا بصعوبة .

ويعود الصوت مرة اخرى :

ــ كل واحد ينطق اسمه ..

وترتفع أصواتنا وأصوات السجانة والمســاجين العاديين ، كل ينطق اسمه .

تتوقف رياح الدوامة التى لفتنا فى هذا المكان ، لتنقل الى مــكان آخر ونراها من بعيد . سيارة واحدة ، كانت فى المقدمة ، نجت من الغرق فى الرمال . كل عجلات السيارات الباقية **غرقت فى الرمال الناعمة** .

— كان يمكن أن نرقد تحت الرمال .
— انتقال الدوامة من هذا المكان أنقذنا من **موت محقق** .

ويضحك زميل ويقول :

— كثبان تاريخى .

ويرد الضابط المسئول عن « الترحيلة » ضاحكا ، وكان فى العربة التى لم تغرق :

— وأتحمل أنا المسئولية ؟
— أمام الله أم الحكام ؟
— الله لا يرضى بذلك .
— لكن الحكام يتمنون .
— ويحاسبونك على «العهدة» التى لم تسلمها !
— أو سلمتها لغير أصحابها .

ويقول الضابط ضاحكا :

— أحسدكم على روحكم الساخرة حتى فى أحلك الظروف والمواقف .
— ونحن محجبون ضد الحسد !
— ليتنى أعرف مصدر روحكم العالية
— الفكر .
— فقط ؟
— وممارسة تصل به الى اليقين .

ونعود مرة أخرى الى ازاحة الرمال الناعمة عن عجلات العربات الغارقة فيها كى تجد **طريقها الى السجن** ! يا ذوى القــلوب الســوداء والاكباد الغليظــة ، **بايدينا نمهد طريقنا** الى الســجن دفاعا عن حياتنا التى تريدونها أن تنتهى تحت رمال **كثبان الصــحراء** . وبفكرنا ويقيننا وبقوة شعبنا العظيم وتضامن كل الوطنيين ستجد مصرنا الغالية طريقها الى الحرية والديمقراطية والتقدم الاجتماعى .

قرص الشمس يسقط ببطء خلف الكثبان البعيدة العالية . الظلام يزحف يغطى الصحراء الواسعة ويختفى السراب . وتستأنف السيارات سيرها **نحو السجن** ! أحلامهم سراب وأن خطف بريقه الابصار ، وأحلامنا حقيقة يلوح شــعاعها بعيــدا فى الافق ، وظلام ســجونهم لا يقوى على طمسه .

وتقف بنا العربات بعد حوالى نصف ساعة امام **بوابة السجن** . الطوب والزلط والاسمنت بكميات كبيرة ماتزال أكواما تنتظر خلطها لبناء الجزء الباقى من السجن . عنبران تم بناؤهما والعنبر الثالث لم يرتفع اكثر من اساساته والعنابر الثلاثة ما زالت فى العراء لا يحيط بها سور من الطوب ، وانما **اسلاك شائكة** .. مؤقتا .

— لماذا تعجلوا فى نقلنا الى هنا والسجن لم يتم بناؤه بعد ؟

ويقول المأمور الجديد للسجن :

— فوجئت مثلكم تماما .. ولا ادرى كيف ادبر طعامكم ..

ويضحك المأمور القديم ويقول :

— لديهم خبرة فى الطبخ !
— لكن لا يوجد اى شىء يطبخ ليؤكل ، او حتى مطبخ .
— اتينا بكميات من العدس والفول والفاصوليا والملوخية الناشفة ..
— تبقى مشكلة طبخها ..
— تتدبر .. ولا يهمك .

ويصدر المأمور الجديد اوامره للسجانة كى يقوموا **بتفتيشنا** وتفتيش أمتعتنا . ويسأل أحد السجانة :

— ايه الممنوعات يا سعادة البيه ؟

ويصرخ المأمور الجديد غاضبا :

— مش عارف هيه ايه الممنوعات يا سجان يا ابن (...) .

ويرد السجان :

— يبقى كل اللى معاهم ممنوعات .

ويعود المأمور الجديد الى صراخه :

— وجابوها منين .. همه مش جايين من سجن ؟

وينتحى به مأمور سجن « جناح » جانبا ويتحدث معه بعض الوقت ويعودان الينا . يقول المأمور القديم :

— وصلنا الى حل وسط .. الكتب والشاى والسكر والاطباق والملابس المدنية .. و .. و .. تحفظ مؤقتا فى مخزن حتى يسأل المأمور القاهرة .

— ورد القاهرة معروف مقدما ..

ويقول المأمور الجديد بغضب :

— وانا اتحمل مسئولية وجود ممنوعات فى السجن .
— ونحن لسنا على استعداد للتنازل عن اى مكسب كسبناه .
— وانا لست مستعدا للتفريط فى النظام .
— نظام سجون القاهرة لا يمكن تطبيقه هنا .
— لم يحددوا لى نظاما غيره .

— تصرف .. كما تصرف مأمور سجن « جناح »

ويتدخل المأمور القديم :

— الوضع مختلف يا جماعة .. فى « جناح » كانت خيام .. وهنا زنازين يعنى نظام .
— حسنا .. ليوفر لنا اذن كل حقوقنا فى لائحة السجون .
— سأوفرها لكم بالكامل .
— أين عشاؤنا من اللحم والخضار ؟
— ولم نتناول فى سجن « جناح » وجبة الغذاء من العدس أو الفول .
— ولنا الحق فى ثلاثة أرغفة كاملة .

يصمت قليلا .. ثم يقول مبتسما :

— أحتاج الى مساعدتكم .
— ونحتاج الى مرونتكم .
— نجرى اتفاقا .
— بشرط ان ندخل السجن ومعنا كل حاجياتنا ثم نناقش .
— موافق .. وانتدبوا من يمثلكم .

انتدبنا وليم طانيوس و د. شريف حتاتة ليناقشا مأمور السجن الجديد ويجريا معه اتفاقا . ونحن فى مركز قوى ، نملك خبرة اقامة منشآت فى السجن . مثل المطبخ ، والمخبز ، والورش ، ونملك الكادر الذى يديرها . والمأمور ليست لديه اى أوامر محددة بالنسبة لنا ، وعلينا أن نستفيد من هذه الظروف المواتية لعقد اتفاق يسمح لنا بحد معقول من الحياة داخل هذا السجن الجديد ، ليس كما كنا فى «جناح» ، ولا كما يعيش المسجونون فى سجون القاهرة .

— يعنى حل وسط ؟
— لا يا وليم .. مساومة .
— الثوار يساومون أحيانا .
— واشهد لك بالبراعة .

ويعود الينا وهو يحمل اتفاقا محددا . نقوم باستكمال بناء المطبخ بسرعة وادارته ، كذلك المخبز . نودع الملابس المدنية (البيجامات والارواب والبدل) . فى احدى الزنازين ولا تفتح الا بحضور من يمثلنا « مسئول الادارة » . يسمح لنا بأخذ السجاير والعلب المحفوظة والسكر والشاى ويتفق على مواعيد عمل الشاى خارج الزنازين ، تظل الزنازين مفتوحة منذ الصباح حتى الثامنة مساء ولا يسمح بالخروج من باب العنبر الا فى أثناء طابورى الفسحة ، ساعة فى الصباح ، وأخرى قبل غروب الشمس بقليل . توضع الكتب فى مكتب أحد الضباط ، ليأخذ منها كل زميل كتابايستبدله بآخر بعد قراءته ، ويشرف بعض الزملاء على تنظيم استعارة الكتب .

— كويس يا وليم .
— ماكانش ممكن أحسن من كده .

يعلق مجدى فهمى .

ــ طيب .. هايل .

ويضحك وليم :

ــ ايوه كده .. هايل غير كويس !

واضحك قائلا

ــ لا تنس أن « هايل » دى لازمة لمجدى .
ــ برضه أحسن من « كويس » .

ملوب جدران الزنزانة البيضاء ، وسقفها الاسفلتى «تبخ» حرارة الشمس التى امتصتها طول النهار ، تلسع وجوهنا ، ثم الجزء الاعلى من اجسامنا العارية ، والعرق يتصبب دون توقف ، حتى الهواء الذى يصل الينا من النافذتين العاليتين وكأنه مر على « جهنم » قبل أن يأتينا. اجسامنا التى هدها التعب وأنهكها المجهود الذى بذلته خلال الطريق لازاحة الرمال الناعمة من حول عجلات العربات ، تابى الاستسلام للنوم ، ويأتى من آخر الزنزانة صوت ماجد حافظ :

ــ مين يعرف جغرافيا ؟ .

ويرد عليه وليم اسحق ..

ــ ليــه يا ولد ؟

ويرد ماجد حافظ ضاحكا :

ــ مفيش ولد هنا .. فقدت عرشك يا ملك الصحراء .
ــ لم افقده .. ولن افقده .
ــ أخذوا منك الصحراء .. واعطوك حتة فى زنزانة فى الصحراء ..
ــ برضــه ملك .
ــ ملك الشطرنج ..

وينهض وليم طانيوس بقامته الطويلة ونصف جسمه الاعلى عارى ، والشعر الكثيف يملأ كل صدره ، يمسك فوطة وجه « ويهوى » بهــا وتتوالى تعليقات الزملاء :

ــ شــوية هوا ينوبك ثواب .
ــ الله دى الزنزانة بحرى .
ــ ايه « السكس » ده يا وليم ؟
ــ « سكس » محبوس .
ــ وامتى اخذ حريته ؟

ويدافع وليم عن نفسه « وسكسه » . عشرات العــذارى ستطن فى « دباديبه » . لكن ماكانش ممكن .

ــ ليــه يا وليم ؟
ــ الجمود يا بيه .
ــ الجمود والا البرود ؟

— برود فى عينك

ويقف **سعد باسيلي** . هو ايضا شبه عارى ، العرق يتصبب منه يجففه بفوطة الوجه حينا ، و «يهوى» بها حينا آخر . جسمه أبيض يشوبه احمرار ولا توجد شعرة واحدة فى صدره او فى ساقيه .

ويصرخ **رمزى يوسف** ضاحكا :

— لا .. ما اقدرش على كده ؟

— ايه يا رمزى ؟.

يشير الى سعد باسيلي ويقول :

— الفتنـــة واقفـــة ..

يضج الجميع بالضحك ماعدا سعد باسيلي الذى تصله النكتـــة متأخرة . فهو «جد» جدا ولا يحب النكت وكان ثلاث زملاء آخرين كانوا فى عالم آخر . اثنان منهما كانا مشغولين بعمل « مخبـــأ » فى الارض **ورمزى يوسف** الذى كان يضع سماعة « الترانزستور » على احـــدى أذنيه . يهمس فى أذنى :

— **مقال خطير فى الاهرام** .

— لخصــــــه لنـــا .

ويلخص **رمزى يوسف** المقال الذى يبدو ان الاذاعة اذاعته اكثر من مرة امس الجمعة . وها هى تذيعه بعد نشرة الحادية عشر والنصف اليوم السبت . **هجوم شديد على ثورة العراق ، وعبد الكريم قاسم والحزب الشيوعى العراقى** . ورد على الاتهامات التى وجهت الى الحكم فى مصر خلال محاكمات المهداوى . **وعيد وتهديد** . « للشيوعيين » المصريين الذين يتعاطفون مع **قاسم والشيوعيين فى العراق** . أولئك الذين هتفوا فى بعض التجمعات ، وكتبوا فى المنشورات **« زى قاسم يا جمال »** !

— يعنى ايه زى قاسم ؟

— يعنى جبهة وطنية فى مصر زى العراق .

— وراحت فين **الجبهة** اللى كانت ملتفة حول **جمال** ؟

— كانت فى ســـــنة ٥٦ .

— مؤشر خطير .

— حملة اعتقالات واسعة متوقعة .

— وتنكيل بنـــــا .

— نحن الرهائن .

— طفـــــولة يسارية .

— وعبث اطفـــــال .

ويرتفع صوت عاقل :

— لا تنسوا مسئولية **الحكم فى مصر** ، ونحن لا نعرف الوضع فى العراق بالدقة . الح طفولة يســــارية من **الشيوعيين فى العراق** ، ومواقف قومية متعصبة **لعبـد الكريم قاسم** . وتنافس على زعامة المنطقة بين القاهرة وبغداد له امتداده فى التاريخ المعاصر ، فلنتريث حتى

نجمع أكبر مادة ممكنة تساعدناعلى تحليل الموقف . والامر العاجل بالنسبة لنا هو أن نعد انفسنا لاسوأ الاحتمالات .

منذ دخلنا **السجن** ونحن نعيش فى « **دوامة** » **الاحتمالات** . عشنا فيها فى **سجن مصر** ، وانتقلت بنا الى **ليمان أبى زعبل** ، ثم الى **ليمان طره** ، ثم الى **سجن** « **جناح** » .. وها هى تنتقل بنا الى سجن « **المحاريق** » وكانت دوامة تختلف عن كل الدوامات التى عشناها ، فى السجون الاخرى.كانت لها سمات خاصة تشترك معدوامة رمال الصحراء الناعمة، تلك التى عشناها بعد ظهر اليوم فى سمة أساسية ، سوف تتضح لك معالمها يا حبيبتى فى رسائلى المقبلة .

والى اللقاء فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٧ أغسطس ١٩٧٧ ــ القاهرة

الرســـالة رقم (٤٣)

حـــبيبتى :

لا أعرف ان كان الانسان قد اكتشف قوانين دوامات الطبيعة ، فى البحر ، وفى الجو ، وفى الصحراء ، أم لا ؟ ربما يكون اكتشفها لكنه لم يستطع بعد السيطرة عليها ، وان امتلك القدرة على مقاومتها . فاذا وجد السباح المــاهر نفسه فجاة وسط دوامة فى البحر ، فانه لكى ينقذ حياته يهبطالى قاع البحر ويسبح فيه حتى يخرج من الدوامة ، والطيار المــاهر يتفادى أسر الدوامة الهوائية بالصعود بطائرته او الهبوط بها سريعا . وبدو الصحراء قادرون بملاحظتهم الدقيقة لاتجــاه الريح أن يبتعدوا عن مكان تنتظره دوامة الرمال الناعمة . ولست أعرف كيف يمكن مقاومة **دوامة الرمال الناعمــة اذا وجد انســان نفسه داخلها فجاة .** ما أعرفه ، هو ما حدثتك عنه فى رسالتى السابقة حين فاجأتنا دوامة الرمال الناعمة ونحن فى طريقنا الى سجن **المحاريق** بسبب جهل « **قادة** » السيارات ، فقد كانوا من المدينة ، ولو كان معنا أحدا من بدو الصحراء لمــا فاجأته الدوامة التى لم ينقذنا منها سوى تغير اتجاه الريح ! **والحياة فى السجن دوامة** . والدوامات التى عشناها فى **ســجن مصر وليمــان ابو زعبل وليمان طره ، وسجن جناح** ، كانت اقرب الى دوامات البحر والجو ، نجونا من أخطارها حيث كنا نملك القدرة على التصرف . وبعد الاشهر الاولى من وجودنا فى سجن **المحاريق** ، لاحظنا بوادر « دوامة » تشبه دوامة الرمال الناعمة وتفاديناها ــ رغم انه لم يكن بيننا أحد من بدو الصحراء ــ وفجاة وجدنا انفسنا داخلها ، لا نملك غير الانتظار . لقد وصل الينا **«قادة» احياء القاهرة «الراقية»** وسلبونا حق التصرف ، ووجدنا أنفسنا جميعا وسط **دوامة الرمال الناعمة** ومات من مات ، **ومن** لم يمت خرج من السجن نصف ميت ! رغم أن الريح غيرت اتجاهها .

بدات حياتنا الجديدة فى سجن « **المحاريق** » تســير وفق الاتفاق الذى تم مع مأمور السجن الجديد . ساهمنا فى استكمال بناء المخبــز والمطبخ وورش النجارة والحدادة ، وانتظم معظم الزملاء فى العمــل فيها وبعد مضى اسبوعين تقريبا حصلنا على مكسب هام ، هو عدم غلق **الزنازين** علينــا الا بعد الثامنة مساء ، مع حقنا فى ساعتين فسحة فى صباح وبعد ظهر كل يوم . واستطعنا من خلال تعاوننا مع الادارة الجديدة للسجن فى استكمال الناقص من منشآت السجن المختلفة أن نكسب احترامها حين احترمنا كلمتنا مع المــأمور . ومن خلال هــــذا الاحترام المتبادل حصلنا على حق بناء «فرن» لحرق الفخار ! ولهذا «الفرن» قصة طريفة احكيها لك :

ذات يوم — بعد حوالى شهر من وجودنا فى سجن **المحاريق** — كنت اسير ومعى **وليم اسحق** على مسافة بعيدة من « العنبر » الذى نعيش فيه — داخل أسوار السجن ، وقريبا من «فيلا» مأمور السجن — خارج الاسوار . وجلسنا الى جانب السور الذى يفصل السجن عن «فيلا» المـأمور . كان المـأمور ومعه طفلاه يتمشون قريبا منا ، خارج الأسوار وكنا نراهم من البوابة الخلفية للسجن . فجاة وجدناهم يقفون أمامنا . كان وليم يقوم بتشكيل «زهرية» من طين عثر عليه فى فناء السجن . هذا «الطين» كما يؤكد وليم أفضل كثيرا من «الطين» الذى يصنعون منه الفخار والخزف فى القاهرة . انتبهنا على صوت المـأمور يقول :

— بتعمل ايه يا وليم ؟
— زهريـــــة .

تناولها المـأمور وبعد أن تأملها قال :

— والطين ده منين ؟
— ده مالى الدنيا هنا .
— ممكن يتعمل منه فخار ؟
— وخزف كمان .. احسن من « البورسلان » .
— طبعا بمعـــــدات حديثة .
— ابدا .. مش اكثر من معدات بتاع القلل الفخار .
— اعتقد انه محتاج لحرارة شديدة .
— ممكن جـــــدا .
— ازاى ؟
— الحطب مالى الدنيا هنا .
— مش مصدق .
— نعمل تجربة .
— موافق .. ورينى همتك .

وينصرف المـأمور بعد ان يتفق مع وليم على أن يبدأ العمل فى بناء الفرن من صباح الغـد ، وبات **ملك الصــحراء** يحلم باستعادة عرشه الذى فقده فى جناح .

— لم افقد العرش يا درش .
— على وزن « أنت العرش يا درش » . كما قالها الوفديون للنحاس باشـــا .

وبدأ العمل فى بناء الفرن . كميات كبيرة من «الطين» نجمعها من اماكن متفرقة فى فناء السجن ، نكدسها فى كوم كبير ، لنأخذ منه مانضعه فى حفرة كبيرة ونعجنه بالمـاء — وعـدد من النجارين « **الاخـوان** » يقومون بعمل « دولاب » الفخار ، ومنضدة كبيرة . وعدد آخر يبنيحجرة من الصاج . ولمدة ١٥ يوما كان العمل يجرى بنشاط حتى موعد «التمام» فى الثامنة مساء ، وكان المـأمور يأتى كل يوم يراقب ما يجرى أمامه فى دهشة . أحيانا لمـا يشـاهده من **حماس شديد** فى العمل ، وأحيانا

اخرى لانه لا يصدق امكانية بناء فرن هنا لحرق الفخار والخزف بامكانيات محلية مائة فى المسألة .

ها هو الفرن قد تم بناؤه . وهذه كميات كبيرة من **الاواني والزهريات** والاطباق التى شكلها الزملاء من الطين ، ولم يبق غير اشعال الفرن والقيام بالتجربة . ويقول المأمور :

— انتاج كتير .. بس لسه طين .
— حالا نولع الفرن وتشوف الفخار .. والخزف .
— فخار ممكن .. لكن خزف دى كبيرة قوى .
— لو تسمح نبعت نشترى الوان «جليز» وبعض المواد الكيماوية وتشوف الخزف .
— اكتب لى قائمة باللى انت عاوزه وانا ابعت اشتريه .
— وبعد ماتشوف الانتاج .. اقدر اطلب حاجة ثانية ..
— كل طلباتك مجابة .. بس اشوف الفخار والخزف .

ويضحك وليم ويقول :

— كلها .. كلها ؟

يشارك المأمور الضحك ويقول :

— ماعدا حاجتين ما اقدرش اعملهم .
— الافراج اول حاجة .. والثانية أيه ؟
— الستات .

ويضج الجميع بالضحك .. ويعلق وليم :

— ماهو الافراج والستات حاجة واحدة .

ويعلق **ماجد حافظ** :

— انت لسه فاكر شكل الستات يا وليم ؟
— اسكت يا ولد .. انت لسه صغير .. متعرفش الحاجات دى .
— صغير .. صغير .. أدامى مستقبل .. المشكلة بقى فى اللى عجزوا .

وتسود فترة صمت ، ينصرف خلالها المأمور دون أن يعلق . لكن مسحة من حزن تكسو وجهه . **ماجد حافظ** مايزال شاب ، لس بتلقائية ما عملنا على دفعه **للخلف** طوال السنوات السابقة .. معظمنا تجاوز **الثلاثين** من عمره ويقترب من **الاربعين . كم يبلغ عمرنا عند انتهاء مدة العقوبة ؟** وكم يبلغ عمرنا حين نخرج من السجن ؟ سيزيد من الاربعين ؟ هل نجد من النساء من يرضى بنا ؟ واذا وجدناهن ، **هل نملك مانعطيهن ؟** ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . كثيرون احبوا ومارسوا الحس بعد الخمسين لابعد الاربعين . وهناك رأى يقول بأن الرجل لا يتوقفعطاؤه حتى المائة . الاربعون أو بعدها بسنوات قليلة سن النضج والرجولة. المهم هو أن نحافظ على صحتنا .

ويضحكته الطفولية والتى تحمل اعتذارا يقطع ماجد حافظ صمتنا الخارجى ، وحوارنا الداخلى ، ويقول :

— ايه ؟ مالكم بلمتم كده ؟ الشباب شباب القلب .

ونرد فى نفس واحد وبصوت عال :

— يا ابنى احنا شباب على طول .

كانت كلمة اشعلت النار فى اعماقنا وكنا قد أخمدناها منذ دخلنا السجن ، كانت كهذا البنزين الذى وضعه وليم اسحق على الحطب والفحم ليشعل نار الفرن التى ستحرق الطين وتجعل منه فخارا . ترى ما الذى ستفعله فينا النار التى اشتعلت فجاة فى داخلنا ؟

النيران تحول الحطب الى رماد ، وتبدد سواد الفحم تدريجيا حتى يتحول الى جمرات حمراء ترسل لهيبها القوى الى الطين لتحوله فخارا. يحكم وليم غلق باب الفرن ، وينظر الى جمرات النار المشتعلة من خلال طاقة زجاجية صغيرة ويقول :

— ٢٤ ساعة وكل اللى فى الفرن يستوى .

الساعة تقترب من الثامنة مساء وحان موعد انصرافنا الى الزنازين كى تغلق علينا حتى صباح اليوم التالى . وقبل أن ادخل باب العنبر التفت الى الفرن ، كان لهيب النار يرسل شعاعا يخترق ظلام الليل الحالك واحسست بهدوء نفسى .

وحتى انصرافنا من « أتيليه الفخار والخزف » فى مساء اليوم التالى لم نفعل شيئا سوى تأمل الجمرات الحمراء وهى ترسل لهيبها الى الاوانى والزهريات الطين لتحوله الى فخار .

— لهيب النار يكسب الطين صلابة .
— كما يكسب لهيب الثورة الثوار صلابة .
— لا تكسبهم .. وانما تزيدهم صلابة .
— معك حق .. النار فى الحالتين عامل خارجى .

ونرى المأمور قادما نحونا ومعه ولديه وطبيب السجن ، وبعض أصدقائه من الموظفين الذين يعملون فى الوادى الجديد . يلتف الجميع حول الفرن يتأملون النار المشتعلة داخله وهى تخبو تدريجيا .

ويقول المأمور :

— اظن الفخار استوى يا وليم ؟
— نصف ساعة ويبقى كله تمام .

يلتفت المأمور الى من معه ويقول بفخر :

— دلوقت تشوفوا الانتاج العظيم .. و..

ويقاطعه وليم :

— بكره الصبح .

— ليه بقى انت مش بتقول نصف ساعة ؟
— ايوه .. بس مش ممكن افتح الفرن الا لمـا يبرد خالص .

ويقول واحد من الذين جاءوا مع المـأمور :

— يا خسارة كنت عاوز ارجع البيت ومعايا زهرية ..
— معلش .. كلها سواد الليل .
— بس انا مش فاضى الصبح .

ويقول المـأمور ..

— اطمئن مش راح اتصرف فى حاجة الا لمـا تيجى بكره بعد الظهر.

كان المأمور يخاطبـه **باحترام شـديد** . ربما كان **المحافظ** ، وربما كان **ضابط مخابرات او مباحث** . من يدرى ؟

وينصرف المـأمور ومن معه بعد ان يؤكد على وليم بعدم التصرف فى اى **قطعة** ، فكل ما فى الفرن قد أصبح **((عهدة))** ! **ولا يعترض الفنان** ، فالذى يسعده هو الخلق ، وهو يفرح حين يجـد انتاجه مع الناس . الفن من اجل الناس ، وليس الفن للفن .

— ولكن ليس بالاكراه يا وليم .
— الظروف تحكم يا درش .
— وعلينا أن نستفيد منهـا .
— سأطلب من المـأمور عمل مرسم .
— سيوافق بشرط ..
— أن تصبح اللوحات « عهدة » !

وفى صباح اليوم التالى نجد المـأمور ومعه كل من صحبوه مساء أمس حتى ذلك الرجـل ((**المحترم**)) فى انتظار وليم كى يفتح الفرن . جمرات الفحم تحولت الى رماد ، والطين اكتسب حمرة خفيفة . يخرج وليم احدى الأوانى و ((**يخبط**)) عليها بأصبعه ((**فترن**)) ويقول :

— الفخار الكويس « رنتـــه » مش مكتومة .

ويتناول المأمور منه الآنية ويعطيها للرجل ((**المحترم**)) ..

— قطعـــة فنيـــة ..

وعلى المنضدة كانت كمية كبيرة من الزهريات والاوانى والاطباق والتماثيل ، يتبادلها الواقفون ويبدون اعجابهم . ويلتفت المـأمور الى واحد من الضباط ويقول :

— يا حضرة الضابط سجل الحاجات دى كلها فى دفتر « العهـدة » .

ويقـــول وليم :

— بلاش نسجلها المرة دى .
— لا ياوليم ده مجهودكم ولازم تحتفظ بيه .

— نحتفظ بيــــه ليه ؟
— تعرض للبيع فى معارض **مصلحة السجون** . جزء منها ثمنها لكم .
— طيب ايه رأيك نعتبر الشـــوية دول تجربة .. وبعـــد كده نســـجل .
— ودول نعمل فيهم ايه ؟
— هـــدية لسيادتك ..
— وانا اعمل ايه بكل ده ..
— توزعهم بمعرفة سيادتك .

ويعلق الرجل « **المحترم** » وبعض الآخرين :

— معقول نعتبرهم « تجربة » .
— وسيادتك تتولى توزيعها كهدايا ..

ويكلف المـــأمور بعض السجانة بحمل الانتاج الى مكتبه . وقبل ان يتصرف المـــأمور ومن معه يقول :

— على فكرة الالوان « الجليز » اللى انت طلبتها جايه بعد كام يوم .
— المرة الجاية بقى نعمل خزف .

ويضـــحك المأمور :

— ونعملهم هدية برضه ؟
— وفيه حاجات ثانية تصلح هدايا .
— ايه هيه ياوليم ؟
— بورتريه ظريف لسيادتك ..

ويشير الى الرجل « **المحترم** » ويكمل :

— أو لوحة جميلة لصالون سيادته .

ويعلق عليه الرجل « المحترم » :

— لفيت البلد كلها مش لاقى لوحة مناسبة **لحجرة النوم** .

ويرد وليم :

— أهو ده بقى اللى ما اعرفش أرسمه ..
— ليه ؟ انت فنان .
— والفنان لا يرسم الا اللى مقتنع بيه .

ويضحك الرجل « المحترم » :

— امرأة عارية لا تقنعك ؟

ويحمر وجـــه وليم خجلا ويقول :

— ممكن تقنعنى بحاجات تانية .. لكن أرسمها ، لا .

ويعلق **داود عزيز** .

— ويجيب منين **امرأة عارية** .. هنا فى السجن ؟
— وهوه لازم يعنى موديل ..
— امال يرسم ازاى .. ؟
— من الخيـــال ..

ويضحك وليم ويقول :

— خيالى مابهوش ست عريانة .
— لازم انت مش متجوز ؟
— وحتى لو كنت متجوز ..

ويبذل الرجل « المحترم » آخر محاولة لاقناع وليم :

— عندى صورة هايلة **لمارلين مونرو** .. وضع اغراء .
ويبتسم وليم ابتسامة مريرة ، ويقول :
— أنا .. أصلى ما اقدرش على كده .

وتبدو علامات الدهشة على وجه الرجل « المحترم » نموذج غريب من البشر . **كيف يكون فنانا ولا يرسم امراة عارية ؟** يرسم ايه أمال ؟ انه يعرف فنانين كل لياليهم « حمراء » . حجرات نومهم مليئة بصور النساء فى أوضاع مختلفة . صحيح عندى منها الكثير فى « الجارسونيرة». لكن كنت عاوز واحدة «حشمة» شوية فى منزل **« الزوجيـــة »** . وكمان كان يمكن أن تكون « مادة » حديث مع الزوجة قبل وجبة « الخضـــار المسلوق » فى حجرة النوم . « ياه » ! دى كانت تبقى فعلا تسليـــة ظريفة .. **فنان .. ومسجون .. واحمر** .. يرسم لى انا « **وحدى** » صـــورة **امراة عارية** ، لماذا لا اصدر له امرا ؟ كل رغبـــاتى فى هـــذا البلد تحققها أوامرى فكل من فيها يعرف من «انا» بالتأكيد . اذا عرف سوف ينفذ أمرى ؟ احتمال كبير أن لا ينفذه . هؤلاء « الحمر » عنيدون . سأتفاهم مع المـــأمور :

ويحاول المأمور تخفيف صدمة رفض طلب الرجـــل « المحترم » فيقول مبتسما :

— تحب سيادتك تختار ايه من الحاجات دى ؟
ويرد عليه بضيق واضح :
— أى حاجة .. بعـــدين .
ويلاطفه المـــأمور قائلا :
— وعندنا كام فنان .. ضرورى حد منهم يرسم الصورة لسيادتك ، ويلتفت الى وليم اسحق .
— خلاص ياوليم .. اختار زنزانة من الزنازين الفاضية اللى فى عنبركم وجهزها للرسم . عندك الادوات اللازمة ؟
— موجوده كلها فى المخزن .
— ابقى تعالى خدها .

ويدرك المـــأمور من خلال خبرته فى التعامل معنا ، مغزى الا يشكره وليم اسحق وقد حقق له مطلبا عزيزا بموافقته على عمـــل مرسم فينصرف ومن معه بعد أن يرجو الرجل « المحترم » أن يتقدمه ! ربما ارضاء لغروره . وربما كى نفهم الى أى حد هـــذا الرجل « محترم » فنعيد النظر فى أمر رفض وليم رسم صورة **المراة العارية** ؟

فى تكاسل شديد نحاول استئناف تشكيل الطين دون أى تعليق على ما حدث . أين حيوية « **ملك الصحراء** » وابتسامته الدائمة ، وتعليقاته الساخرة ، ومزاحه الدائم مع تلاميذه الصغار ، نبيل حلمى ، ومحمد خليفة ، وماجد حافظ ، ومنير المغربى؟. ينتحى **داود عزيز** به جانبا ويتهامسان . ارقبهما من بعيد وأرى فى تعبيرات وجهيهما ترجمة لحديثهما. فجأة يقطع وليم اسحق حديثه مع داود عزيز ويسرع نحوى قائلا بغضب :

— انا بقى مش مستعد ..

واقاطعه :

— ونا كمان مش موافق .

ويقول داود عزيز :

— طيب نتناقش .

وارد بحسم :

— وبدون مناقشة .
— موقف غير سياسى .
— بل محاولة غير انسانية .
— السياسة لا تخضع لمجرد موقف انسانى .
— انت فنان ارسمها انت.
— قرار ؟
— لا . باقتناعك .
— ومن قال اننى مقتنع ؟
— هل تقتنع بقرار ؟
— القرار ينفذ ولو عن غير اقتناع .
— اذا تطلب الامر يصدر القرار .

وتعود الى ملك الصحراء ابتسامته الانسانية ومرحه المعروف عنه . ويصيح **رمزى يوسف** :

— افراج يا وليم .. هيص .

يعقبه **منير المغربى** ..

— ملك بصحيح ..

يليه **ماجد حافظ** « العمدة » :

— خد يا ملك سيجارة بلمونت بحالها .

ثم **وديع وهيب** ..

— اعمل لك فنجان « قهوة » قشطة اليمن .

وحتى المساء ، عندما حان موعد عودتنا الى **الزنازين** ، لم تتوقف تعليقات الزملاء على مشهد « **الرجل المحترم** » حين رفض وليم اسحق تحقيق رغبته .

وتمضى الايام المتبقيــة من اغسطس وسبتمبر **عام ١٩٥٨** وحياتنـــا فى الســجن تقترب الى حد كبير من حياتنا فى **ســجن جناح** . الزنازين مفتوحة طول النهار وحتى الثامنـــة مساء ، نشاط ثقافى وفكرى لايشله توقع حملات التفتيش المفاجئة . عدد كبير من الزملاء اصبحت هوايتهم صناعة الفخار والرسم وصنع تماثيل من الجبس . المجلات السياسية والفكرية ونشرة الاخبار العالمية اصبحت ناطقة بعد أن كانت مكتوبة ، لظروف الامان وندرة الورق ، حتى كانت زيارة **اللواء اســماعيل همت فى أول اكتوبر عام ١٩٥٨** . احكى لك عنها فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٩ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٤٤)

حـــــبيبتى :

ســبق زيارة **اللواء اسماعيل همت لسجن « المحاريق » فى أول اكتوبر عام ١٩٥٨** زيارات عديدة قام بهـا عــدد من رجــال **المخابرات والمباحث** ، وكانوا يعقدون لقاءات مع قيادات **الاخوان المسلمين** للحصول منهم على تأييد للحكومة . ولم تسفر تلك الزيارات الا من تأييد عدد قليل بين قواعد الاخوان المسلمين وظل مـــوقف القيادات كما هو لم يتغير . امام هذا الموقف ارسلت « الحكومة الوطنية » اسماعيل همت لارهابهم والتنكيل بهم .

فى ذلك اليوم استيقظنا على صوت بروجى **«اللواء»** يصيح عاليا ، وكانت هذه اول مرة نسمع فيها فى ســـجن المحاريق تحية البروجى للواء .. اى لواء طبعا ! فلم نكن نعرف بعد انه **اسماعيل همت** . لم تفتح الزنازين فى موعدها وسألنا عن السبب فقال واحد من السجانة.. ربما يكون تفتيش مفاجىء يقوم به اسماعيل همت على راس حملة كبيرة من **الضباط والجنود والكلاب** . « ليست نكتة فقد كان مع همت كلبان » . بعـد قليل جاء من يطلب « مسـئول الادارة » كى يقابل ضابط العنبر بسرعة . قال له الضابط انه مكلف من المـأمور ان يبلغنا بانه لا يعرف ما هو الغرض من حضور **اللواء همت** هذا المفاجىء ، ويطلب أن نقوم بعملية « تنظيف » تامة لكل الممنوعات ، خاصة الورق والاقلام والكتب واى شىء له علاقة **بالثقافة او الفكر** ، وان نلبس ميرى مائة فى المائة ، الطاقية الزرقاء على الراس ، وبدلة السجن الزرقاء ، والاحذية بدون رباط ! على فكرة .. النظام فى السجون لا يسمح للمسجون انيلبس حذاء برباط خوفا من ان يستخدم هذا الرباط فى شنق نفسه !

وبسرعة قمنا بعملية « التنظيف » الشاملة ، كل الكتب والممنوعات الاخرى جمعناها ووضعت فى مخزن الملابس ، ولبسنا « يونيفـــورم » السجن ، ثم جلسنا فى **الزنازين** نفكر فى شتى الاحتمالات . لم يخرج أحد للعمل كالمعتـــاد ، وفتحت الزنازين ، زنزانة ، زنزانة للذهاب الى دورة المياه ، وكان موقفنا كالآتى : عدم الاستجابة لاى استفزاز ، فى الوقت نفسه رفض أى عمل يقدمون عليه يهدر كرامتنا **ومقاومتـــه حتى الموت** . كان الزملاء متفرقين فى عدد من الزنازين ، ولا تجمعهم زنزانة واحدة، فاتفق على اختيار زميل فى كل زنزانة لمناقشة **همت** والتصدى لاى عمل ارهابى .

وظلت الزنازين مقفلة علينـا حتى قبـل الظهر بقليل . وفجـأة سمعنا صراخا عاليا بأنات موجعة وطلقات رصاص . ثم رأينا دخانا كثيفا يهبط علينا من نافذتي الزنزانة العاليتين ، كان فى فناء السجن حـريق هائل ، وجاء أحد السجانة ليقول لنا أنه شاهد من باب العنبر ، همت يقف وسط مجموعة من الضباط والاخوان يأتون اليه بين طابورين من الجنود الذين يحملون الكرابيج فى أيديهم ، وبعد أن يقترب « الاخ » من همت يتبادلان كلمات قليـلة ، بعدها تنهال عليـه الكرابيج من كل جانب حتى يقع مغشيا عليه فيسحب ويأتون بغيره ، وهكذا . وبالقرب منه كان عدد آخر من السجانة يحضرون الشنط « المخالى » التى تحتوى على حاجيات الاخوان التى احضروها معهم من « جنـاح » ويلقون بها فى النار .

وتذكرت المناقشة التى جرت بيننـا وبين « ضابط الاتصال » فى جناح وتهديده بعمل مجزرة للاخوان المسلمين المعارضين اذا لم يؤيدوا « الحكومة الوطنية » . لقد صح ما قاله الضابط ، هم لايريدون تأييـد الاخوان كقوى وطنية وانما يريدون تصفيتهم . هم يريدون تصفية كل القوى الوطنية تنظيميا وسياسيا لينفردوا هم بالحكم والسلطان .

ويبرز أمامنا سؤال : نحن جميعا فى السجن وكل زملائنا فى الخارج لا نزال داخل اطار القوى المؤيدة للحكم الوطنى ، فهـل يجىء علينـا الدور بعد الاخوان ؟

وجاءنا الرد سريعا . باب العنبر يفتح فجأة وصوت السـجان يصيح بأعلى صوته :

ــ انتبـاه .

وانتباه تعنى أن يستعد المسجونون لاستقبال شـخصية خطيرة وعليهم أن يقفوا بمجرد ان يفتح باب الزنزانة ويصيـح السجان بنفس الـكلمة ،

ــ انتبـــاه .

ومن ثقب الزنزانة رأينا همت تحوط به مجموعة من الضباط والافندية والكلبان والملازمان له دائما يسيرون داخل العنبر ويطلون بسرعة على الزنازين التى نعيش فيها . توقفت الاقدام الكثيرة عند زنزانتنا ، ثم سمعنا صوت المفتاح يوضع فى باب الزنزانة . يفتح باب الزنزانة وصوت يرتفع عاليا يكاد يصم الآذان :

ــ انتبـــاه .

ووقفنا متحفزين . صوت ناعم أملس يصدر عن همت :

ــ عاملين ايـــه ؟

ــ مســـجونين .

يضحك بصوت عال ثم يلتفت الى قائلا :

ــ اهلا .. ازيك من مدة لم .. ارك .
ــ فعلا .. من سنوات طويلة .
ــ لكن دايما باسأل عنك .
ــ شـــــكرا .

تبدو علامات الدهشة على مرافقيه . انه يتكلم معى بطريقة لم يعهدها احد منهم فيه . لكن الزملاء كانوا يعرفون . فى عامى **١٩٥٠و١٩٥١** كنت موظفا مدنيا فى وزارة « الحربية والبحرية » ــ «الدفاع» حاليا ــ والتقيت مرات عديدة بحكم عملى هذا **بالملازم اسماعيل همت** وكان يعمل بديوان الوزارة . ونشأت بيننا علاقات زمالة العمل ، وفى بعض الاحيان كان يشترك مع الموظفين فى مناقشات سياسية عامة . وبعد ان القى القبض على فى **يوليو ١٩٥٢** بحوالى اربعة اشهر جاءوا به من الجيش وعينـــوه وكيلا **لمامور سجن مصر** . وذات يوم وكنا فى طابور الصباح جاء من ينادى على فقد جاءتنى زيارة خاصة . وذهبت مع السجان الى مكتب الضابط النوبتجى الذى تتم فيه الزيارات الخصوصية عادة . لـــــكن السجان قال لى أن الزوار فى مكتب المامور . وفوجئت به يقف على باب مكتبه ويعانقنى ويقول :

ــ عرفت من الوزارة بخبر القبض عليك .. وكنت أنوى زيارتك .

حسبت انه جاء كزائر مع زوجتى السابقة واخى فقلت :

ــ ليـــه تتعب نفسك .. ازى الموظفين زملائنا ؟
ــ كلهم بيسلموا عليك .. وكلهم مفاجئين .
ــ وانت لسه فى ديوان الوزارة .

ادرك اننى لم اعرف بعد انه **وكيل المامور** فقال ضاحكا :

ــ جابونى هنا وكيلا لمـــامور السجن .

قلت ضـــــاحكا :

ــ تبقى الحبسة احلوت .
ــ اى خدمة انا زى اخوك .
ــ شـــــكرا .

وبدات الزيارة لتستمر اكثر من ثلاث ساعات والمفروض أنها لاتزيد عن نصف ساعة . ترك مكتبه طول مدة الزيارة ولم يكن معنـــا سجانا ولا ضابطا كما يحدث دائما . كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعـــد الظهر حين عاد الى مكتبه . قال :

ــ لو ماكانش عندى مشوار كنت خليتهم قاعدين معاك .
ــ شكرا .. دى زيارة عال جدا .
ثم نادى على الســـجان وقال له :
ــ خد الاكل والسجاير وكل الحاجات دى طلعها فوق فى زنزانته .

ثم وجه حديثه للزوار ، قائلا :

— أى حاجة عاوزين تدخلوها له .. أنا فى الخدمة .

وبعد ان انصرفوا طلب منى الانتظار وجرى بيننا حديث .

— قرات تصريحات **فتحي رضوان** ؟ . سيفرج عن كل السياسيين .
— افرجوا عن الجميع عدانا ..
— مش عملتوا تظلمات زى **القانون** ما بيقول ؟
— أيوه عملنـــــا ..
— ان شاء الله خير .

ثم بدأ الحديث يتطرق الى مهمته فى السجن . الجيش ينوى اصلاح السجون ليكون شعارها « تاديب وتهذيب واصلاح » شعار حقيقى وليس شعارا مجردا .

— كيف ؟
— انا عضو فى اللجنة العليا لاصلاح السجون وقـــد قدمت مشروعا لعملية الاصـــلاح .
— مثـــلا ؟
— عمـل **كانتين** فى السجون تباع فيـه القهوة والشاى والمرطبـات والسجاير وبعض المـاكولات . الغاء الزيارة العادية غيرالانسانية وجعـــل كل الزيارات مثل الزيارات الخصوصية . السمـــاح للمسجون بعـد مدة معينة ولحسن السير والسلوك بزيارة اهله فى منزله مرة كل شـهر على الاقل . الغاء القيود الحديدية للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة والغاء العمل فى تكسير الاحجار . حياة انسانية معقولة للمسجون داخل السـجن . فى نومه ، واكله ، وشربه . والغاء السابقة الاولى حتى لا يعود المفرج عنـــه الى الجريمة .

— عظيم جدا .. هل نوقش هذا المشروع ؟
— بدانا فى مناقشته .. لكنه يواجه بمعارضة شديدة .
— من من ؟
— من ضباط السجون القدامى .. ومن بعض رجال القانون الرجعيين.
— وهل ترى امكانيـــة تنفيذه ؟
— ده مشروع الجيش وهو مصر على ذلك .
— وبالنسبة للمسجونين السياسيين .. مفيش اى حاجة ؟
— عندك اقتراحات ؟
— السماح بالصحف والكتب ومعاملة حرف ا للجميع بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعى .
— ممكن تكتب لى مذكرة ؟
— قوى . بس مامعنديش ورقة ولا قلم ..

فقال ضاحكا :

— أيوه ماهى ممنوعات ..

وناولنى قلم حبر وكمية من الورق ، الفولسكاب : وقال :

— عاوزها بكره ؟

ولاكثر من ستة شهور كان **المأمور اسماعيل همت** يحظى بحب كل المسجونين . فقد كانوا يعرفون أنه «يناضل» من اجل تحسين حياتهم داخل السجن. ولقد استطاع بالفعل أن يحقق بعض المطالب ، مثل : عمل كانتين فى كل سجن ، **السماح بشرب السجاير** ، والغاء القيود الحديدية ، ومعاملة المسجونين السياسيين تحت التحقيق معاملة حرف أ بصرف النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية . وكانوا قبل ذلك يفرقون بين المثقفين الذين يعاملون معاملة حرف أ وبين العمال الذين يعاملون معاملة حرف ب . واصبح الجميع يتمتعون بامتيازات اهمها : النوم على **سرير** وليس على **برش** ، طعامهم من **متعهد** وليس من **السجن** ، حقهم فى قراءة الصحف والكتب المسموح بها .

اذكر انه يوم تقرر السماح **بشرب السجاير فى اواخر عام ١٩٥٢** كان عيدا لكل المسجونين . جمع همت المسجونين ووزع على كل منهم سيجارة ليدخنوا . وكانت سعادتهم لاحد لها فقد كانوا غير مصدقين . ويومها ثارت مشكلة :**الكبريت غير مسموح به ، فكيف يشعل المسجون السيجارة ؟** راى مصلحة السجون ان لا يدخن المسجون الا اثناء الفسحة اليومية ، صباحا ، وبعد الظهر ، ويقوم السجان بمهمة اشعال السجاير . وكان همت يرى أن يسمح بالكبريت وانتصر رأيه فى النهاية .

لم يكن من الغريب ان يعتبر المسجونون همت رجلا مصلحا فكانوا يحبونه . فهو لم يحقق لهم هذه المطالب التى كانت حلما بالنسبة لهم فقط، وانما الغى الى حد كبير انواع الاهانات التى كان المسجون يلقاها يوميا، مثل الضرب ، والسباب ، والتفتيش اللاانسانى . وكان الرجل معنا لطيفا وانسانا ، كانت كل الزيارات الخصوصية التى تاتى الينا يسمح لها بوقت اضافى . وفى الزيارات العادية كان يخصص وقتا لنا وحدنا . وكان يسمح لنا بادخال الكتب المتداولة فى السوق وبادخال الطعام . وخلال هذه الفترة نشأت بينى وبينه علاقة كنت احس من خلالها احتراما لنا وتقديرا . وكان لا يزعم انه يعرف فى السياسة وكان لا يرد على ملاحظاتى السياسية عن الحكم الا بقوله انه لا يفهم فى السياسة ، ويؤمن بأن له رسالة اصلاح فى السجون وليست له رغبة الا أن يحققها .

وفجأة نقل من سجن مصر ، وسمعنا انه عاد الى **الجيش** فى أوائل عام ١٩٥٤ ، واستنتجنا يوما أن ضباط السجون القدامى هم الذين ضغطوا لابعاده لانه على الاقل تسبب فى قطع مورد أساسى من موارد رزقهم ، فقد كانت السجاير والاطعمة التى اصبحت تباع فى الكانتين تجارة يربحون منها الكثير فى **السوق السوداء للسجون** .

والتقيت به مرة ثانية فى **اوائل عام ١٩٥٧** فى سجن مصر وكنت قد رحلت اليه من سجن «جناح» للعلاج ، وكان هو قد عاد اليه مأمورا .

ورايته فى حوش السجن اثناء مسحة **الاخوان المسلمين** حيث كنت اقيم فى عنبرهم ، كان فى يده كرباج وحوله عدد من الضباط والسجانة ، واذا به ينهال على بعض الاخوان بالضرب دون أى مبرر ، ويسبهم بأبشع الشتائم . فوجئت به شخصية اخرى تماما غير تلك التى عرفتها فى سجن مصر عام ١٩٥٢ . لمحنى من بعيد واقفا ولم اجلس «ديز» مع الاخوان . والمعتاد فى السجون أن المسجونين يجلسون «ديز» كلما مر ضابط أو مامور ، أو اذا أراد الحديث معهم . نحن فقط منذ دخلنا السجون الذين لم ننفذ هذا وقاومناه بشدة ، فقد كنا نرى فيه نوعا من المهانة لم نرضها لانفسنا وحين لاحظ عدد من **السجانة** انه ينظر الى هجموا على حتى اجلس «ديز» ولما رفضت تقدم نحوى مبتسما وهو يمد يده للتحية بين دهشة الموجودين من الضباط والسجانة والمسجونين ، وقال :

— اهلا .. انت هنا ليه ؟
— للعـــلاج .
— افتكرت افراج .
— ازاى بقى ؟
— انتم محل تقدير .. انتظروا اخبار هامة .
— نامل .. هل تسمح لى بكلمة ؟

انتحى بى جانبا وبعيدا عن الحاضرين ، قلت :

— انت تغيرت كثيرا ..

ابتسم ، قال :

— ايه اللى اتغير فيـــه ..
— **معاملتك للاخوان المسلمين** .

قال بصوت غاضب :

— اولا : دى اوامر .. وثانيا : انا بطبيعتى لا احب الاخوان .
— كانت معاملتك لنا انسانية ، رغم الاوامر ورغم عدم اتفاقك معنا .

وكان رده غريبـــا :

— بالنسبة للاوامر .. فقد كنتم تقاومونها وكنت التمس من مقاومتكم حجة .. ولم اكن متفقا معكم .. ولكن لم اكن معاديا لكم .

وكانت هذه هى المـــرة الثالثة التى التقى فيها مع **اسماعيل همت** فى **نوفمبر ١٩٥٨** ، وكان قد أصبح **مديرا عاما لمصلحة السجون** منذ شهور . وبعد أن تبادلنا تلك الكلمات القليلة . انصرف ومن معه من العنبر ، ثم من السجن ، وعاد الى القاهرة ، ثم رايناه بعـــد ذلك فى **مايو ١٩٥٩** مرة رابعة فى سجن « **المحاريق** » يشرف على أكبر عملية تنكيل بزملائنا الذين عليهم قبض فى **أوائل يناير ١٩٥٩** .

كانت زيارة **اللواء اســـماعيل همت** اذن خاصـــة لارهاب الاخوان المسلمين . يبدو أن الخلافات التى لاحت بوادرها منذ **ثورة العراق فى**

يوليو عام ١٩٥٨ بين زملائنا فى الخارج وبين **الحكومة الوطنية** ، لم تصل بعد الى حد يجعلهم ينكلون بنا . ولكن نحن نقاوم هذا الاسلوب الارهابى اذا وقع علينا ، ونستنكره اذا وقع على غيرنا ، وقد سبق أن أرسلنا من «جناح» استنكارا للمذبحة التى **قتلوا فيها ١٣ اخا فى ليمان طره** . وقررنا ان نكتب للمسئولين مذكرة نستنكر فيها هذا الارهاب الوحشى للاخوان والذى يتعارض مع ابسط الحقوق الانسانية التى أقرتها المواثيق الدولية.

ومضى على انصراف **اسماعيل همت** اكثر من ساعتين .. لكن الزنازين ظلت مغلقة علينا . كنا خلالهما ننادى على السجان ليفتح لنا الزنازين فيقول بانه ليست لديه اوامر بذلك . اخذنا ندق بأيدينا على أبواب الزنازين ، كي تصل اصواتنا الى المأمور او الضابط ، واستمر دقنا يعلو ويعلو حتى جاء ضابط العنبر :

— ليه الزنازين مقفولة ؟
— ليس عندي أوامر بفتحها .
— وهل عندك أوامر باستمرار اغلاقها ؟
— لا ..
— اذن افتح .
— لما المأمور يصدر اوامر ..
— أظن الاوامر عادية .. طالما ماعندكش أوامر اخرى ..
— كلام منطقى بس مش راح افتح ..
— طيب نقابل المأمور ..

لا يرد وينصرف . ونعود الى الدق على الابواب ويستمر دقائق يعود بعدها الضابط ويطلب « مسئول الادارة » كي يقابل المأمور . وتبدأ متاعب من نوع جديد . أحكى لك عنها فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى.

١٠ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٤٥)

حـــبيبتى :

لم تسفر المناقشة بين **مامور السجن** وبين زميلنا « مسئول الادارة » حول طريقة معاملتنـــا فى السجن بعد حملة **همت الارهابيـــة للاخوان المسلمين** الا عن المعـــاملة نفسها التى يعاملوا بها الاخوان ، ففى حين اصدر تعليمات محددة بشأن معاملة الاخوان ، فانه لم يقل شيئا محددا عن معاملتنا واكتفى بكلمتين : **طبق النظام .**

— اذن لا جديد بشأن معاملتنا .

ويرد المـــأمور :

— بل هناك جـــديد .
— ماهـــو ؟
— النظـــام .
— منذ جئنا هنا ونحن نطبق نظاما .
— لم يكن نظاما بل اتفاقا بيننا .
— كان اتفاقا حول نظام .
— بل كان اتفاقا حتى نعرف النظام .
— وكيف نعرف النظام ؟
— من الاوامر .
— وهل وصلتك أوامر محددة بشأننا ؟
— عندى أوامر بشأن معاملة الاخوان المسلمين .
— وبالنسبـــة لنا ؟
— أمرنى بتطبيق النظام .
— اى نظـــام ؟
— النظام الذى يطبق على الاخوان المسلمين .
— كيف ولم تصدر لك أوامر بالنسبة لنا مماثلة لتلك التى صـــدرت بالنسبة للاخوان ؟
— ولم تصدر أوامر أخرى بالنسبة لكم .
— اذن يستمر الوضع حتى صدور اوامر أخرى .
— ربما يحملوننى المسئولية بعد ذلك .
— وهل تتحمل مسئوليـــة تطبيق نظام علينا لم تصدر لك أوامر به ؟
— الاخف ضررا بالنسبة لى .
— وربما يكون العكس .
— املك ما ادافع به عن نفسى .
— قلت انك لا تملك اوامر بالنسبة لنا .

ـ أملك تفسيرا لكلمتى : طبق النظام .
ـ والنظام هو الذى يطبق على الاخوان ؟
ـ بالضبط ..
ـ ولكنك غير مقتنع بهذا التفسير .
ـ صحيح .. ولكنه ينقذنى عند اللزوم .
ـ واين تذهب من ضميرك ؟
ـ وماذا يفعل الموظف غير ذلك ؟

ووجدنا انفسنا فجاة بين **شقى الرحى** ، زملاءنا فى السجن الذين كنا دائما منذ التقينا بهم فى **ليمان طره** نتفق معهم على مواقف واحـــدة ، غير مستعدين للمقاومة حتى لا نستفز « الحكومة الوطنية » ويتعطل الافراج منهم ، وقيادتنا فى الخارج تحاول الضغط على « الحكومة الوطنية » من خلال توثيق علاقتها « **بالاشقاء » فى سوريا وفى العراق** ! وعبثا راحت كل محاولاتنا للاتفاق مع « المقتنعين بالافراج عنهم » حول موقف واحد نتخذه ضد النظام الجديد الذى يريد المـــأمور فرضه علينا فى السجن . حتى لقد وصل بهم الامر الى انهم رفضوا الاشتراك معنا فى كتابة مذكرة الى الجهات المسئولة حول هذا الموضوع . وكان من العبث أن ننفـــــرد باتخاذ موقف .

سألناهم : ماذا يكون موقفكم لو **اضربنا** عن الطعام مثلا ؟

قالوا : لن **نتضامن** معكم .

ـ نعرف .. لكن نحتاج الى مساعدتكم على الاقل .
ـ لن نساعدكم .. وانما سنقاومكم ..
ـ تقفون مع ادارة السجن ؟.
ـ انه موقف مع « الحكومة الوطنية » .
ـ وتقبلون التنكيل بنا ؟
ـ لن نستنكره .
ـ حتى لا يتعطل الافراج عنكم ؟
ـ حصلنا على وعد بالافراج وسنقاوم كل من يعمل على تعطيله .
ـ ربما كان مثل وعودهم السابقة ؟
ـ اخطانا حين اتحدنا معكم ومع الآخرين .
ـ كان هذا سبب نقض الوعود ؟
ـ طبعـــــــا .
ـ وهذه المرة لن يخلوا بوعدهم ؟
ـ ولمـــاذا يخلون بوعدهم وقد اصبحت الامور واضحة .
ـ مؤيدون .. ومعارضون ؟
ـ بالضـــــبط .
ـ لكنا مازلنا مؤيدين .
ـ وهم يرون انكم معارضون .
ـ وانتم ماذا ترون ؟
ـ نرى أن تاييدكم للحكومة الوطنية شكلى .

— الموقف من الوحدة المصرية السورية ، والموقف من ثورة العراق..
خلاف سياسى .
— خلاف جوهرى يضعكم مع المعارضة .
— أنتم اذن متفقون مع « الحكومة الوطنية » فى كل شىء .
— فى كل شىء .
— وماذا عن الديمقراطية ؟
— تحل بالافراج عنـــا .
— حتى ولو لم يفرج عنا ؟
— أنتم معارضـــون .
— والديموقراطية تلغى المعارضة ؟
— المعارضة تفتت الوحدة الوطنية .
— وأين قانون الوحدة والصراع ؟
— داخل الجبهة الوطنية .
— والجبهة أحزاب .
— حزبنـــا موجـــود .
— ومعترف به ؟
— سيعترفون بنـــا .
— اهو اعتراف بنشاط يحرمه القانون ؟
— اعتراف بنا .
— والآخرون ؟
— اذا تخلوا عن معارضتهم .
— والقوى الوطنية الاخرى ؟
— اذا أيدت الحكم الوطنى .
— والاحزاب الوطنية ؟
— الظروف الموضوعية لا تسمح .
— تسمح لكم فقط ؟
— هى الديموقراطية الموجهة .

لم يكن امامنا اذن سوى ان نتقبل تطبيق « **النظام** » كما يطبق على **الاخوان المسلمين** وكان زملاؤنا « الذين ينتظرون الافراج » أكثر حرصا على تطبيقه حتى لا «**يخدش**» الحكم الوطني أى «خدش» يصيب كبرياءه فيتراجع عن وعده لهم « بالافراج عنهم والاعتراف بهم » .

ومرت بنـا **ثلاثة اشهر** كانت من **اســوأ** الايام التى شـــهدناها فى السجون . **الزنازين** مغلقـــة طول النهار ولا تفتح الا ربع ساعة فقط فى الصباح ، واحدة بعد الاخرى ، وحرارة شمس أكتوبر ونوفمبر وديسمبر لا تصل الى اجسامنا التى تصلبت من البرد القارص . الكتب والصحف ممنوعة منعا باتا . الخروج الى العمل فى مزرعة الســـجن أو الورش والمطبخ والمخبز ممنوع تماما . **وفرن الخزف** اصبح كوما من الطين ، ولكنا كنا على صلة بالعالم الخارجي من خلال راديو صغير كنا نستمع اليه فى المساء فى ظل حراسة مشددة . الزمـــلاء يتناوبون الوقوف على باب الزنزانة ينبهون الزميل الذى يضع سماعة الراديو فى أذنه عند قدوم اى

انسان الى **الزنزانة** . فقــد كان **التفتيش** علينا يجرى فى اى ساعة من ساعات الليل أو النهار . وكان المــأمور الذى أطلقنا عليه اســـــم « **الشواف** » لا يتوقف عن حملاته التفتيشية ليلا ونهارا . حتى أن زملاءنا « المؤيدين » غضبوا لهذه التسمية .

كان عددنا لا يزيد عن الثلاثين زميلا ، كل عشرة فى **زنزانة** وكانوا هم يتجاوزون هذا العدد بقليل . كانت امكانياتنا المــالية التى تسمح لنا بالشراء من الكانتين ضعيفة جدا ، وكانت امكانياتهم كبيرة جدا . وقد تدهورت صحتنا الى حد خطير حيث كان اعتمادنا الاساسى على غذاء السجن من « **السوس المفول** » والعدس و « **الاعشاب** » التى تطبخ ويطلقون عليها اسم «خضار» وقطعة اللحم التى عجــزت أسناننا عن مضغها بعد أن فقدت «الكالسيوم» مصدر صلابتها . وذات نهـــــار سقط منا زميلان (**نبيل حلمى — وليم اسحق**) **من الاعياء** ، الاول كان مريضا بالكبد والثانى مريض بصدره ، والاثنان لا تصل الى أمعائهما طعام يقاومان به المرض ، ولا يتناولان الادوية الضرورية ، ووجدنا أنفسنا فى وضع لا يمكن السكوت عليه ، طلبنا من السجان أن يبلغ المــأمور بحالة الزميلين فرفض لان عنده أوامر صريحة بأن لا يذهب اليـــه مهما كانت الاسباب :

— ياشاويش دول راح يموتوا ..
— لمــا يموتوا يحلها ربنا .
— انت مش بنى آدم ؟
— بنى آدم لكن عندى اوامر .
— طيب نادى على الضابط نكلمه .
— لمــا ييجى مكتبه فى العنبر .

وكالمجانين ، يدق بعض الزملاء على باب الزنزانة ، ويدق الآخرون بغطيان الجــرادل وترتفع اصواتنا عالية ويشـــاركنا زملاؤنا فى **الزنازين** الاخرى ولا مجيب .

ويتضاعف جنوننا ويتضاعف دقنا على الابواب وعلى الجرادل ، وتتضاعف اصواتنا ، وفجأة نسمع اقداما كثيرة تدخل العنبر وتقف أمام زنازيننا . ويفتح باب الزنزانة لنجــد المأمور «**الشواف**» على رأس عدد كبير من السجانة الذين يحملون **العصى والكرابيج** يقول :

— ده تمرد فى السجن .
— سميه زى ما انت عاوز .
— عارفين عقوبة التمرد فى السجن ؟
— لن تكون اسوأ مما نحن فيـــه .
— يزيد عليها الجلد .
— ولو ..
— وعاوزين ايه ؟
— طبيب السـجن .

— ودي تستحق كل الهيصة دي .. ؟
— اسأل سجانتك

يرى الحالة التي عليها الزميلان ، يصفر وجهه :

— مالهم ؟
— زى ما انت شايف .
— من امتى ؟
— من ساعتين على الاقل .

ويلتفت الى السجان ويقول له بصوت غاضب :

— ليه ما قلتش للضابط ؟
— لسه ماجاش .
— ليه ماجيتش ليـــه ؟
— لان الضابط ماجاش .
— يا « .... » كان لازم تجيبنى ..
— مامنديش أوامر ..
— اوامر من مين ؟
— اوامر سيادتك .

واتدخــــل :

— اظن الافضل تنادى على الطبيب .
— لسه ماجاش .
— خللى الدكتور شريف حتاتة يشوفهم .
— ده مسجون .
— طبيب مسجون .
— دى مسئولية .
— أيهما أخطر .. موت اثنين « من العهدة » او مسجون يكشــف على مسجون .
— تســخر ؟ .
— ولا اتوقف .

ويتجه الى الزنزانة المجاورة ينادى على الدكتور شريف الذى يأتى الى زنزانتنا بأمر « الشــاويش » يجس نبض وليم اسحق ثم نبيل حلمى ، ويقول :
— حالة اعيــاء شديدة .. يلزمهم اسعاف سريع .

ويذهب مع احد الضباط الى العيادة ويعود معه طبيب الســجن الذى حضر منذ دقائق وبعض الادوية ، ويأمر الطبيب بنقلهما الى مستشفى السجن فورا . ونصر على أن يذهب معهما « مسئول الادارة » وأنا حتى نطمئن عليهما ، ويوافق المــأمور مضطرا ، ليس بدافع من انسانيته التى فقدها ، ولكن بدافع الخوف من المسئولية ! وبعد أن يقوم الطبيب باسعافهم .. نسأله :

— الا تشعر بأن عليك مسئولية ؟
— مسئوليتى أن اعالج من يأتى الى العيادة من مرضى .
— عليك مسئوليات أخرى .
— وهل يملك الطبيب غير العلاج ؟
— الوقاية قبل العلاج .
— مثــــلا ؟
— الشمس .. نحن لا نرى الشمس منذ ثلاثة شهور .
— هذا نظام السجن .
— ربما لم تعمل قبل ذلك فى السجون ؟
— هذه اول مرة .. ولكن لمــاذا ؟
— وحديث التخرج ؟
— ثلاثة اعـــوام فقط .
— لا تعرف واجبات طبيب السجن ؟
— ما هى .. غير العلاج ؟
— هى مثل واجبات وكيل النيابة .. الاشراف على تنفيذ العقوبة .
— وما وجه الشبه ؟
— الاشراف على صحة المسجون .
— كيف ؟
— حق المسجون فى «طابور» الشمس صباحا وبعد الظهر ، الكشف على الطعام قبل وبعد طهيه وتوزيعه . مراقبة توزيع الطعام الخ.

ويتدخل المــامور :

— السيد الطبيب عارف واجباته كويس .

ويقول الطبيب الشــــاب :

— لا والله يا سيادة المــامور لم اكن أعرفها .

ويرد عليـــــه بغضب :

— طيب اديك عرفتها .

ويجيبه بتحدى :

— وسأنفذها حرفيـــا .

ويلتفت الينا ويسأل :

— ما هى أهم طلباتكم الآن .
— طابور الشمس .

ويكتب الطبيب فى دفتر «العيادة» ان صحة الزميلين تعرضـــت للخطر بسبب عدم الحركة وعدم تعرض أجسامهما **للشمس** . وانه قد اكتشف اننا محرومون من **طابور** الصباح **وطابور** بعد الظهر . ويأمر بهما فورا ، وانه لا يتحمل المسئولية بعد ذلك .

كان الطبيب يقــرأ كل كلمـــة يكتبها كى نعرف قراره . ويقـــول « **الشواف** » :

— ده نظام السجن ومش ممكن أغيره .

ويرد عليه الطبيب :

— وسأرسل للادارة الطبية فى مصلحة السجون .
— الادارة الطبية لا تعطينى أوامر .
— وأنا لا اتبع الا الادارة الطبية .
— وأنا لا أتبع الا مدير المصلحة .

— سأكتب مذكرة حالا عن حالة المسجونين هنا .. ورفض توصيتى بضرورة الطابور لهم .
— ولن أنفذ توصيتك الا بأوامر من أعلى .

الاوامر !

ـاب نظرات انسانية وهو يقو

بينيه وهو يقول للمأمور :

اطلب التحقيق .

ومعنا طبيب السجن الشاب
بوعا نخرج فى نهايته من ظلا
ة بعد ثلاثة شهور نور النهار
ـاير القارص أن يجمدها .

فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى

١٨ اغسطس ١٩٧٧ . الة

الرســـالة رقم (٤٦)

حـــبيبتى :

لم يكن **الطبيب الشاب** بالفعل يعرف واجباته كما يحددها **القانون** . فقد شاء حظه العاثر ان يبدأ عمله فى مصلحة السجون وفى ســـجن **((المحاريق))** بالذات ، وبعد حملة **((همت))** على الاخوان المسلمين بحوالى شهر . افهموه ان واجباته تنحصر فى الحضور الى السجن لمدة نصف ساعة صباح كل يوم ليكشف على المرضى الذين يأتون اليه فى العيادة ويعطيهم عند اللزوم شيئا من تلك ((**الزجاجات**)) التى على الرفوف فى العيادة ، او بعض **((الاقراص))** من تلك **((العلب))** الصفيح . كان كغيره من خريجى الجامعات الذين يواجهون الواقع لاول مرة بعد تخرجهم ، ولا يعرفون كيف يتعاملون معه . وتختلف ردود فعلهم مع هذا الواقع الذى تختلف صورته عن تلك التى رسمتها لهم **الصحافة واجهـــزة الاعلام** : وردية ، مشرقة ، ويرونها سوداء ، مظلمة ، بعضهم تحركه دوافـــع ذاتية فينتقلون سريعا فى موكب الانتهازية والوصولية ، ((واهو كله كده)) وهذا ((أسهل طريق)) . والبعض الآخر تعوق حركتهم فى صعود ((السلالم تفزا)) مبادىء ومثل مازالوا يعتزون بها ، فقد ورثوها عن آبائهم واجدادهم، او اكتسبوها من بيئاتهم الشعبية ، فيقفون فى انتظار صعود السلالم درجة بعد اخرى كما ينص قانون العاملين ، يكتفون بمرتبهم الهزيل ، ويرفضون المـــال الحرام ، مع ان الحكاية **((آخر سيبان))** فالقناعة كنز لا يفنى ، وفى ((**الشرف**)) راحة البال . حتى اولئك الذين كانت لهم اهتمامات فكرية وسياسية خلال دراستهم فى الجامعة ، يرون صورة الواقع غير تلك التى رسمتها لهم تحليلاتهم التقليدية .فيحاولون تغييرها بتطوير تحليـــــلاتهم وبتحـــديهم واصرارهم ، وهؤلاء يهـــددهم شـــبح **الســـجن** او الاعتقال حينا ، وشبح **الموت** جوعا حينا آخر . بعضهم يصمد ويتحدى ويقاوم ، والبعض الآخر يقع فى هاوية السلبية وشعاره ((**لن اغير الكون وحدى**)).

وطبيبنا الشاب من النوع الثانى ، كان اصغر أخوته الاربعة وهو الوحيد الذى اكمل الدراسة الجامعية بفضل **مجانية التعليم** ، فلم يـــكن ابوه موظف الارشيف ((درجة خامسة)) بعد ٣٠ سنة خدمة قادرا على مصاريف الجامعة لاخوته الذين يكبرونه ، فاكتفوا بوظائفهم الصغيرة بعد حصول اثنين على ((البكالوريا)) والثالث على دبلوم الصنايع . خـــلال دراسته فى الجامعة لم تكن له اهتمامات سياسية لكنه كان يشعر بالامتنان للثورة التى هيأت له فرصة اكمال دراسته الجامعية ولا يستطيع الا أن يتعاطف من بعيد مع شعارات الحرية والدستور والديموقراطية والمطالب الاجتماعية . وكان يرى أن **الثورة** التى حققت مجانيـــة التعليم واتاحت لامثاله من **ابناء الفقراء** أن يكمل تعليمه لابد وان تحقق كل هذه الشعارات.

حتى تخرج من كلية الطب ليبدأ حياته فى ممارسة المهنة على المسجونين، وفى سجن **((المحاريق))** الذى يضم أعداداً من المسجونين السياسيين اخواناً مسلمين وشيوعيين ، وبعد حملة **((همت))** الارهابية ، صدمته الحقيقة المؤلمة . هؤلاء المسجونين لماذا يعارضون الثورة التى جعلت منه طبيباً ، وكان هذا بالنسبة له **حلماً مستحيلاً** ؟ ولماذا تعاملهم **((ثورة))** مجانية التعليم بهذا الاسلوب المنافى لابسط الحقوق الانسانية ؟ وكان من المستحيل أن يعثر وحده أو من خلال موظفى السجن وضباطه ، أو من زملائه من موظفى ومهندسى واطباء محافظة الوادى الجديد ، والذين يلتقى بهم فى النادى ، على اجابة لهذين السؤالين ، قالوا له **((مالك والسياسة))** وقالوا له ، **((خليك فى حالك))** وقالوا له **((قم بواجبك كطبيب بس))** .واختار القول الثالث . سيقوم بواجبه الذى يمليه عيه شرف المهنة ، التى يحترم قسمها . وظل لمدة شهرين منذ جاء الى سجن «المحاريق» لم يكشف خلالهما الا على أربعة مرضى من المسجونين العاديين وقام بعلاجهم ، وطوال هذين الشهرين لم يكشف على مريض واحد من **المسجونين السياسيين** . كان يفهم واجبه كما قال له المأمور ، بأنه ليس عليه ألا أن يذهب الى عيادة السجن صباح كل يوم ليكشف على من يأتى اليه من المرضى . وظل هكذا حتى عرف ماهى واجباته ، عندما اضطر ان يأتى به ليجرى الكشف على الزميلين الذين حدثتك عنهما فى رسالتى السابقة. ومن خلال مناقشتنا معه دخل الطبيب الشاب معركته جانبنا ضد المأمور الذى خدمه طوال هذين الشهرين . بدأها بالبرقية التى ارسلها الى الادارة الطبية بمصلحة السجون يطلب فيها التحقيق مع المامور الذى يحرم **المسجونين** حق الحركة وتعريض اجسامهم **للشمس** خلال طابورى الصباح وبعد الظهر ، واورد بالبرقية المادة التى تنص على هذا الحق . ثم عكف الليل طوله على دراسة **لائحة السجون** ليعرف بالدقة ما هى واجباته كطبيب فى السجن .

فى صباح اليوم التالى عرف أن المأمور لم ينفذ توصيته بضرورة خروجنا فى طابورى «الفسحة» ، لم يناقشه وبدأ يقوم بواجباته الاخرى. ذهب الى المطبخ فوجد أنه غير مستوف **للشروط الصحية** ، وزن اللحم فوجد أنها أقل **من المقرر** ، وذهب الى المخبز وسجل ملاحظاته ، ثم وزن رغيفاً من الخبز فوجده أقل من المقرر . طاف بالعنابر ودخل دورات المياه فوجدها لا تتوفر بها أبسط الشروط الصحية . وعاد الى بيته فى الظهر ليكتب مذكرة الى الادارة الطبية بمصلحة السجون ، وعاد بعد الظهر مرة أخرى الى السجن وطلب من المأمور اجراء الكشف الطبى على كل **المسجونين** . واعترض المأمور ، فالكشف الطبى لا يجرى الا على المرضى منهم ، واصر على طلبه . فسأله المأمور :

— لماذا تصر على طلبك هذا ، تتحدانى ؟
— اللائحة هى التى تتحداك .
— وما دخل اللائحة ؟
— ربما كان هناك مرض معد بينهم .
— اذا ظهر يحلها حلال .

— الوقاية تنص عليها اللائحة .
— الوقاية التى تعنيها اللائحة هى النظافة والشروط الصـــــحية والطعـــــام .
— هذه كلها سجلت عليها ملاحظاتى .
— هنا ينتهى دورك .
— وقاية الانسان قبل كل شىء .
— اللائحة لم تنص على ذلك .
— ولم تنص على عدم اجراء كشف طبى عام على المسجونين .
— ولم تنص على ذلك .
— والوقاية كما افهمها كطبيب تحتم ذلك .

ولا يملك المأمور غير ان يرضخ لطلب الطبيب الشاب الذى يبدأ فى الكشف الطبى على المسجونين ، ويبدأ بنا واسمع منه وهو يجـرى الكشف على هذا الحوار الذى جرى بينه وبين المأمور منذ اقل من ساعة. يقول لى بعد أن يجرى على كشفا طبيا كاملا ، بالسماعه ، ومقياس ضغط الدم ، فى صوت ودود :

— صحتك كويسة ..
— الحمد لله .
— اكتب لك علاوة طبية .. حلاوة . بيض . عسل ..
— خليها لمن يستحقها .

وتبدو على وجهه علامات الدهشة :

— ترفض طعام انت محروم منه ؟
— ليأخذه من يحتاجه .
— ويقول بخجل ملحوظ :
— ممكن اعرف ، انت مسجون بتالك قد ايه ؟
— من قبل ما تقوم الثورة .

يهب واقفا ويصيح :

— يعنى انت مش ضد الثورة ؟

وابتسم قائلا :

— انا مسجون قبل الثورة وبالتالى لم اكن ضدها .
— ولماذا لم يفرجوا عنك كما افرجوا عن آخرين ؟
— ربما كانوا ينجمون .
— وهل تعارضها الان ؟
— من اكثر الناس دفاعا عنها .
— يسجنوك وتؤيدهم ؟
— ليست تضية ذاتية
— يحرمونك من ابسط الحقوق الانسانية وتدافع عنهم ؟
— من اجل مصر لا من اجلهم .

وخلال أسبوع معركته مع المامور « الشواف » كنت أقضى معـــه كل يوم اكثر من ساعتين نناقش خلالهما الكثير من القضايا السياسـية والفكرية . لقد أصبح صديقا لى ليس فقط بعد أن نقـل من ســجن « المحاريق » وانما طوال السنوات التى بقيت فيها فى الســجن حتى الافراج عنى ، كنا نتراسل خلال سنوات السجن ، ولم تتوقف صداقتنا بعد خروجى من السجن حتى وقت ليس بعيدا . فقد انقطعت أخبـــاره فجاة لسبب لا اعلمه ولن اتوقف عن السؤال عنه حتى أعرف أين هو . ربما يقرأ هذه الرسالة ان رأت النور فيحن الى ايام عزيزة مضت ويسـال عنى ، وربما اجده امامى فجاة فى أحـــد شـــوارع القـــاهرة الحبيبــــة فارسا من فرســـان الشعب . واثق انه لم يفارق الحياة ، واثق أيضا انه لم يستسلم للضياع .

تسالين يا حبيبتى من اين أستمد كل هذه الثقة فيه . ورغم انك تعرفين الاجابة على هذا السؤال ، الا أننى سوف البى رغبـــة عارمة اراها فى عينيك لتسمعى صوتى من خلال كلمات تعرفين كل حروفها ، وتملكين القدرة على وضع النقاط فوق حروف قد أنسى وضعها .

خلال اكثر من **ثلاثين عاما** مضت من حياتى فى شوارع مدن وقرى **مصرنا الحبيبة** من الاسكندرية حتى أسوان ، وفى **سجون مصر وليماناتها ومعتقلاتها المختلفة** ، التقيت بالمئات من ابناء الشعب الذين تعاملت معهم جميعا . ومن خلال تعاملى معهم كنت أجد نفسى مشدودا الى اشـــخاص بعينهم ، وكانوا هم ايضا يجدون انفسهم مشدودين الى ، تماما كما يجذب المغناطيس المعادن الصلبة فقط يختارها من بين كل المعادن ، ومقياسه الوحيد هو : الصلابة ، وليس غلو ثمنه أو رخصه . أحيانا يحس انسان ما بارتياح لانسان آخر عند أول لقاء ، وفى مثـل هذه اللقاءات السريعة يحس الطرفان بومضات مضيئة ، ربما كانت انسانية ، وربما كانت عاطفيـــة ، وربما كانت وجدانيـــة ، وربمـــا كانت الثلاثة معا ، ولا يدركان ابعادها العميقة فى اللحظة نفسها ، ولكنهما يدركانها فى لحظة من لحظات علاقتهما المشـتركة ، فى هـــذه اللحظة يتحـــدد مســـتوى علاقتهما ، صـــداقة عادية ، أو صـــداقة حميمة ، أو حب يقف عنـــد حدوده الانســـانية ، أو يتخطاها الى حدوده العاطفية ، أو يقفز بها الى حالة الوجد .

وتجربتى مع ذلك الطبيب الشاب ، بدات بالتقائنا الانســـانى ، ووصلت سريعا الى مستوى الصداقة الحميمة ، ولم تكن معركته مع مأمور **سجن المحاريق** بدافع من مجرد احساسه بالواجب ، وانما كانت فى جوهرها بدافع انسانى عام وخاص فى الوقت نفسه . لم تكن دفاعا عن نفسه وحقه فى ممارسة علمه كطبيب فقط وانمـــا كانت دفاعا عن **الانسان** . ولهذا لم ترهبه تهديدات **المامور ومحافظ الوادى الجـديد** واتهامهما له بعمل علاقات خاصة معنا . كما لم تخفه مذكرة أرسلها المامور الى **مباحث امن الدولة** ، ولا مذكرات عديدة ارسلها الى مدير مصلحة السجون . وطوال اسبوع كامل لم يتوقف عن اثبات ملاحظاته

الصحية على مرافق السجن المختلفة ، ولا عن تسجيل توصيته بضرورة خروجنا من الزنازين للشمس والهواء ، ولا عن مطالبة المأمور بشراء بيض ولبن وعسل وتمر ليصرفه لنا كي نعوض ما فقدناه خلال الشهور الماضية . وظل يوميا يرسل برقيات ومذكرات الى الادارة الطبية يطالبها بالتدخل لحماية صحة المسجونين التى تتدهور لان المأمور لا ينفذ توصياته الطبية . ولم يكف يوما عن لقائى مع بعض الزملاء للمناقشة فى بعض القضايا السياسية والفكرية ، وكان يتحدث عرضا عما يفعله من اجلنا ، ولا يقبل منا شكرا ، بل كان يغضب احيانا اذا شكرناه ، وكان يقول لنا ، لم افعل شيئا يذكر بجانب ما قدمتموه لمصر . وعند نهاية آخر لقاء بيننا فى سجن « المحاريق » قال ، بودى ان اصل الى مستوى اليقين كما وصلتم . وفى المساء بعد هذا اللقاء علمنا انه نقل الى القاهرة بعد أن كسب معركته ، فخرجنا الى الشمس والهواء ، فى طابور الصباح وطابور بعد الظهر ، وأخذت بملاحظاته الطبية على المرافق العامة ، وملاحظاته عن وزن اللحم والخبز وتوصياته بصرف علاوات طبية لنا جميعا من البيض واللحم والعسل والحلاوة الطحينية والتمر .

فذات يوم فوجئنا بوصول **اللواء عبد المنعم موسى** وكيل مصلحة السجون ومعه عدد من الضباط **ومدير الادارة الطبية** بمصلحة السجون وعدد من الاطباء للتحقيق فيما جاء ببرقيات ومذكرات طبيب السجن الشاب وكان يوما حافلا . فى صباح ذلك اليوم لاحظ ضابط العنبر فجأة أن شعر رؤوسنا طويل بشكل غير « قانونى » ، ولخوفه من مسئولية هذا « الخرق » للقانون الذى سيكتشفه حتما وكيل المصلحة ، استدعى الحلاقين ، وفتح الزنازين ، وطلب منا المثول امامهم كي يحلقوا رؤوسنا درجة « **زيرو** » . واتخذنا بسرعة قرارا بعدم الحلاقة مهما كان الثمن ، وكنا على علم بوصول وكيل المصلحة ومدير الادارة الطبية وكان تقديرنا أنهم حضروا كى يحققوا فى برقيات ومذكرات طبيب السجن حول ملاحظاته الصحية . وان هذا التصرف من جانب ضابط العنبر هو تصرف ذاتى ربما لا يكون للمأمور دخل فيه . وعند فتح أول زنزانة طلب ضابط العنبر خروج الزملاء منها ، اثنين اثنين ، للحلاقة « زيرو » ، فرفضنا . وحين حاول ضربهما هجما عليه وكتفاه ، وتجمع السجانة لتخليصه من الزملاء الذين التفوا حوله ، وحدثت معركة بين الزملاء وبين السجانة بينما أسرع الضابط وأمر البروجى بضرب **بروجى « كبسة »** . وبروجى « الكبسة » لا يضرب الا فى حالات **تمرد** المساجين ونغماته هى : نداء لكل السجانة حتى الذين فى راحتهم بعد العمل ، ان يأتوا فورا ومعهم **السلاح المحشو بالرصاص** للضرب فى المليان ، اذا استدعى الامر ولانهاء حالة التمرد ، وتصادف أن سمع وكيل المصلحة عند دخوله بوابة السجن الخارجية نوبة « **الكبسة** » هذه ، وفوجىء بها المأمور ولم يقدم اجابة عن سببها عندما سأله وكيل المصلحة ، فأمره بضرب بروجى « أنهاء الكبسة » ، وكان تصرفا حكيما فقد كان من الممكن ان تحدث مذبحة يروح فيها عدد من الزملاء الذين فاض بهم فاشتبكوا ، وكانوا عشرة فقط ، مع أكثر من عشرين سجانا

فى معركة وصلت الى لحظة كاد الضابط ان يأمر فيهـا بضرب **الرصاص** فى المليان ، لولا سماعه بروجى « انهـاء الكبسة » ورؤيته لوكيـل المصلحة ومن معه يدخلون باب العنبر بسرعة ، ويصـدر الامر للسجانة والحلاقين بالانسـحاب فورا من العنبـر . ومن خلال مناقشة عاقلة بيننـا وبين وكيـل المصلحة ، وبعـد ان أصدر أمرا بفتح كل **الزنازين** ، عرف كل شيء ، تعبيرات وجهـه حين رآنا كانت تدل على أنه لا يصدق ما يراه ، آدميـون اقرب الى الهياكل العظميـة ، بعضـنا يـكاد يسقط من الضـعف ، الصفرة تكسو وجوهنا ، لكن ارادة التحـدى تكسب عيوننا بريق الاصرار ، ذلك الذى كان زملاؤنا العشرة يستمدون منه موقفهم فى معركتهم مع ضابط العنبر وسجانته . قال وابتسامة ودودة تكسو وجهه :

— ممكن تعطونى فرصة للمناقشة معكم ؟
— نرجو أن تكون قد جئت قبل فوات هذه الفرصة ؟
— ربما جئت فى الوقت المناسب .
— نرجو ذلك .

وينصت الرجل الى حديثنا اكثر من ساعة كاملة . نلاحظ خلالها تعاطفا معنا فى بريق عينيه ، وفى تعبيرات وجهه ، وأحيانا من خـلال بعض النظرات الغاضبة الى المأمور ، ونظرات أخرى الى ضـابط العنبر . وينصرف وكيل المصلحة والمأمور وطبيب السجن الشـاب ومن معهم دون أن يعلق بلسانه ، لكن تعبيرات وجهه وبريق عينيـه تقول : قلبى معكم ، سأحاول أن افعل من أجلـكم شيئا . وفى مساء اليوم نفسه علمنا بصدور أمر وكيل المصلحة بنقل المأمور « الشواف » ونقل الطبيب الشاب الى القاهرة . وفى صباح اليوم التالى ، فتحت كل الزنازين ، بعد أن كانت تفتح واحدة بعد الاخرى لمدة ربع ساعة ، وحصلنا على حق الخروج فى طابور الصباح لمدة ساعتين ، وطابور آخر بعد الظهر لمدة ساعتين ، كما سمح لنا بالخروج الى مزرعة السجن والى مرافقه العامة ، كما صدر الامر باعادة تشغيل الفرن .

وبعد اقل من اسبوع كان معنا **مأمور جديد** ومعه بدأت مرحلة جديدة من حياتنا فى سجن « المحاريق » .

احكى لك عنها فى رسائلى المقبلة يا حبيبى .

١٨ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٤٧)

حبيبتى

كان قرار نقـل المأمور « الشـواف » والطبيب من ســـجن « المحاريق » الى القاهرة حسما **للصراع** بين الادارة الطبية التى وقفت الى جانب الطبيب وادارة المصـلحة التى لم تستطع الدفاع عن المأمور ، ولكنها لا تريد الاعتراف بأخطائه . ويبدو انه كان من الصعب نقل الطبيب وعدم نقل المأمور . ويبدو كذلك أن شخصية اللواء **عبد المنعم موسى** المعتدلة ، وهو شقيق **نبوية موسى** ، قد لعبت دورا فى الوصـــول الى هذا الحل . غير ان ادارة المصلحة كانت حريصة فى الوقت نفسه على أو لا تهتز هيبتها امامنا فيختل **الضبط والربط** فى السجن ، وتعـــود الحياة على طريقة سجن « جناح » ، فاوفدت الى سجن « المحاريق » واحدا من الضباط المعروفين بقدرته على فرض النظام فى اى سجن ، وكان قد استدعى من سجن أسيوط الذى يضم عتاة المجرمين ، الى سجن « المحاريق » الذى **يضمنا والاخوان المسلمين** . ومع أن وكيل المصلحة **عبد المنعم موسى** أمر بخروجنا لطابور الصباح وبعد الظهر ، وللعمل فى مرافق السجن ، وفتح الزنازين صباحا وبعد الظهر للذهاب الى دورة المياه ، وكان هذا فى حضور **المأمور الجديد** للسجن ، الا انه بعد سفر وكيل المصلحة اجتمع معنا ليلقى علينا خطبة ويعلن فيها انه غير موافق على هذه القرارات .

وقف امامنـــا بقامته الفارعة وهـــو يمسك **بعصا صغيرة** يحركها بين يديه وهو يتكلم . تحدث عن قسوته فى معاملة المســـجونين لفرض الضبط والربط ، وكيف انه يؤمن **بضرب** المسجونين **وجلدهم** ، كوسيلة وحيدة لاصلاحهم ، هذا على الرغم من قرار المصـــلحة بعدم الضرب ، وقال بفخر : اسألوا عنى فى سجن أسيوط الذى فيه **عتـــاة المجرمين** والذى عجز كل الضباط عن ادارته ، استطعت انا أن اؤدبهم . وقال مهددا : لقد استدعونى من سجن أسيوط الى هذا الســـجن لتأديب كل من يحاول الخروج على النظام . لا تحلموا أبدا بالعودة الى ما كنتم عليه فى سجن « جناح » . لم يكن سجن « جناح » هذا سجنا ، كان معسكر كشافة ، وأيضا لا تظنوا ان نقل المأمور الســـابق عقوبة له لانه أخطأ ، ابدا ، حتى لو كان مخطئا مش مفروض ابدا انه يعاقب . المسألة كانت ببساطة شكاوى من المأمور ومن الطبيب ، وخناقة بين ادارة المصلحة وبين الادارة الطبية وكان **الحـــل الوسط** هـــو الحل المناسب ، ومن حسن حظ هذا الطبيب انه لم يقع مع واحد زى حالاتى . لو كان وقع فى ايدى كنت عرفت ازاى اؤدبه . واختتم المأمور كلمتـــه

بقوله : لقد قلت لوكيل المصلحة اننى غير موافق على النظام الذى أمر به لتطبيقه هنا لكننى سأنفذه بطريقتى الخاصة . **عبد المنعم موسى** من المدرسة التى تنادى بمعاملة المسجونين **معاملة** حسنة وانسانية وتعليمه وعدم ضربه ، وانا انتمى الى المدرسة الاخرى التى ترى أن **الوسيلة الوحيدة** هى ضَرب المسجون **وجلده** واذا لم ينصلح لابد من بتره من المجتمع تماما .

لم يضف المامور بحديثه هذا جديدا الى ما عرفناه عنه من احد السجانة الذين اشتغلوا معه . كنا نملك معلومة أخرى عنه ، فقد **سجن فى الاربعينات** بضعة ايام لاشتراكه فى **مظاهرة** قام بها طلبة مدرسة المنصورة الثانوية ، واتفقنا على الاستفادة من هذه المعلومة التى عرفناها من الزميل **حمدى عبد الجواد** الذى كان زميلا له فى نفس المدرسة .

وعندما انتهى المامور من كلمته قال بصوت غليظ :

— حد عاوز اى ايضاحات ؟

وقف « مسئول الادارة » وقال :

— تسمح لى اتكلم بالنيابة عن الزملاء

رد عليه بغضب :

— كل واحد يتكلم عن نفسه بس .

— يعنى .. اختصارا للوقت .

يتضاعف غضبه ويقول :

— مش عاوز فلسفة .. كل واحد يتكلم عن نفسه

وكان لابد من موقف مرن فى هذه اللحظة . فقال الزميل :

— طيب .. أتكلم عن نفسى

قال المامور بلهجة المنتصر :

— ايوه كده .. اتكلم عن نفسك بس .

— نحن نحترم آراء ..

ويقاطعه المامور :

— قلنا مفيش نحن .. واللا من باب التفخيم يعنى ؟

ويرد الزميل :

— أنا أحترم آراء سيادتك فى معاملة المسجونين ، وفى نفس الوقت أحترم الآراء الاخرى . لكن دى مسالة ليست موضع مناقشة الآن .. و ..

ويقاطعه مرة أخرى :

— ومن قال اننى عاوز اتناقش ؟

ـــ ده كان مدخل للكلام اللى عايز اقوله .

ويزداد غضبه :

ـــ انا عارف انكم بتوع كلام ومناقشة .. ادخل فى الموضوع .

ويرد الزميل وفى صوته رنة حسم :

ـــ طيب الموضوع هو .. ان سيادتك هنا لاول مرة بتتعامل مع مساجين سياسيين .. مساجين رأى .

ويقاطعه بصوت عال وغاضب :

ـــ المسجون مسجون .. انا ماعنديش فرق بين المجرم العادى والمجرم السياسى .

ويرد الزميل بصوت هادىء :

ـــ سيادتك لك تجربة وتعرف ..

ـــ انا لم اتعامل مع مسجونين سياسيين قبل كده .

ـــ لكنك انت كنت مسجون سياسى .

ويسود الصمت لحظة ، نتأمل خلالها تعبيرات وجهه تعكس **صراعا بداخله** ، ونلمح **ومضة انسانية** فى نبرات صوته وهو يسأل :

ـــ وعرفتوا منين الحكاية دى ؟

ويقول الزميل حمدى عبد الجواد بهدوء :

ـــ منى أنا .

ينظر اليه المأمور قليلا ثم يسأله :

ـــ انت مين ؟

ـــ زميل قديم لسيادتك فى المنصورة الثانوية .

ـــ مش فاكر شكلك .. اسمك ايه ؟

ـــ حمدى عبد الجواد .

يتقدم منه خطوات وهو يقول :

ـــ برضه مش فاكر .

ـــ هدوم السجن .. ومدة طويلة

يقترب منه خطوات أخرى

ـــ برضه مش قادر اتذكرك .

ـــ ان كان يهمك .. افكر سيادتك .

تضعف مقاومته **للانسان** فى داخله ويقول بصوت هـ

ـــ يعنى .. يهمنى برضه .. مهما كان الوضع .

وينفـــذ صوت **حمدى عبـــد الجواد** الهادىء " وهو يقـــول :

ـــ سيادتك كنت عضو فى لجنة الوفد بالمنصو

ـــ ايوه .
ـــ وفى يوم خرجنا مع طلبة المدرسة فى مظاهرة .
ـــ ايوه .. ايوه .
ـــ وقبض علينا مع عدد من الطلبة .
ـــ تمام .. مضبوط
ـــ وقضينا ايام سوا فى السجن .

ويســـود الصمت دقائق نرى خلالهـــا وجه المامور صـــورة لما يجرى فى **داخـــله** . صراع بين **تلقائية** الطالب الذى ســـجن يوما لانه ســـار فى مظاهرة تطالب بالحرية والاستقلال ، وبين **التـــزام** ضـــابط الســـجن بواجبات تفرضـــها **وظيفته** ، ونلمح فى عينيـــه ومضـــة غريبة ، **لمسة انسانية هزته من الاعماق** . ويرتفع صوته بطريقة يبدو فيها الافتعـــال .

ـــ فيه حد عاوز حاجة .. يا مسجون انت وهوه ؟

ويرد الزميل « مسئول الادارة » بصوت هادىء :

ـــ متشكرين .

وفى هدوء يسير الرجل متجها الى مكتبه ، وننصرف نحن الى الزنازين .

مر يومان بعد هذا اللقاء لم نره خلالهما . وفى صباح اليوم الثالث وقبل أن تفتح الزنازين فى موعدها نسمع صوتا غليظا :

ـــ انتبـــاه .

باب العنبر يفتح .. واقدام كثيرة خارج الزنزانة ، ويفتح بابها ونجد المامور على رأس عدد كبير من السجانة والضباط ، الذين يدخلون الزنزانة للتفتيش :

ـــ كتب يا افندم .

ويرتفع صـــوت المامور :

ـــ ايه الكتب دى .. منين ؟
ـــ من المكتبة .
ـــ خدها يا سجان .. ممنوع الكتب .
ـــ شاى وسكر يا افندم ..
ـــ ممنوعات .. خدها .

ويقول زميل :

ـــ شارينها من الكانتين .
ـــ مفيش كانتين ..
ـــ لكن ده موجود وبنشترى منه .

ـــ خلاص .. تقلته ..

ويصيح سجان :

ـــ قلم وورق .. يا افندم .

ويصرخ المامور :

ـــ كمان .. قلم وورق .. مين صاحبهم ؟

ويتقدم زميل :

ـــ انا صـاحبهم ..

ويصرخ المامور :

ـــ ودوه التاديب .

ويخرج الزميل من الزنزانة بهدوء ويسير مع السـجان فى طريقه الى التأديب . ودون أن نتبادل أى كلمة معه . يغلق باب الزنزانة . وتفتح زنزانة اخرى ، ونسمع صوتا يصرخ :

ـــ منشورات يا افندم ..

ويعلو على هذا الصراخ صوت المامور :

ـــ لا ، دى المسألة زادت قوى .. خدوه التاديب .

ونسمع صوت الزملاء ..

ـــ دى بتاعتنا كلنا ..

ويعلو صراخ المامور :

ـــ خدوهم كلهم التاديب ..

ونسمع صوت اقدام تخرج من الزنزانة المجاورة .. ثم نرى عشرة زملاء يتجهون الى التاديب .

تغلق الزنزانة الثانية ، وتفتح الثالثة ، ونسمع صوتا عاليا :

ـــ منشورات .

وصوتا يعلو عليه :

ـــ خدوهم التاديب

ويمر علينا عشرة زملاء آخرين فى طريقهم الى التاديب . وتمضى دقائق يعـود بعدها كل الزملاء وكان عـددهم ٢١ زميـلا الى حيث يقف المأمور على باب الزنزانة الرابعـة .. ونسـمع حوارا طريفا ، صوت يقول :

— يا افندم . مفيش تأديب فى السجن ده .
— ازاى ؟
— لسه بيبنوه ..
— امال اللى يستحقوا التأديب بتحطوهم فين ؟

ويرد احد الضباط :

— فيه زنزانة صغيرة .. نستخدمها مؤقتا .
— حطهم فيها .
— العدد كبير قوى .

وتمر لحظة صمت .. يقول المأمور بعدها :

— بسيطة خليهم فى الزنازين .. وطبق عليهم نظام التأديب ..

ويفتح باب الزنزانة الرابعة .. ونسمع صوتا :

— مفيش حاجة يا افندم ..

كان عددنا لا يزيد عن الستين موزعين على ست زنازين . اثنان منهما تحولا الى تأديب . والتأديب معناه ان لا يكون عند المسجون سوى بطانية واحدة حتى ولو كنا فى عز البرد . ولا يأكل سوى ثلاثة ارغفة فى اليوم « وغموسهم » من الملح الرشيدى الخشن . ويحرم من الفسحة فى طابورى الصباح والمساء ، ولا تفتح عليه الزنزانة الا مرة واحدة فى الصباح ولمدة لا تزيد عن خمس دقائق للذهاب الى دورة المياه . وهكذا اصبح ثلثنا تقريبا فى التأديب وكان على الثلثين أن يقتسم طعامه وسجائره مع الزملاء الذين فى التأديب . وكانوا يأخذونه سرا وبمعاونة واحد من اصدقائنا السجانة ، أو أثناء خروجهم من الزنازين الى دورة المياه او للطابور .

وبعد يومين آخرين قام المأمور بحملة تفتيشية اخرى وجد فى جميع الزنازين — التى تحولت الى تأديب والتى لم تتحول بعد — ممنوعات من الشاى والسكر والكتب والمطبوعات .. وصاح بأعلى صوته :

— كل الزنازين حولوها الى زنازين تأديب .

ويبدأ السجانة فى استلام البطاطين الزيادة فى كل زنزانة ليكون عند كل منا بطانية واحدة وبرش واحد .

ونســـأل المــأمور :

— مدة التأديب قد ايه ؟

ويقول المــأمور :

— طول مافيه ممنوعات فيه تأديب ..

ونرد بهــدوء :

— يبقى راح نعيش فى التأديب على طول ؟

— أيوه ..
— بدون تحقيق ؟
— أنا ماعنديش حكاية التحقيق دى .
— ده حقنـــــا .
— يعنى ايه ؟ . مش راح أحقق .
— ونحن نصر على التحقيق .
— ليـــه ؟
— علشان نثبت فى المحضر الممنوعات المضبوطة . وأهمها المنشورات والورق والاقلام .

ويقول بغضب :

— راح اثبتها طبعا .
— وطبعا تطلب النيابة .

ويسأل بدهشة :

— ليه بقى ؟
— للتحقيق معنا وتقديمنا للمحاكمة .
— ماشى .. اطلب النيابة .

ونسأل بخبث ..

— وتتحمل المسئولية ..
— اى مسئولية ؟
— مسئولية دخول هذه الممنوعات للسجن .
— لن تدخل بعد ذلك ابدا .

ونســـأل :

— هل استطعت ان تمنع المخدرات من المساجين فى سجن اســيوط او اى سجن آخر ؟

يصمت المأمور قليلا ويقول بصوت يملاه الاسى :

— ابدا لم استطع

وينصرف الرجل بسرعة الى مكتبه . وتغلق علينا الزنازين وقـــد تحولت كلها الى **زنازين تاديب**.ويمر يومان لا يأكل كل زميل خلالهما سوى ستة ارغفة وكمية من **الملح الخشن** « الرشيدى » . ولا نخرج للطابور ولا للعمل فى مرافق السجن . وفى صباح اليوم الثالث نفاجأ بالمأمور ومعه عدد من السجانة والضباط .. وينادى المأمور على ثلاثة من زملائنا .. سعد باسيلى ، ومحمد جبر وصلاح هاشم ، ويقول لهم ..

— جاءنى امر من المصلحة بجلد كل واحد منكم ١٨ جلده .

ونفاجأ بالخبر ..

— لمـــاذا ؟

— لاعتدائكم على ضابط العنبر .
— لكن وكيل المصلحة شهد لمصلحتنا .
— ومع ذلك كان لابد من جلدكم .
— لمــاذا ؟
— حتى لا يجازى ضابط العنبر .
— وما علاقة جلدنا بمجازاة الضابط ؟
— لانه أمر بضرب بروجي « كبسه » دون مبرر .
— والمبرر هو اعتداؤنا عليه ؟
— بالضبط .
— نتحمل من اجل اولاده .

نلمح اثر هذه الكلمات الانسانية على وجهه ، يقول :

— غدا ينفذ الجلد فى حوش السجن .

وفى صباح اليوم التالي يشهد حوش سجن المحاريق مشهدا مثيرا .. احكى لك منه فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى .

٢٢ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٤٨)

حـــــبيبتى :

وفى صباح اليوم التالى خرجنـــا جميعا نحن والاخـــوان المسلمون والمساجين العاديون الى فناء السجن وجلسنا حول « **العروسة** » . وفى مكان قريب من العروسة وقف **الجلادون** وفى ايديهم **السياط** . وكانوا ستة جلادين والى جوارهم منضدة عليها وماء به زيت ويقف معهم طبيبالسجن الجديد وضابط . وفى مكان آخر كان المـــأمور يقف ومعه عدد من الضباط والضابط الذى جاء من المصلحة يحمل **حكم الجلد** على الزملاء . وبعـــد قليل بدأت الطقوس التى تسبق تنفيذ عقوبة الجلد .

الضابط الذى جاء من القاهرة يقرأ الحكم :

— بامر من **اللواء** مدير عام مصلحة السجون يجلد كل من المساجين **سعد باسيلى ومحمد جبر وصلاح هاشم** ١٨ جلدة لكل منهم لاعتـــدائهم على الملازم اول (...) ضابط العنبر اثناء تأدية وظيفته ، وقد صدر هذا الامر بعد التحقيق اللازم . ينفذ الجلد فى حوش السجن وامام كل المساجين .

بعد ان تلا الضابط الحكم .. اشار المـأمور بيده الى طبيب السجن ليقوم باجراء الكشف الطبى على المحكوم عليهم . تقدم الطبيب من **سعد باسيلى** ليكشف عليه فقال له بهدوء :

— مفيش داعى للكشف الطبى .

ويســـأله الطبيب :

— ليـــــه ؟
— صحتى كويســه تستحمل الجلد .
— لكن لازم أكشـــــف .
— وأنا أرفض الكشف .
— دى مسئولية .. لازم أكشف .
— اكتب انك كشفت .

ويرفض **سعد باسيلى** باصرار ان يجـــرى الطبيب الـــكشف عليه ويتدخل المـــأمور ، ويتضامن مع سعد باسيلى الزميلان الآخران . وتثور مشكلة قانونية ! كيف تنفذ العقوبة دون اجراء الكشف الطبى ! يقـــول المأمور للطبيب :

— اكتب انك كشفت عليهم ..

— اكتب ازاى وانا لم اكشف عليهم .
— وفيها ايه ؟
— ممكن حد منهم مايتحملش الجلد .
— يعني حد راح يموت ؟
— ممـــكن .

ويقف المـــامور حائرا . انه لا يستطيع أن يأمر بتنفيذ العقوبة قبل اجراء الكشف الطبى فربما يموت واحد منهم .. واذا مات تبقى مسئولية عليه . والطبيب أيضا معه حق اذا كتب انه كشف عليهم دون أن يجرى الكشف فعلا تبقى مسئولية عليه ايضا . ويسود الصمت دقائق . عشرات المســاجين الملتفين حول **العروسة والضباط والسجانة** والمأمور ومندوب المصلحة حامل الحكم والطبيب يخيم الصمت عليهم جميعا . وفجأة يتقدم الزملاء الثلاثة نحو الطبيب ويطلبون اجراء الكشف الطبى .ويصيح المأمور بدهشـة :

— طيب ليه ما كان من الاول ؟

ويرد ســـــعد باسيلى بقوة :

— حتى ترى اننا لا نخاف الموت ذاته .

ويعود الصمت مرة اخرى بينما يقوم **طبيب السجن** باجراء الكشف الطبى على الزميل **سعد باسيلى** .. يتقدم من الطبيب أحد الضباط ويهمس بأذنه .. ويصيح سعد باسيلى بأعلى صوته :

— حضرة المـــأمور .. انا لا اقبل اى تزوير .

ويرد عليه المـــأمور :

— تزوير ايه ؟
— ولا اقبل اى عطف من احد .

ويســـأل المـــأمور :

— تزوير ايه وعطف ايه ؟

ويقول ســـــعد :

— شـايف فيه محاولة عطف من طبيب السجن بايعاز من حضرةالضـابط..

ويضحك المـــأمور ويقول للطبيب :

— اكشف عليه بدقة يا دكتور .

ويضج كل الموجودين بالضحك . وبعد اجراء الكشف الطبى يتقدم سعد باسيلى بخطوات ثابتة نحو **العروسة ويصلب** نفسه عليها . وحين يتقدم اليه السجانة ليربطوا يديه وقدميه بأطراف «العروسة» يثير سعد مشكلة أخرى ، يرفض باصرار . ويصيح المـــأمور :

— ليه يا سعد ؟
— انا مش محتاج لربط اقدامى ويدى ..
— ده احسن لك .
— ومع ذلك مش محتاج ..
— لكن يمكن تسقط على الارض اثناء الجلد ..
— لا .. مش راح اسقط ابدا .
— يا ابنى اسمع الكلام ..
— دى بقى مانيهاش فصال ..

ويسأل المأمور بدهشة :

— طيب بس اعرف ليه ؟
— لنثبت لك اننا قادرون على تحمل اى شئ بارداتنا .

ويسود الصمت مرة ثالثة ، بينما يضع **سعد باسيلى** نفسه **مصلوبا** على **العروسة** فى شجاعة نادرة . وكأنما كان يستمدها من سواعدنا تلتف حوله وقلوبنا تحوطه كل من جانب .

يصدر الامر بالجلد وترتفع يد الجلاد يضرب ، وآخر يعد .

— واحد .. اثنين .. ثلاثة .. اربعة .

الابتسامة لا تفارق وجه سعد ولا **تصدر منه انة** واحدة .

الصمت يسود . يتقدم الجلاد الثانى :

— خمسة .. ستة .. سبعة .. ثمانية .

ويأخذ **الجلاد الثانى** راحد ويعود الاول الى الجلد ثم الثانى مرة اخـــرى .

— ١٥ .. ١٦ .. ١٧ .. ١٨ .

وينزل **سعد باسيلى** من على العروســة . **والابتسامة لا تفـــارق** وجهه بينما ظهره ينزف دما .

احد الضباط الاصدقاء يهمس لى :

— المأمور منفعل جدا بهذا الموقف .
— ارجو ان يكون قد وجد الفرق بيننا وبين مجرمى اسيوط .
— هذا شىء لم يحدث فى السجون ابدا .

وعدد من الاخوان المسلمين يلتفون حول الزملاء **المجلودين** يحيون **شجاعتهم وصلابتهم** . وآخرون يسيرون مع بعض الزملاء يتبادلون الحديث حول ما شهدوه منذ وقت قصير مضى . اسمع من يقول :

— كان **سعد باسيلى** وهو يتقدم بثبات نحو « العروسة » مثل « **جان دارك** » وهى تتقدم نحو النار التى حرقوها فيها .

وصوتا آخر يقول :

— الابتسامة لم تفارقه ..

وصوت ثالث :

— كان النور يشع من وجهه .

— وأيضا محمد جبر وصلاح هاشم .. نفس الثبات ونفس الشجاعة.

ويسأل صوت رابع :

— كلكم كذلك ؟
— نعم .. كلنا كذلك .

ابدا لن تستطيع كل **اجهزة اعلامهم** النيل من صدق **انتمائنا** الى ارض **مصرنا الحبيبة** ، نحبك يا غالية هو هذا **الهواء** الذى نستنشقه ، وهو هذا الماء الذى نشربه ، فانت .. **انت الحياة .. ولا حياة بدونك يا مصر** .

وفى المساء ، بعد ان اغلقت **الزنزانة** علينا ، وبينمـا كان الـزملاء **يدلكون** ظهور الزملاء الذين **جلدوا** فى الصباح ، ويضعون عليها فوط الوجه المبللة بالماء ، وزملاء آخرون يعملون الشاى على نار قطعة تماش مبللة بالجاز ، يخرج منها «هباب» يحجب الرؤية ، وزميل آخر يستمع الى خطاب **جمال عبد الناصر بمناسبة ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨** — عيد النصر — ونسأله بين الحين والآخر ويقول :

— هجوم شديد على السوفييت .
— هجوم علينـــــا ..
— يصفنا بالعمالة ..
— انذار صريح للزملاء .
— انتهى شهر العسل .

ويدور حوار لا ينتهى الا مع طلوع الفجر .

— وبدأ شهر البصل .
— والبصل راح يصنن .
— ريحة الصنة واضحة من زمان .
— لكن فى العسل نايمين .
— اياك يشموا الصنة .
— فى برد ديسمبر ؟
— احتمال زكام .
— مش للدرجة دى ..
— واكثر وحياتك .
— وبكره نشـــوف .

— واللى يعيش يشوف اكثر .
— يا جماعة دي الريحة مايحة .
— البارفان يغطى عليها .
— مدة قصيرة والريحة تغلب .
— نحط بارفان تانى ؟
— وبعـــدين ؟
— وثالث ..
— البارفان يخلص ؟
— بعدها يفوتوا .
— يا ريت يفوتوا .
— بعد الاوان ؟ . ايه الفايده ؟
— تروح السكرة .
— وتيجى الفكرة .
— يستخبوا على الاقل ..
— وليـــه ؟
— اذ ربمـــا .
— ما يقدرشى .
— كلام واضح وانذار صريح .
— هم اذكياء .
— ذكاء ذاتى .
— ويساوى غباء اجتماعى .
— لا .. لازم راح يفهموا .
— تراهن .
— بسيجارة بكره .
— وتعرف بكره ازاى ..
— من اخواننا المؤيدين .
— لا .. فيه فرق ؟
— فرق شكلى ..
— موافق على الرهان .

ويعلق ملك الصحراء :

— تبقى خسرت الرهان يا بطل .

ويعلق صلاح هاشم مسئول الحياة العامة وكان ذهنه منتبها رغم جلده ١٨ جلدة التى اخذها على ظهره فى الصباح :

— واللى يخسر مش راح يطول منى ولا نفس ..

ويجرى **حوار جاد** بعد هذا **الحوار الساخر** لا يختلف عنه الا من حيث الشكل لكنه ينتهى الى **حقيقة** لاتحتاج الى **الرهان** عليها . آن العلاقة بين **الحكم الوطنى** وبين زملارنا وصلت الى حالة **تدهورها القصوى** ، ومن

المؤكد أنهم سوف يواصلون **العمل تحت الارض** .. وتغمض جفوننا وفى داخلنا أمل أن لا تكون هذه البديهية **مجرد حلم** يتبدد فى الصباح .

وفى صباح اليوم التالى نفاجأ بالمأمور ومعه ضابط العنبر وسجان يفتح باب الزنزانة ونقف للتفتيش كما تعودنا ولكنه يبتسم ويقول :

ــ انا جاى اشوف زملاءكم بتوع امبارح .

ويدور حوار وينتهى باتفاق .. هو الاول من نوعه فى السجون التى قضينا فيها السنوات السابقة . أحكى لك عنه فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٢٢ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٤٩)

حبيبتى

كان موقف الزملاء الذين جلدوا نقطة تحول فى علاقة مأمور السجن بنا . كان الرجل يعرف انهم مظلومين ومع ذلك تحملوا الجلد حتى لا يعاقب ضابط العنبر و « من اجل اولاده » . ثم شـــهد موقفهم البطولى قبــل عملية الجلد وبعدها « وهو مشهد لم يره فى حياته . لقد تعامل مع عتاة المجرمين الذين اثاروا الرعب فى البلاد ،» ووجدهم يصرخون عنـــد أول جلدة تنزل على ظهورهم . كذلك فقد اجبرهم بالتهديد والوعيـد على أن يصرخ الواحد منهم ويقول (انا . . .) . وهؤلاء **المساجين السياسيون طلبة ومثقفون وموظفون وعمال** ، كيف يتحملون كل هــذا ؟ ولماذا هم صـــامدون الى حسد يثير الدهشة ؟ **بطولاتهم** تنتزع الاعجاب والتقدير حتى من أعدائهم ؟

واسئلة كثيرة أثارها المأمور اثناء حواره معنا صباح اليوم التالى لليـــوم الذى جلد فيه الزملاء . قال بصـــوت ودود لم نألفـــه منـــه من قبـــل :

ـــ انا جاى اشوف زملاءكم بتوع امبارح .
ـــ نرجو أن يكون خيرا .

ويضحك قائلا :

ـــ حكاية النون دى مش قادرين تتخلوا عنها ؟
ـــ سنوات طويلة ونحن نستخدمها فى السجن .
ـــ والضباط هل كانوا يوافقون ؟
ـــ يعترضون ثم يوافقون .
ـــ وجدوا أن هذا يسهل عملهم .
ـــ ويبدو لى ان هذا صحيح .
ـــ التجربة خير برهان .
ـــ من اين نبدأ ؟

ويشير الزميل مسئول الادارة الى راسه ويقول :

ـــ من هنـــا .

ويرفع المأمور يده الى اعلى ويقول ضاحكا :

ـــ وليس من هنـــا .

ـــ وهو فرق أساسى فى التعامل .
ـــ لكن التعامل معكم مسئوليته كبيرة .
ـــ لماذا ؟
ـــ الكتب .. والورق والاقلام والمنشورات .
ـــ لن تجد أثرا لها عند اللزوم .
ـــ تستغنون عنهـا ؟
ـــ لا وانما نخفيها فى الوقت المناسب .
ـــ وهل تعرفون هذا الوقت المناسب ؟
ـــ نعرفه منك . ونستعد له .
ـــ كلام رجاله ؟
ـــ نترك تقدير هذا لكم .
ـــ حملات تفتيشية كثيرة لكم فى الايام المقبلة .
ـــ نتوقعها . ونتوقع ما هو أكثر .
ـــ سمعتم خطاب الرئيس أمس ؟
ـــ نعم سمعناه .
ـــ سمعتوه .. أو سمعتم عنه ؟
ـــ سمعناه من ترانزستور عندنا .
ـــ اين هـو ؟
ـــ فى هـذه الزنزانة .
ـــ اذا فتشت أجـده ؟
ـــ لن تجـده .
ـــ اذن نجرب .
ـــ اتفضـل .

ويقـوم المأمور ومعـه ضابط وسجان **بتفتيش الزنزانة** تفتيشا دقيقا دون أن يجدوا أى اثر **للراديو** ولا أى ممنوعات أخرى . ويقول المأمور ضـاحكا :

ـــ ربما يكون فى جيب واحد منكم .

ونضـحك :

ـــ فتشنا .

ويقوم بنفسه بتفتيشنا ولا يجد شيئا .

ـــ ودائما ستجدنا كذلك .
ـــ اتفقنـا .
ـــ اتفقنـا .
ـــ وزملاؤكم المؤيدون ؟
ـــ نحن جميعـا مؤيدون .
ـــ يقولون انـكم معارضون .
ـــ هـذا رأيهم .
ـــ أنتم اذن غير متفقين .

قف فرضوه علينا .. للاسف .
ما يكون هذا عقبة امام اتفاقنا .
ا لن يــكون .
ثقـــون ؟
، الثقـــة .
م انــكم مختلفون ؟
خلاف السياسى لا يؤثر .
نلون اليهم اتفاقنــا .
ضل ان تجــربه معهم .

ويتجه المامور نحو **زنازين الزملاء** ويجــرى معهم نفس الاتفاق ، الزنازين مرة أخــرى . وما يكاد باب العنبر يقفل حتى ينفتح خرى . ونسمع أقداما تتجه نحو زنزانتنا ويفتح بابها ثم يقــول ضاحكا :

لى فات نعمل فيــه ايه ؟
لى فات مات .
المضبوطات عاوزينها ؟
مــل غيرها .
مانـكم عملتوا ؟
يعــا .

يقول ضاحكا ..

تش ؟

نرد ضاحكين :

ــــتعدون .
مان ونصف .. لم تاكلوا .
كلنــا عيش وملح .
كفى ؟
تى نخرج من التاديب .
لماذا لم تطلبوا هــذا ؟
كناه لتقديركم .
كنتم عنــد حسن ظنى بكم .
تى خرجنا من التأديب .

ويأمر المامور بفتح كل **الزنازين** ، واعادة **البطاطين** التى اخــوذها اصحابها ، وخروجنا للعمل فى مرافق السجن ، واعادة فتح **الفرن** سم . وقبل ان يخرج الزملاء من **الزنازين** اتفقنا على عدم مناقشة ء « **المؤيدين** » فى خطاب الرئيس **جمال عبد الناصر** امس حتى حدث استفزازات تؤثر على وضعنا الجــديد فى السجن والذى بدأ

بالاتفاق الجديد مع المأمور . وكان الزملاء « المؤيدون » قد اتخذوا الموقف نفسه . ومضت الايام المتبقية من ديسمبر ١٩٥٨ فى شبه مقاطعة بيننا وبين زملائنا « المؤيدين » . لكن تعليقا ساخرا قاله أحد زملاؤنا حين وصلتنا أخبار **الاعتقالات الواسعة** لزملائنا وهم يحتفلون بليلة **رأس السنة الجديدة** كادت أن تؤدى الى اشتباك بيننا . !!

ففى صباح **أول يناير ١٩٥٩** وكنا قد سمعنا من الاذاعات العالمية فى المساء أخبار **الاعتقالات** ، قال **وليم اسحق** لزميل صديقه من زملائنا « الآخرين » :

— وحياتك يا زميل ما تنساش لما تطلع افراج تبعت لى سجاير وحلاوة طحينية .

ومع أن الزميل لم يتأثر بكلام وليم الذى يحظى بحبه واحترامه الا أن بعض زملاء الزميل الآخرين الذين سمعوه هجموا على وليم يريدون الاعتداء عليه . وكادت تنشب معركة وتبقى « فضيحة » لولا تدخل العقلاء الذين قلبوا الحكاية الى مزاح وقررنا المقاطعة التامة بين الفريقين .

وكان المأمور لا يجد اجابة مقنعة على سؤاله : **كيف تفرق السياسة بين من يحملون فكرا واحدا ؟**

كان يسمع منا ومن الزملاء اجابات مختلفة على سؤاله ولكنه لم يقتنع ابدا بأى منها . عندما كان يتسلم منا مذكرات كنا نرسلها الى الرئيس **جمال عبد الناصر نؤيده فى مواقف وطنية** ، وكانوا هم أيضا يقدمون مذكرات كان المأمور يضرب كفا على كف بعد ان يقرأها ، ويقول :

— طب مختلفين ليه بقى ؟

وكنا لا نجد غير الاجابة التقليدية :

— أصل المسألة اعمق من كده .

هذه الخلافات لم تؤثر فى موقف المأمور منا جميعا بعد الاتفاق معه ، وايضا لم يتأثر **بالحملة الاعلامية** المسعورة ضدنا فلم يفكر يوما فى عمل شىء يناقض الاتفاق . ولم يكن هذا بالامر الغريب ، فلقد « بيضنا وشه » على حد قوله أمام رؤسائه وظل بالنسبة لهم هو المأمور القاسى والناشف القادر على فرض النظام والذى استطاع أن « يشكلنا » فلقد رأوا ذلك بأعينهم . وأذكر انه منذ الاسبوع الاخير من ديسمبر عام ١٩٥٨ حتى أوائل مارس ١٩٥٩ ، حين وصلت الينا « **طلائع** » **المعتقلين** ، كان موقفنا مع المأمور موقف « رجالة » على حد قوله . ففى تلك الفترة وصل الى السجن **ستة مفتشين** من مصلحة

السجون على ست مرات للتفتيش على السجن ، وفى كل مرة كان المأمور يعطينا خبر قبل حضورهم بساعات ، حتى نستعد . وكنا فى كل مرة نعد أنفسنا للتفتيش بشكل مبالغ فيه أحيانا . الجميع يلبسون البدل الزرقاء والطاقية على الراس والاحذية بدون رباط والزنازين خالية تماما من كل **الممنوعات** التقليدية وغير **التقليدية** فلا شاى ، ولا سكر ، ولا جاز ، ولا أمواس حلاقة ، وطبعا لا ورق ولا اقلام ولا كتب ولا منشورات . وعند كل تفتيش كنا نقف الوقفة النظامية فى السجون عند مرور مفتش السجون . البرش والبطاطين ملفوفين فى شكل اسطوانى ويقف المسجون الى جانبها عند التفتيش . وفى كل مرة ، كان المأمور **يشخط وينطر** امام **المفتش** ونبدو امامه خائفين مرهوبين . وهكذا ظل المأمور أمام المسئولين فى المصلحة هو الضابط الناشف القادر على معاملة عتاة المجرمين وعلى معاملة السياسيين ، فلاول مرة فى تاريخ التعامل مع المسجونين السياسيين لا تحدث اضرابات عن الطعام ، ولا تضبط أوراق وأقلام ومنشورات ، بل لا يطالب المسجونون بأى مطالب من مطالبهم التقليدية . اليس هذا كله دليلا على أن (...) هو الضابط المثالى القادر على فرض النظام حتى على السياسيين . وهكذا حين استطعنا أن نكون « رجالة » و « نبيض وش المأمور » ـ كما كان يقول لنا دائما ـ استطعنا فى نفس الوقت أن نمارس نشاطنا الثقافى والفكرى والفنى .

خلال تلك الشهور كانت انباء **انتقالات الزملاء** تتوالى . عشرات فى **سجن القلعة** ، وعشرات فى **الفيوم** ، وعشرات فى **أوردى ابو زعبل** وعشرات فى **الاقسام المختلفة** . وكانت الصحف التى تأتى الينا بوسائل خاصة أحيانا ، ومن المأمور احيانا اخرى مليئة بالحملات على الزملاء دون تمييز وعلى « الاشقاء » فى **سوريا والعراق** . ومع ذلك لم تتأثر علاقتنا بمأمور السجن وظل وضعنا كما هو بل وحصلنا على بعض المكاسب الاخرى، مثل السماح بفتح **الزنازين** الى ساعة متأخرة من الليل لعمل حفلة عيد ميلاد زميل داخل العنبر ، او مناسبة وطنية . وذات يوم فى أوائل مارس **١٩٥٩** أخبرنا المأمور أن اكثر من **٣٠٠ معتقل** سيصلون الى « **المحاريق** » بعد أيام وأن عددا منهم سيسكن فى الزنازين الخالية فى عنبرنا وكنا لا نشغل غير ست فقط ، والباقين سيسكنون فى العنبر الجديد الذى انتهى العمل فيه منذ أيام . وقال أن عددا من ضباط **المصلحة ومعهم** عدد من ضباط المباحث سوف يصلون غدا لاصدار تعليمات بشأن معاملة المعتقلين ، وانهم سوف يشرفون على تسكينهم . وطلب منا بأن نعطيه « الترانزستورات » التى عندنا واى مطبوعات اخرى وأن نحتفظ بترانزستور واحد نعطيه له فى آخر لحظة قبل حضور الضابط ، وبعد رحيلهم سوف يعطينا كل شىء بالتمام . ووافقنا على الفور . وطلب منا كذلك أن نتقبل اغلاق **الزنازين** علينا لمدة ثلاثة أيام على أن تفتح زنزانة زنزانة للطابور والذهاب الى دورة المياه كذلك اغلاق المرسم وفرن الخزف خلال هذه الايام الثلاثة والتى سيتواجد فيها هؤلاء الضباط . ووافقنا دون اى مناقشة . كان تعليقه بعد أن وافقنا على كل طلباته :

ـــ انا عارف ان موافقتكم دى .. موقف رجالة .. مش موقف ناس خايفين .

وفى صباح ذات يوم من الايام الاولى لمارس ١٩٥٩ اخبرنا المامور بأن المعتقلين سيصلون بعد ساعة . وذكرنا باتفاقنا الاخير معه والتزمنا به تماما . اغلقت الزنازين ولم يسمح لاى واحد بالخروج منها ابدا . وبعد ساعة سمعنا اصوات اقدام كثيرة تدخل العنبر . وبذلنا جهدا لنرى احدا منهم ممن نعرفه لكن كان من الصعب أن نرى الداخلين الى يمين الزنزانة التى نسكن فيها . فجاء وليم اسحق بمرآة واخذت انظر معه فيها وهى على يسارنا ورأينا اجساما كثيرة تدخل العنبر .

فجأة يصيح وليم اسحق :

ــ جيتو يا طلاينه .. !

ــ جسد الموقف كله بسخرية مريرة .

وبتقدمهم تنتهى فترة من حياتنا فى سجون مصر الملكية ، ومصر الجمهورية ، ومصر العربية المتحدة ، وتبدأ فترة جديدة .. احكى لك ما تعيه ذاكرتى منها فى رسائلى المقبلة يا حبيبتى .

٢٣ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٥٠)

حبيبتى

كانت أول مشكلة تواجه ادارة السجن بعد وصول **المعتقلين** ، هى تدبير الطعام لحوالى ٤٠٠ شخصا بعد أن كان ١٦٠ شـــخصا منهم ١٠٠ من الاخوان المسلمين ، وكان عددنا ٦٠ فقط . كانت ادارة السجن تحتاج الى ما لا يقل عن عشرة ايام تستطيع خلالهـــا الاتفاق مع المتعهد على اللحم والخضار ، وحتى تصـــل الكميات اللازمة من الدقيق والعدس والفول والفاصوليا من القاهرة . هذا فضلا عن اعداد المطبخ والفرن ليستطيعا خدمة هذا العدد الكبير . على ان حيرة المامور لم تدم طويلا ، فقد كان المعتقلون يحملون معهم كميات كثيرة مما لذ وطاب من الطعام .

سـال المامور :

ــ لـــكن هذا الطعام سينفد اليـــوم فماذا افعل غـــدا وبعد غد ولاكثر من عشرة ايام ؟
ــ قالوا .. معنا معلبات كثيرة .. ونقود اكثر .
ــ تسجنون على حسابكم ؟
ــ حتى ياتى المدد من القاهرة .

وكان حلا ســـعيدا ليس فقط لادارة السجن ، ولكن لنا ايضا ، فقد كان دخل الفرد منا **٢٥ مليما** فى الاسبوع لسد احتياجاته من بعض الغذاء الاضافى والسجاير . وكثيرا ما كان توزيع هذه **المليمات** مثـــار خلاف بين الزملاء وبين « مسئول الحياة العامة » **صلاح هاشم** ، فقد كان يفضل **ملعقة من الطحينة** كل اسبوع عن **نصف سيجارة** ، لـــكن الزملاء كانوا يرفضون اى غذاء اضافى مكتفين بما يقدمه السجن من طعام ويطالبون بتخصيص هذه المليمات **للسجائر فقط** . وأخيرا وصلوا الى حـــل مرن : هـــذه المليمات تـــكفى لتدبير **ثلث سيجارة** كل يوم ، **وربع كيلو حلاوة** طحينيـــة لـــكل عشرة زملاء . وكان الزملاء يؤلفون « كميـــونة » سجاير ، كلا ثلاثـــة فى « كميـــونة » يجتمعون فى الصباح يدخنـــون ثلث سيجارة معـــا ، وأخرى بعـــد الظهر . **والثالثة** بعـــد العشـــاء .

ومع حلول موعـــد الغـــذاء ، راينـــا « **ديوك روميه** » ! . وترتفع صيحات الاعجاب :

ــ ديك رومى مرة واحدة ؟

— ده حلم
— الحلم المستحيل
— ويتحقق فى السجن ؟
— مين كان يصــدق ؟
— أن يتحقق حتى فى الحرية .
— ومتى كانت « حريتنا » تحقق ديوك روميه ؟

ورأينا دجاج محمر . ولحم بارد ، وبفتيك وأصناف أخرى
— لا . . دى بقى شفناها .
— وأكلنا منهـا كمان .

ورأينا معلبات كثيرة ، طعام محفوظ ، وفواكه — وأصناف كثيرة الجبن ، رومى ، وبيضه ، وركفور . و . و .

— رومى ؟
— لذيذة قوى مع السميط .
— ومعاها شوية دقة . .
— وعلى شط النيـل يا جميل .
— وايه الروكفور دي ؟
— يعنى « المعفنـة » . .
— واحنا ناقصين « عفن »
— بيقولوا ان فيه أكثر من ٤٠ صنف جبنه .
— ويحفظوا أسماءها ازاى ؟
— لكن دول ٥ أصناف بس ؟
— قيود الاستيراد بقى .

ورأينا أصناف كثيرة من الشيكولاته والحلويات .

— مارون جلاسيه .
— سمعنا عنه فى فيلم ممنوع الحب .
— قالتها راقية ابراهيم .
— بيقولوا الحب زى المارون جلاسيه .
— يبقى عمرنا ما حنذوق الحب .
— وده بنبون « ماكينتوش »
— ماكنتش فاكر كده .
— أول مره تشوفه ؟
— ولا حتى أسمع عنه .
— وارد انجلترا .
— جابتها « مامى » من لندن .
— كل بمبوناية مختلفة عن التانية .
— فى الطعم ؟
—وفى اللون كمان .

و . و . و . و « حاجات كثيرة » . أصناف كان لا يمكن لذاكرتى أن تختزن أسماءها « الخواجاتى » وما وعته ذاكرتى منها هنا ، كان لاننى تعاملت معها بعد خروجى من السجن وأصبحت «صحفيا» ! وسافرت الى الكويت قبل « الانفتاح » !

لو أن أى واحد من المساجين القدامى شهد ليلة القدر ، فان خياله لن يذهب فى طلباته الى ربع أو نصف ما يراه بعينيه ، ويلمسه بيديه ، فى تلك المناسبة « السعيدة » .

ويرتفع صوت الزميل حامل جردل « العدس » :

— العدس يا زملا . .
— عدس ايه يا أخينا ؟
— خلاص نسيتوه ؟
— ونحقد عليه .
— كلها يومين .
— ولو . . نعيش اللحظة .

أحيانا يحلم الانسان بلحظة يعيشها . يتصورها مزيجا من أحلامه الكثيرة التى يتوق لها ، ثم يفاجأ خلال معايشتها ، بأنها تفوق كل تصوراته أو أنها دون أحلامه بكثير . ومع أن الاساس المادى لتلك اللحظة التى تصورها أصحاب البدل الزرقاء كان موجودا ، الا أنهم صدموا فى أحلامهم ، كانت نظرتهم أحادية الجانب حين ركزوا على النوع ولم يهتموا بالكم . صدمتهم الحقيقة وهم على عتبة اللحظة التى حلموا بها . خمسة ديوك رومى كيف يتم توزيعها على ٣٠٠ شخص ؟ واللحوم بكل أصنافها والفراخ ، لا يزيد وزنها عن ١٥ كيلوجرام . . كيف توزع على هذا العدد الكبير بالعدل والقسطاس ؟ والمعلبات لا يمكن توزيعها فمن يدرى متى تأتى المؤن من القاهرة ؟ ثم هل نشترى بكل النقود طعاما ينفذ فى كام يوم ؟.

ويرتفع صوت صلاح هاشم :

— العدس يا زملا . . !!

كان السجن يضم ثلاث عنابر . فى كل عنبر ٢٠ زنزانة . وكان المسجونون ، دفعات (١٩٥٢ — ١٩٥٤) يشغلون ربع عنبر (٢) . ويعيش المعتقلون دفعتا مارس ويونيو ١٩٥٩ معهم فى نفس العنبر . وفى عنبر (١) وضع المعتقلون من دفعة أكتوبر عام ١٩٥٩ ، ضم اليهم بعد ذلك المعتقلون الذين كانوا معنا فى عنبر (٢) . وبدا الأمر غير عادى .

فى اليوم نفسه الذى وصلت فيه دفعة أكتوبر ١٩٥٩ من المعتقلين الى سجن « المحاريق » وصلت الينا رسالة من الخارج تحمل خبر

التصديق على احكام زملائنا وكانوا فى **سجن مصر** فى انتظار هـــذا التصديق ، وبالطبع توقعنا كما توقعت الرســالة ان ياتى الى ســجن « **المحاريق** » هؤلاء **المسجونون الجدد** . وحسـبنا ان اخـلاء عنبـر (٢) من المعتقلين هو من اجل ان يستقبل المسجونين الجدد ، لكن ما حدث بعد ذلك اليوم نسف كل ما توقعناه . فى صباح اليوم التالى لم تفتح ابواب زنازيننا كالمعتاد . سألنا السجان :

ـ ايه الحكاية ؟
ـ اوامر جديدة .
ـ المعتقلين فتحوا عليهم
ـ لا .
ـ ممكن نقابل المامور
ـ لما اسأل ضابط العنبر .

وجاء ضابط العنبر .. قال وابتسامة غامضة على وجهه :

ـ خـير .
ـ اوامر جــديدة .
ـ ايه هيــه ؟
ـ عدم فتح الزنازين .
ـ لحــد امتى ؟
ـ لحين صــدور اوامر اخرى .
ـ نقابل المامور .
ـ اســاله .

مضت اكثر من ساعة ونحن نضرب **اخماســا فى اسداسا** . حتى مساء اليوم الســابق كانت الحياة تسير بشكل عادى جدا ، **الزنازين** مفتوحة طول النهار حتى الثامنة مساء . الزملاء المسجونون والمعتقلون يذهبون الى العمل فى مرافق السجن المختلفة . ووليم اســحق وداود عزيز ومجدى نجيب كانوا يرســمون لوحات طلبهــا ضــباط اصدقاء . وحتى صــباح اليــوم الباكر سمعنا كل اذاعات العالم ولا شىء غير عادى فى البلد :

ـ ايه الحكاية ؟
ـ كلام المامور امبارح مش مطمئن .
ـ يظهر ان عنده اوامر جديدة

ونسمع صــوت ضابط العنبر ينادى على **وليم طانيوس** « مسئول الادارة » واستأذن من الضابط ان اذهب معه ويوافق .

كان مع المامور فى مكتبه اللواء (...) **وكيــل مصلحة السجون** و « افندى » كان يبدو عليه انه من **الرجال** « **المهمين** » .

قال المامور وبعض الغضب على وجهه :

ــ عندى أوامر جديدة .
ــ خــير .
ــ لازم تشكروا سيادة اللواء .
ــ نحن دائما نشــكر سيادة اللواء .
ــ وقف الى جانبكم .
ــ وهو معنــا دائما .
ــ مالكوش دعوة بالمعتقلين .
ــ بس نفهم .

ويتدخل « الافندى » ويقول بصوت عال :

ــ عايزين تفهمــوا ايه ؟

نتجاهله ونوجه كلامنا للمأمور :

ــ نفهم ايه الاوامر الجديدة ؟

وقبل أن يرد المأمور .. يصرخ « الافندى » :

ــ المعتقلين دول **تبعنــا** .

تسود فترة صمت يقطعها صوت **اللواء** (...) :

ــ **البيه من المباحث العامة** .
ــ واحنا طبعا مش تبعهم .

وتزداد علامات الغضــب على « **الافنــدى** » ويســود الصمت مرة اخرى وقبل أن ينطق هذا « **الافندى** » يقول (...) ضاحكا :

ــ لا طبعا انتو المساجين تبعنا احنا .

ويقول المأمور :

ــ وطبعا معاملة المسجون غير معاملة المعتقل .
ــ طبعــا .

ونلاحظ أن المأمور يرغب فى انهاء المقابلة وينادى على الســجان ويقول له :

ــ وصلهم للعنبر ، واقفل عليهم .

ونمشى مع السجان بعد أن لمحنا فى عينى المأمور الرغبة فى أن ننصرف حتى لا تحدث **مشادة** بيننا وبين هذا « **الافندى** » .

ويقفــل علينــا باب الزنزانة مرة أخرى وقد فهمنا أمورا واخرى لم نفهمها بعــد :

— يدبرون امرا ضــد المعتقلين .
— ولماذا المعتقلين فقط ؟
— هذا ما فهمناه من المقابلة .
— ليست السياسة اذن ؟
— ولم لا ؟
— كانت تشــملنا أيضا .
— ولماذا يستثنى المسجونون ؟
— احتمال تناقض بين مصلحة السجون والمباحث العامة .
— هذا هو الارجح .

وتثور مناقشة حادة بين الزملاء . ويقول واحــد منهم بحدة :

— هل تفصلون بين الاجهزة ؟
— يعنى ايه يا زميل ؟
— يعنى كل الاجهزة بتنفذ سياسة واحدة
— هذا اذا كانت سياسة عليا .
— وهل هناك سياسة خاصة ؟
— احتمال وارد .
— يعنى المباحث تدبر شىء لا تأمر به السلطة .
— جايز جدا .
— جهاز من اجهزة الدولة يعمــل ســياسة تتعارض مع ســياسة الســلطة ؟
— ومين قال انها تتعارض ؟
— يعنى تبقى متفقه ؟
— ممكن .

ونســمع صوت **ضــابط العنبــر** ينادى على الزميــل مســئول الادارة :

— المأمور عاوزك فى مكتبه .

ونذهب اليــه ، ما أن يرانا حتى يقــول وابتسامة ودوده على وجهــه :

— أنا عارف انكم رجاله وتقدروا المسئولية .
— شكرا على هــذه الثقة .
— معاملتكم لن تتغــير .
— والمعتقلين ؟
— ارجو ان تــكون سحابة وتمر .
— وراح تعاملوهم ازاى ؟
— كما أمرت المباحث العامة .
— لكن دى مسئولية سيادتك .
— أنا مسئول عن المساجين فقط .
— طيب ممكن نعرف كيف سيعاملون ؟

ويجيب المأمور بأسى :

ــ اغلاق **الزنازين** عليهم **طول النهــار** فيما عــدا نصف ســاعة فى الصباح ، ونصف ساعة بعد الظهر ، يلبسون ملابس **المسجونين تحت التحقيق** « البيضاء » **ويخلعون احذيتهم** ، لا يسمح لهم بشراء شىء من الكانتين . **وزيارتهم ممنوعة تماما** . وغير مسموح لهم باستلام خطابات من أهاليهم أو ارسال خطابات اليهم .

يصمت لحظة ثم يقول بحزن :

ــ وفى انتظار اوامر أخرى .

ونتساءل بدهشة وغضب :

ــ أكثر من كده ايه ؟
ــ ربنــا يســتر .
ــ لازال عندك ما تخفيه عنا .

ونلحظ رنة **الصدق** فى صوت المأمور :

ــ ابدا .. ابدا .. والله .

لحظة صمت ونقول :

ــ البركة فى سيادتك .
ــ وانا فى ايدى ايه ؟
ــ يعنى .. برضه .
ــ دى أوامر المباحث العامة .
ــ اى اوامر يمكن تنفيذها بمرونة .

ويقول المــأمور بعد تردد :

ــ الحقيقة انا مش واثق فيهم .
ــ دول زملاؤنا واحنا عارفينهم .
ــ عارفينهم كلهم ؟
ــ بالاسم .. طبعا مش كلهم .
ــ أهو بقى ان كنتم عارفينهم كلهم راح تغيروا رايكم .
ــ فيه مسئولين منهم يقدروا يحكموا الكل .
ــ ويضمنوا أن ماحدش منهم يتكلم .
ــ يتكلم مع مين ؟

ويقول المأمور **بسخرية** :

ــ يعنى مش عارفين مع مين ؟

ونقول باستنكار :

ــ مش معقول .
ــ معقول ونص كمان .

ولاول مرة نشعر بموقفنا **الضعيف** أمام المأمور ، ونقول برجاء :

— لو تسمح سيادتك تتناقش معاهم .
— مع مين بالضبط ؟
— مع **فخرى لبيب** .

ويسأل :

— مش واخد بالى منه ..
— لما تشوفه سيادتك راح تعرفه .
— قبل ما اشوفه .. هو راجل ؟.

ونضحك :

— راجل ونص .
— على ضمانتكم ؟
— وبرقبتنا كمان .

وينادى على السجان :

— قول لضابط عنبر (ا) المأمور عاوز **فخرى لبيب** . وبعد أن ينصرف السجان ، يقول :

— انا واثق أن ولا كلمة راح تطلع منا احنا الثلاثة .

واضحك قائلا :

— الاربعة بقى .

— أنا مش راح اتكلم معاه .. تكلموا انتم . ونحاول اقناعه بأن يثق **بفخرى لبيب** كما يثق بنا . وعندما نهم بالكلام :

— لكن .. ده محل ثقة .. و ..

يقاطعنا :

— مالكنش .. انا بأتعامل معكم انتم .
— ماشى .
— وأنتم المسئولون امامى .
— وهو كذلك .

ويصل السجان ومعه **فخرى لبيب** ، يقول له المأمور وهو يهم بالانصراف من مكتبه :

— اقعد شوية مع زملائك .

ويتركنا مع فخرى لبيب اكثر من ساعة ، ننقل اليه خلالها كل ماحدث اليوم فى مقابلة الصباح مع **وكيل المصلحة والمأمور** و « **الافندى** » ثم المقابلة الثانية مع المأمور . ويترك لنا **فخرى لبيب** حرية التصرف على أن يتولى هو من جانبه تنفيذ ما نصل اليه مع المأمور . واكدنا عليه الا ينقل

الى اى زميل من **المعتقلين** مهما كان وضعه ومهما كانت ثقته فيه حرف واحد مما جرى اليوم . واكدنا عليه فى الوقت ذاته أن يراقب بدقة تصرف وحركة كل **الزملاء المعتقلين** حيث جاء فى حديث المـأمور اشارة واضحة الى وجود **عناصر مريبة** .

ويعود المامور الى مكتبه .. يقول :

— هيه .. عملتوا ايه ؟
— كله تمام .
— كله تمام .

ويوجه كلامه الى فخرى لبيب :

— أنا شفتك كثير .. لكن ما اتعاملتش معاك .

ويرد عليه فخرى :

— راح تعرفنى لمـا نتعامل .
ويضحك المـأمور قائلا :

— لا مؤاخذة .. المسجونين اتعاملت معاهم واثبتوا أنهم رجالة .

ويقول فخرى :

— زملاءنا برضه واحنا نفتخر بيهم .
— لا .. فيكم ناس وحشين .
— راح نعرفهم .. وأنا مسئول .
— مش دلوقت .. لمـا اعرفك .
— ولغاية ما تعرفنى ؟

يشير المـأمور الينا ، ويقول :

— دول المسئولين أمامى .

ويستطرد ضاحكا :

— قد المسئولية ؟
— قدها وقدود .
— لمـا نشوف .

ويقول وليم طانيوس :

— اذن نبـدأ ..

ويضحك المـأمور ..

— أيوه يامسئول الادارة .. طلباتك ؟
— مش كثيرة .
— نبدأ بالملح .

ويعلق المـأمور :

ــ ثم بالاهم .
ــ ثم بالمهم .
ــ ولغاية كده كويس .. والا ايه ؟
ــ كويس قوى .

يبتسم المامور ، ويقول :

ــ كلمة الملح دى جديدة .

ويضحك وليم :

ــ علشان يبقوا ثلاث طلبات بدل اتنين .

ويتهته المـأمور :
ــ جبطى .

واعلق :
ــ وصعيــــدى .
ويعلق فخرى لبيب :
ــ ومدير كمان .

ويقول المأمور بود :

ــ طلباتك يا سيادة المدير الجبطى ، الصعيدى .

ويقول وليم :

ــ نكتفى اليوم بمطالب المعتقلين .
ــ حلوه دى . اتفضل .

ونتداول انا ووليم وفخرى حديثا سريعا ، ماهو الملح ، وما الاهم ، وما المهم :

ــ السجاير والشاى .
ــ بند واحد ؟ ايهما الملح .
ــ الاثنــــان .
ــ بلاش طمع .
ــ اذن السجاير .
ــ غــــيره .
ــ حلاوة طحينية .
ــ ماشى .. غيره .
ــ كام كتـــاب .
ــ مش وقتــــه .
ــ يبقى الشـاى .
ــ ماشى .
ــ كفاية كده النهارده .

ويضحك المامور قائلا :

ـــ لا يا شيخ .. اطلب كمان !

ويجرى نقاش بيننا وبين المامور حول طريقة تدبير **السجاير والشاى والحلاوة الطحينية** . ونحن المسجونون لا نملك غير كميات ضئيلة جدا من السجاير والشاى هى كل رصيدنا حتى تاتى الينا **نقود** وليس عندنا حلاوة طحينية . **المعتقلون عندهم نقود كثيرة** ولكنهم ممنوعون من التعامل مع الكانتين ، ما العمل ؟

ـــ عندنا اقتراح .
ـــ اتفضـــــل :
ـــ المسجونون عندهم كمية سجاير وشاى . نوزعها .

ويضحك المامور :
ـــ اشتراكية فقر .. انتو حيلتكم حاجة .
ـــ تكفى النهارده .
ـــ وبكره . وبعده . وبعده ؟
ـــ فعلا .. مشكلة .

ونقف فترة عاجزين عن ايجاد حل لهذه المشكلة ، فجاة اقول :

ـــ عندى حل
ـــ جذرى .. والا مؤقت ؟
ـــ مؤقت طبعا .. بعدين الجذرى ده ..
ـــ قـــــول
ـــ تشترى كمية كبيرة من السجاير والحلاوة والشاى .
ـــ يا ابنى وانتو هيلتكم فلوس .
ـــ المعتقلون عندهم .
ـــ ماقلنا المعتقلون ممنوعون .
ـــ ممنوعون أيوه .. لكن من اليوم بس .
ـــ وبعـــــدين ؟
ـــ نشترى بكره ونكتب فى الدفاتر ..

ويقاطعنى المامور :

ـــ اننا اشتريناها من كام يوم .. مش كده ؟

اصمت قليلا . ويرقب وليم وفخرى لبيب رد فعـــل المامور الذى نرى على وجهه انفعالات مختلفة . وفجاة يقول :

ـــ تزوير فى اوراق رسمية !

ونصمت نحن الثلاثة ، لكن تعبيرات وجوهنا تقول كل ما بداخلنا . حقا انه **تزوير** فى اوراق رسمية.لكنه تزوير ليس هدفه **السرقة او النصب**،

هدفه انسانى ، الغاية لا تبرر الوسيلة ، فكيف نوافق على هذه الوسيلة؟ ظروف استثنائية ! وتصرف استثنائى ! ممكن . لكن المسألة لا تخصك نحن . هل تصل ثقة المأمور بنا الى هذا الحد ؟ هل يتحمل المسئولية ؟ ما الذى يضطره الى ذلك ؟ .

وفجأة يقول المأمور بصوت ودود :

— ماشى يا اولادى .. بكره الصبح نشترى .

ولا يعطينا الرجل أى فرصة لشكره فينصرف بسرعة قائلا :

— هات لهم السجاير اللى عندكم يا وليم .

ويختفى عن انظارنا سريعا حيث يركب عربته ثم ينادى على السجان ويعطيه أمرا بأن يذهب مع وليم الى عنبر (١) كى يحضر السجاير ويعطيها لفخرى لبيب .

وعاد وليم ومعه كل رصيدنا من السجاير .

— خد يا فخرى ٣٠٠ سجارة .
— كل واحد ياخد سيجارة .
— خليها على يومين .
— فعلا .. مين عارف .

وعدنا الى الزنزانة ، وكانت الشمس ترسل اشعتها الاخيرة وبعد اقل من ساعة تام فخرى لبيب خلالها بتوزيع السجاير على الزملاء فى الزنازين ومع السجان الذى تلقى أمرا بذلك من المأمور . سمعنا أصوات الزملاء من عنبر (١) ترتفع لاول مرة منذ اكثر من ١٢ ساعة تغنى وتبعث الينا التحيات .

ويهب وليم طانيوس واقفا ويقول بغضب :

— غبى . غبى .
— ايه يا وليم ؟
— قالهم السجاير من عند المسجونين .

وتساءل أحد الزملاء :

— وفيهـــا ايه ؟

ويرد وليم بغضب :

— فيها مصيبـــة .

وتتوالى تعليقات الزملاء ..
— يا ســـاتر .
— مصيبة ايه ؟

ـــ نريد توضيحا

واقول لوليم :

ـــ صبرك يا وليم ماشافهومش وهمه بيسرقوا شافوهم وهمه بيتقاسموا.

ويقول مجدى بهدوء :

ـــ معلهش يا وليم .. همه مش بالدرجة دى من الذكاء .
ـــ همه مين ؟
ـــ اللي انت خايف منهم .
ـــ مهما كان .. ده تصرف غبى .
ـــ كله يتصلح .

وتتوقف أصوات التحيات الاتية الينا من **عنبر (٢)** واقول لوليم :

ـــ طولة البال تهد الجبال .
ـــ يظهر انه تدارك خطأه .

ويسحب وليم البطانية على جسمه الطويل الممدد على « برشين » يكمل احدهما الآخر ، فلو نام على « برش » واحد لاتجد قدماه سوى **الاسفلت** لترقدا عليه . بينما يحاول الزملاء أن يعرفوا العلاقة بين غضب وليم وبين التحيات التى وصلتنا من المعتقلين الذين أخذوا السجاير .وحتى اليوم لا يعرف معظم الزملاء سر هذه العلاقة . كانت سرا لا يمكن أن نبيح به لهم ليس لعدم ثقتنا بهم ، ولكن احتراما لكلمة ارتبطنا بها مع المأمور .

ومرت الايام الباقية من **اكتوبر عام ١٩٥٩** والاسبوع الاول من نوفمبر ونحن المسجونون نعيش حياتنا التقليدية فى السجن ، بينما كان المعتقلون يعاملون هذه المعاملة الشاذة . **وفى مساء ٧ نوفمبر ١٩٥٩** علمنا من أحد السجانة خبر وصول **اللواء اسماعيل همت ومعه فرقة « التعذيب »** الى بلدة « المحاريق » ! **وكان يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩** يوما داميا ، احكى لك عنه فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٣ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـالة رقم (٥١)

حــــبيبتى :

كانت ساعات القلق والمعاناة التى مرت بنا خلال ما يزيد عن سبع سنوات عشناها فى **السجون** المختلفة ، وعشـــتيها انت معنـــا من خلال رسائلى السابقة اليك يا حبيبتى ، يقل حجمها عن تلك الســـاعات التى عشناها فى مساء **يوم ٧ نوفمبر ١٩٥٩** . بعد حوار سريع بين الزملاء بعد ان سمعنا خبر وصول همت الى بلدة « المحاريق » ومعه فرقة التعذيب وكانت الساعة حوالى التاسعة مساء ، وضح لنا كل شيء . **عملية تعذيب وحشية** ستبدأ فى صباح الغد لزملائنا **المعتقلين** فى عنبر (٢)، وهناك احتمال أن يشملنا هذا التعذيب ، لكنه احتمال ضعيف فما حدث فى الايام الماضية يشير الى ذلك . الاحتمال الاكبر ان تكون مهمة همت قاصرة على المعتقلين . كان مجرد احتمال استبعادنا من التعـــذيب المنتظر غدا على يد السفاح همت أقسى من كل تعذيب يمكن ان يتصوره انسان . كيف ستكون حالتنا غدا ونحن نسمع ، ولا نرى ، ما يجرى لزملائنا من تنكيل وتعذيب واهانة وهم على بعد خطوات منا . ما الذى يمكن أن نفعله من أجل زملائنا ؟ وهل نملك شيئا نفعله غير الاحتجاج ؟ وهل يمكن ان يفيد اى احتجاج من أى نوع ؟ من المؤكد ان اضراره سوف تكون كبيرة علينا وعليهم . **أيهما اقسى على النفس ، التعذيب البدنى ام العذاب النفسى** ؟ العذاب النفسى يفوق التعذيب البدنى مئات الاضعاف . ويصرخ احد الزملاء :

ـــ لازم نتضامن معاهم .
ـــ وهل يجدى ؟
ـــ بل اضراره معروفة سلفا .
ـــ أفضل من عذابنا هذا .
ـــ ليست تضحية ذاتية .
ـــ زهقنا بقى من الموضوعية .
ـــ موقف انتحارى ؟
ـــ وهل نجلس هكذا ؟
ـــ ربما كانت قمة البطولة .
ـــ البطولة ان نفعل شيئا .
ـــ والمغامرة ليست بطولة .
ـــ والاحتجاج مغامرة ؟
ـــ اذا لم يحدث فى وقته .
ـــ نسكت اذن ؟
ـــ بل ننتظر .
ـــ حتى متى ؟

ـــ قد لا نفعل شيئا .
ـــ وقد نفعل .
ـــ هذا ما قلته .
ـــ لم تحدد شـــكل .
ـــ أخشى ان نستسلم .
ـــ ويجب ان نخشى عبث الاطفال ايضا .
ـــ نتفق فى المضمون .
ـــ ونختلف على الشكل .
ـــ وهذه هى القضية .

انها قضية كل انسان فى كل زمان وفى اى مكان . **الشكل والمضمون . قضية الانسان فى كل العصور . قضية وجوده وسر حياته .**

لا اذكر ان عينى او عينا اى زميل غفلتا لحظة واحدة طول الليل ، ما اتذكره جيـدا هو صـوت **الســجان** فى الصباح يقول وهو يضرب كفا على كف :

ـــ ايه اللى جرى فى الدنيا ؟
ـــ خـير .
ـــ خير ايه .. همه دول حيلتهم الا الشر .
ـــ بيعملوا فيهم ايه ؟
ـــ اللى شفته . اللواء همت ومعاه المأمور وشوية ضباط قاعدين تحت مظلة . وطابورين من الجنود واقفين ماسـكين **المدافع الرشاشة ،** وعساكر راكبه خيل وفى ايديها **كرابيج** .

كان من المستحيل أن نرى شيئا مما يـدور خارج **الزنزانة** وعلى بعد خطوات منـا . كانت زنزانتنا لا تطل نوافذها على حوش السجن حيث تدور « المعركة » .

وكان السجان الصديق هو العين التى نرى بها ما يجرى ، اصوات اقدام كثيرة تجرى فى الحوش ، **وطلقات رصاص** ، وصرخات الســجانة تعـــوى :

ـــ اجرى . اجرى . اجرى .

ويسرع السجان ليرى من باب العنبر . تمضى دقائق ونسمع اصوات تصرخ :

ـــ اركع . اركع . اركع .

طلقات رصاص . اصوات اقدام الخيـل تختلط باصوات صراخ يعــلو :

ـــ اسمك يا كلب ..

ـــ اسمك يا (..)

قلوبنا تسقط الى اقدامنا مع كل صوت مكتوم يصل الينا من بعيد . ورعشة تجرى فى كل اجسامنا مع كل طلقة رصاص نسمعها .

ويأتى السجان ينقل ما رآه فى الدقائق السابقة ، خمسة يخرجون من باب العنبر عراة كما ولدتهم امهاتهم ، يحملون امتعتهم فى يد ، وملابسهم التى خلعوها على باب الزنزانة فى اليد الاخرى . امامهم عسكرى وخلفهم عسكرى كل منهما يحمل مدفعا رشاشا . وما ان يصلوا الى بوابة السجن الخارجية حتى تدوى الصرخات :

ـــ اجرى .. اجرى .

ويجرون وسط طابورين من الجنود يحملون **الشوم ، والكرابيج ، والبنادق** . وينهالون عليهم ضربا عشوائيا ، العين ، الراس ، الكتف ، اى جزء فى الجسم ، وصرخات الجنود تعوى ، والخيل يجرى ، ونار مشتعلة وتودها **امتعة المعتقلين** يلقون بها فى النار . وعند نهاية سور السجن ، قرب بوابته ، جلس **السفاح** والى جانبه مأمور السجن والضباط ، وأمام **محكمة التفتيش** يأخذون « طريحة » اخرى . ضرب بالعصى ، ودبشك البنادق ، والسياط ويصرخ السفاح :

ـــ اسمك ايه يا ولد ؟

ـــ ...

ويتكرر المشهد نفسه عند عودتهم . لتبدأ الدفعة الثانية ، ثم الثالثة ... **رحلة العذاب** ، ذهابا وايابا . **اربعون مرة ذهابا ، واربعون اخرى ايابا** ، فقد كان عددهم **٢٠٠ معتقل** .

وقبل أن تغرب شمس يوم لم تطلع ، نسمع باب عنبرنا يفتح وصوت يصرخ عاليا :

ـــ **انتباه** .

وننتظر فى تحفز ، ماذا نفعل **لو جاء السفاح الينا ؟** سيكون تحديا لمشاعرنا وسوف نعلن استنكارنا مهما كانت النتيجة . لقد تعذبت نفوسنا وتمزقت قلوبنا ، وتعذيب اجسامنا اهون بكثير ، واتفقنا بسرعة .

اقدام كثيرة تدخل العنبر . ونرى همت يمرق كالسهم لا يلتفت يمينا او يسارا ، ويهرول وراءه **المأمور والضباط وفرقة التعذيب** ، يصلون الى آخر العنبر ويعودون بالسرعة نفسها . وعند باب العنبر نسمع صوت المأمور يقول :

ـــ انا عملت معاهم اللازم يا افندم .

ونسمع صوت باب العنبر وهو يقفل . وتمضى دقائق نسمع بعدها « بروجى » اللواء يصرخ ، ليعلن انصراف **السفاح** .

— **ربنا ينتقم من الظالم** .

جسد صوت السجان وهو ينطق بهذه الكلمات كل معاناة الفلاح المصرى عبر آلاف السنين من حكامه الظالمين الذين توارثوه .

— الحمد لله .. ربنا نجاكم .

وينفذ الى أعماقنا صوت **ابن البلد** . **ابن بولاق والسيدة زينب وباب الشعرية والدرب الاحمر** وغيرها من الاحياء الشعبية ، صوت ودود انسانى .

— كانوا رجالة حقيقى .
— انت شفتهم ؟
— كنت واقف فى الحوش .
— اشتركت فى المعمعة ؟
— حظى كويس .. كنت فى الراحة .. الحمد لله .

ويكمل قائلا : كانوا رجالة . كان فيهم بطل حقيقى . **فخرى لبيب** . اعرفه . بعد. ما وصل للواء همت صرخ فى وشه قال له « انت قاتل » وراح تدفع الثمن . صرخ همت ونزلت العساكر عليه **بالشوم والكرابيج** لغاية ما وقع على الارض . همت قرب ناحيته وضربه بجزمته . وأمر بجلده ، ثلاث سجانة نزلوا عليه بالكرابيج . اكثر من **سبعين** جلده لغاية يا ولداه ماوقع على الارض وبجزمته قلب راس المسكين وقال **بحقد** « لسه عايش يا ابن الثور » . وبعدين شالوه زملاؤه وراحوا بيه على العنبر والضرب شغال عليهم .

ويختم الرجل حديثه بدعوته لنا . دعوة صدرت من أعماقه :

— الله ما يرويكم يوم زى ده .
— ايه اللى حصل لما جه همت هنا :
— ولا حاجة .. مشى لغاية آخر العنبر ورجع .
— سمعنا المأمور بيقوله عملنا اللازم .
— المأمور طلع جدع . قال له كده علشان يغور بقى .

ويزحف الظلام ولاول مرة منذ ٢٤ ساعة نحس بلحظة هدوء ، وترتفع أصوات الزملاء فى عنبر (٢) يغنون وينشدون ، **بلادى . بلادى . بلادى. لك حبى وفؤادى** . وتعلوا أصواتنا تحيى بطولة الزملاء .

ويسود الصمت . تاسينا كثيرا من الالام ، لكن أقساها هى تلك تلك التى لم نعانيها بعد . « حريق » الصباح الذى أشعله همت تخمد

السنة لهيبه تدريجيا ، ويقذف الهواء الهواء بدخانه الينا يضيف الى سواد الليل سواد السفاحين . وتدريجيا تغمض عيناى فالجسم مهدود رغم انى لم امش خطوة واحدة طول اليوم . وتقفز الى ذاكرتى كلمات ناظم حكمت :

احلم انى خارج سجنى فى دنيا مشرقة حلوة .
لم ار نفسى فى الحلم سجينا ابدا .
لم اسقط فى الحلم من الجبل الى الهوة ابدا .

ولاول مرة منذ اكثر من سبع سنوات ، اكتشف اننى حقا « لم ار نفسى فى الحلم سجينا ابدا » . أيضا لم ار نفسى سجينا بعد الخمس سنوات التالية . والغريب اننى حلمت بالسجن بعد خروجى منه عدة مرات !

ويطلع الصباح ونستيقظ على صوت « بروجى » **اللواء** . جاء **السفاح** مرة اخرى . **ما الذى دبره فى ذلك اليوم ؟**

لقاؤنا فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٤ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٥٢)

حبيبتى

لم تكن شمس يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٩ قد أشرقت بعد حين استيقظنا على صوت « بروجى » اللواء ، ما كدت افتح عينى حتى همس وليم طانيوس فى أذنى :

ـــ المعتقلين كلهمجتمعين فى الحوش .

قلت والنوم مازال يغالبنى :

ـــ ويظهر همت وصل .
ـــ ساطلب مقابلة المامور .
ـــ تفتكر ممكن يقابلك دلوقت .. على العموم حاول .

ونادى وليم السجان :

ـــ ما فتحتش الزنزانة ليه ؟
ـــ ماعنديش اوامر .
ـــ خلينى اقابل ضابط العنبر .
ـــ لسه ماجاشى .
ـــ ايه اللى بيحصل فى الحوش ؟
ـــ كل المعتقلين قاعدين على الارض ، وحواليهم عدد كبير من السجانة شايلين شوم وبنادق ، وهمت والمامور واقفين قدامهم .
ـــ ماعندكشى فكرة ناويين على ايه ؟
ـــ يظهر انهم راح يطلعوا للعمل فى « الجبل » .

وتظل الزنزانة مغلقة علينا ، ولا نعرف ماذا يجرى فى الحوش مع زملائنا المعتقلين ، حتى الساعة العاشرة صباحا حين يأتى ضابط العنبر ويأمر بفتح الزنزانة للذهاب الى دورة المياه وللفسحة فى « طابور » الصباح . ونسمع من بعض السجانة ما حدث صباح اليوم :

كانت رياح ذلك اليوم خفيفة لكنها مثلجة ، والمعتقلون يجلســون القرفصاء ، أجسادهم شبه عارية لا يسترها سوى بعض الخرق البيضاء وظلوا جالسين هكذا اكثر من نصف ساعة ، يحيط بهم السجانة يحملون الشوم والبنادق ، ويقف امامهم مامور السجن وضباطه . ثم نفخ بروجى اللواء وجاء همت ومعه فرقة التعذيب . ثم صدرت الاوامر بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن . وساروا فى أربع مجموعات متراصة تحرسهم المدافع الرشاشة من الجانبين وتنهال عليهم الشتائم وضربات الشوم والخيزران ،

وعند بوابة السجن ، وعندما بدأ المعتقلون يخرجون طلب همت من مأمور السجن ان يوقع على « **كشف البوابة** » ، وصمت المأمور لحظة ثم نادى على الضابط **عبد العال سلومة** وكيل السجن — وكان قد نقل الى المحاريق منذ أيام — وامره ان يوقع على الكشف .. وكانت المفاجأة :

قال الضابط بصوت مسموع :

— متأسف يا افندم .. انها ليست مسئوليتى .

كان هذا الموقف من الضابط **عبد العال سلومة** بالذات ، مفاجأة لكل الزملاء خصوصا أولئك الذين تعاملوا معه فى **سجن القناطر الخيرية** . كان دائما يقوم بحملات لتفتيشهم وهدفه أن يعثر على « مطبوعات » تصلح لعمل قضية ضدهم ، وكان لا يخفى عداؤه لهم ويعلن صلته بالمباحث العامة . وكان حضوره فى أوائل نوفمبر الماضى ، قبل ايام من مجىء همت ، مؤشرا لما حدث أمس ، فهل كان يعرف ما يدبره همت ضد المعتقلين واستيقظ ضميره فجأة واتخذ هذا الموقف ؟ ولماذا تعمد أن يعلن عدم مسئوليته بصوت عال ليسمعه كل المعتقلين ؟ هل كان يريد أن ينبههم الى ما يدبر ضدهم ؟ ولماذا ؟ أم ان الامر كله كان تناقضا بين المباحث العامة وبين همت « ضابط الجيش » ثم السجون ؟ ولكن لحساب من يعمل همت ؟ ربما لحساب المخابرات العامة ؟ ومرت لحظات بعد ان وقف عبد العال سلومة هذا الموقف ، قال بعدها الجنرال همت بصوت مكسور :

— خلصنا يا حضرة المأمور .. دول مسئوليتك ..

ووقع المأمور على كشف البوابة .. بعد ان اكد مسئوليته كتابة فى الكشف .. ثم بكلمات قالها بصوت عال :

— ايوه .. دول مسئوليتى .

يخرج موكب « **المعتقلين** » من بوابة السجن . **الجنرال همت** ومعه مأمور السجن ، وفرقة التعذيب فى عربات الجيب فى المقدمة .. ثم طوابير « المعتقلين » يحرسهم جنود « الجنرال » همت **بمدافع رشاشة** .. وفى الخلف فرقة السجن تحمل المدافع والبنادق . وأخيرا وصل الموكب الى الموقع ، على بعد اربعة كيلو مترات من السجن .. كان المكان اشبه بوادى صغير يقع بين تلين من الكثبان الرملية ، وبسرعة صعد همت على الكثبان الرملية وبنفس السرعة **احاطت** فرقته الزملاء من كل جانب **بالمدافع الرشاشة** ، وتمر دقائق معدودة ينادى بعدها همت على المأمور كى ينسحب هو وضباطه وجنوده . ويصرخ **الزميل سيد عبد الله** باعلى صوته :

— يا سيادة المأمور .. نحن أمانة فى عنقك وستتحمل المسئولية .

ويصدر المأمور اوامره لضباطه وجنوده بالالتفاف حول المعتقلين والبقاء معهم . لقد تصرف فى اطار مسئوليته . ويعود همت ينادى على

المامور كي ينسحب هو وجنوده . ويتجاهل المامور نداء همت ثم يقــول بصوت أعلى من صوت همت :

ــ اسمع انت وهو .. انا عندى اوامر بضرب النار عند اى تمرد .. فاهمين .. مش عاوز اى تمرد . دلوقتى الفئوس والغلقان راح تتوزع عليكم .. مطلوب انكم تنقلوا التلال الرملية دى .. اى تقصير فى العمل راح اضرب بالنار فورا .

لم يكن تهديد المامور للمعتقلين ، فى الوقت نفسه الذى كان يتجاهل فيه أوامر رئيسه همت ، مجرد تصرف فى اطار مسئوليته فقط ، انما كانت هناك الى جانب هذا دوافع انسانية جعلته يتخذ هذا الموقف . هذه حقيقة لا تقلل من قيمتها أوامره بعد ذلك للعساكر لضرب الزملاء بالشوم والعصى ، فقد كان ذلك فى المحصلة النهائية انقاذا لهم من مجزره كان « الجنرال » همت قد دبرها لهم .

وبدأ الضباط والســجانة يقسمون الزملاء الى « مصالب » اى فرق سمل ويوزعون عليهم الفئوس والغلقان وادوات العمل الاخرى ، وهم لا يكفون لحظة واحدة عن الشتائم والضرب .

ويبدو أن همت بعد فشل مؤامرته ضد المعتقلين لم يجد سوى اوامره يصدرها للعساكر فيصرخ بأعلى صوت :

ــ العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب .. الاولاد اللى هناك دول ماشيين على مهلهم . بيتفسحوا والا ايه ؟ ولاد الــ .. ضرب الكرابيج احسن .. عاوز اسمع صراخهم .. اضربوهم زى الكلاب .

ويقول احد محدثينا من السجانة .

ــ ورغم الضرب الشديد .. لم نسمع من اى واحد منهم صرخة واحدة .

ويقول سجان آخر :

ــ ولمــا نفخ البروجي فى النفير .. ومشى اللواء .. توقف الضرب وبصقنا عليه جميعا .. المعتقلين والسجانة .

وكانت الساعة قد قاربت الرابعة بعد الظهر ، حينما عاد الزملاء الى السجن .

بعد ان غادر همت المحاريق الى القاهرة ظل الزملاء يخرجوون الى العمل كل يوم ، وتدريجيا بدأت المسألة تتحول الى طابور يومى يبدأ فى الصباح حتى موقع العمل ، وهناك كانوا يقومون بنقل التراب من مكان الى آخر .. تنفيذا للتعليمات . ومنذ اليوم الثالث لذلك اليوم المشهود ، ٨ نوفمبر ١٩٥٩ ، بدأنا نحن المسجونين نخرج للعمــل فى المــرافق العامة للسجن . الفرن ، والمخبز ، والمطبخ وبدأنا نلتقى بعدد من الزملاء المعتقلين ونسمع منهم قصصا طريفة .

الزميل **عبد الملك خليل** كانت مهمته ان يقبع فوق قمة تل عال فاذا لمح عربة متجهة نحو زملائه يصيح :

ــ بلوهام .. بلوهام ..

فينهض الجميع الى الفلقان ليحملوا الرمال .

وكانت « بلوهام » هذه من الكلمات الساخــرة ،التى تفتقت عنها روح عبد الملك خليل وهو رجل خفيف الظل . وله كلمات ساخرة كثيرة ، مثل : أي حاجة زي اى حاجة . « الحنجورى » ومعناها الكلام النظرى الذى لا معنى له . والاربعــة عشر كلمــة التى يحفظهــا المثقفون عن ظهر قلب .

ويحكى **محمود السعدني** حكايته مع الشاويش متى وقد أصبحا صديقين بعد عشرة طويلة . ذات يوم لاحظ السعدنى أن الشاويش متى حزينا مهموما فحاول أن يعرف سبب حزنه :

ــ مالك يا شويش متى ؟
ــ اصل الوادابنى اخذ الاعدادية .

ــ طيب ودى حاجة تزعل يا حضرة الصول دا ابنك يبقى عبقرى .
ــ اصل اللى مضايقنى يا سعدنى ان الواد عاوز يكمل تعليمه والحال زى ما انت عارف يدوبك على القد .

ــ يا راجل عبقرى زى ابنك لازم يكمل تعليمه واهو التعليم بالمجــان ، وربنا يساعدك لحد ما يأخذ التوجيهية .

ــ طيب وبعد الثانوية يا سعدنى .. يروح فين ؟.
ــ يروح الجامعة يا حضرة الصول .

ــ جامعة ايه بس .. وانا باستلف على ماهيتى علشان امشى حالى .. تقوللى يروح الجامعة .

ــ طبعا لازم يروح الجامعة ولد عبقرى زى ده ما تحرموش من انــه يكمل تعليمه ويروح كلية الطب واللا الهندسة واللا الحقوق واللا الاداب ويبقى مثقف .

ــ مثقف .. يا فرحتى .. طب وبعد كده ؟

ــ ييجى معانا هنا يا حضرة الصول..اهم كل اللى انت شايفهم دولجم هنا علشان بقم مثقفين .

ولم يتحمل الشــاويش متى مجرد تصور ان ياتى ابنه العزيز الى «هنا» ليعامل معاملة « **الكلاب** » وقام ليضربه ، وجرى السعدنى وجرى وراءه.وتجمعت جوقة السعدنى ــ **احمد البديني المحامى والكاتب شوقى**

عبد الحكيم والعامل نصر عبد الرحيم ــ تحمى السـعدنى من غضب الشاويش متى وتم الصلح بينهما.وعـاد السعدني والشاويش متى الى جلساتهما اليومية .

وتمر الايام .. والشهور

وتشهد الساعات الاولى لعام ١٩٦١ ضحكات صافية تخرج من أعماق اكثر الناس حبا للحياة خلال احتفالنا برأس السنة الجديدة .

احكى لك قصته فى الرسـالة المقبلة يا حبيبتى

٨ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســــالة رقم (٥٣)

حبيبتى

لا اذكر انني قبل دخولى **السجن** قد احتفلت بعيد **راس السـنة** الجديدة سوى مرة واحدة ، هى ليلة **اول يناير ١٩٥٢** ، ففى تلك الليلـة فاجأتنى زوجتى السـابقة «ميمى» برغبتها فى حضور حفلة تقيمها الجالية الايطالية بفندق « الكونتيننتال » . كنت وقتئذ اعتبر ان حضور مثل هذه الحفلات مضيعة للوقت فضلا عن انه تقليد « بورجوازى » يرفضـه « المناضلون » ! ومع ذلك فقد ذهبت «مجاملة» لها ، وحتى لا اسبب لها حرجا امام زملائها فى العمل اذا لم أذهب معها . وكانت هذه اول مرة ادخل فيها فندق « الكونتيننتال » ايضا ! ومع اننى قضيت الليلة حتى الصباح ارقص مع «ميمى» ومع غيرها من الحسناوات **الايطاليات والمصريات** ، الا اننى لم احس لحظة بالاستمتاع ، ربما بسبب وخزات «ضمير مناضل» وربما لاننى مهما يكن الامر «شرقى» يرى فى مثل هذه الحفـلات خروجا على التقاليد ، وربما لعدم رضائى غير المعلن لمراقصة «ميمى» زوجتى لاشخاص غرباء ، وربما لشعورى بالذنب لارتكابى « **جريمة** » **فى حق الجماهير** ! وعدت الى منزلى مع شروق شمس اول يوم فى العام الجديد مهموما حزينا وحرصت على أن أكتم «السر» عن زملائى حتى لا تتغير نظرتهم الى . قد تأخذك الدهشة يا حبيبتى حين أقول لك اننى بعد تلك المرة ، احتفلت فى **السجن** بليالى رؤوس اثنى عشر عاما جديدا ، وسوف تسالينى وعلى وجهك ابتسامة ماكرة ، **كيف اصبح الاحتفال عندكم براس السنة الجديدة تقليدا «ثوريا» بعد أن كان «بورجوازيا» يا فرسـان الاربعينات ؟**

حسنا .. اليك الاجابة يا ابنة الستينات :

رفضنـا يوما ومازال البعض حتى اليـوم يرفض كل ما يأتى من « البورجوازية » . وكان الاحتفال براس السنة الجديدة من بين مارفضناه فى **الاربعينات والخمسينات** ،وكان من المفروض أن نقبل مضمونه الانسانى ونرفض بعض اشكاله التى تفرغه من مضمونه . ومضمونه يتمثل فى وداع البشرية لعام حافل بالاحداث .. واستقبال عام جديد صفحاته ما زالت بيضاء .. تحمل كل واحدة منها علامة استفهام كبيرة .. حول نوع السطور التى ستملأها . وهل تكون تعبيرا عن طموح الانسان فى الحرية والاخاء والمساواة ، أم تكون سجنا جديدا لابطال الدفاع عن الحرية ؟

وكانت ليلة راس سنة **١٩٦١** هى الليلة التاسعة التى نحتفل فيهـا بمولد عام جديد ، سبقتها مناقشات مع **المأمور** .

— كل سنة وانت طيب .

ويضحك المـأمور قائلا :

— وانتم بالصحة والسلامة .. طلباتكم ؟
— ليس لنا طلبات .
— طيب طلبات زملائكم ؟
— أن تسمح لهم بساعة فرفشة .
— بسيطة .. نطلب اللواء همت بتلغراف ..
— اذا كان كده .. بلاش
— وهمه عاوزين امر بالفرفشه ؟
— عاوزين لزوم الفرفشة .
— سجاير وشاى وحلاوة طحينية ؟
— وحاجة ثانية كمان .
— ايه ؟ رقاصة ؟
— لا . لا الموجود يسد .

ويضحك قائلا :

— يسد النفس طبعا .
— ويفتحها احيانا ..
— ويفتحوا نفسهم ازاى ؟
— يتجمعوا مع بعض شوية كده .
— امتى ؟ وفين ؟
— فى صالة العنبر .. بالليل .
— كفايه .. للساعة اتناشر .

وحوالى الساعة العاشرة مساء **يوم ٣١ ديسمبر ١٩٦١ ذهب المأمور** ومعه زميلان من المسجونين الى عنبر المعتقلين . صاح السجان من داخل العنبر حين رأى المأمور :

— انتبـــاه .

وضحك المأمور وقال :

— دلوقت يفتكروا انها « **كبســـة** » .

فتح السجان باب أول زنزانة .. وصاح المأمور بصوت غليظ وهو ينظر الينا وعلى وجهه ابتسامة ماكرة :

— كله يطلع بره ..

وفتحت زنزانة والثانية ، والثالثة ، والرابعة ...

— يالله يا معتقل انت وهو ... كله يطلع بره ..

وخرج الزملاء من **زنازينهم** وهم يتساءلون فى دهشة :

ـــ ايه الحكاية ؟

ويرون مع المأمور زملاء لهم من المسجونين :

ـــ ايه الموضوع ؟

ويعلو صـــوت المأمور :

ـــ اقعدوا هنا .. على الارض .

وتزداد دهشتهم .. ويسألوننا :

ـــ فيـــه ايـــه ؟
ـــ وجايين معـــاه ليه ؟
ـــ وايه اللي انتو شايلينه ده ؟
ـــ سجاير !
ـــ شـــاى !
ـــ حلاوة طحينيه !
ـــ حلم والا علم ! ؟

ويرتفع صوت المأمور :

ـــ كل سنة وانتم طيبين .
ـــ وانت بالصحة والسلامة .
ـــ راح اقعـــد معاكم شوية ..

ويسرع السجان ليأتى بكرسى ليجلس عليه المأمور ، بينما يذهب بعض الزملاء لاحضار بطاطين من الزنازين ليجلسوا عليها . ويتسلم مسئول الحياة العامة السجاير والشاى .

ـــ سيجاره بحالهـــا ؟
ـــ وشاى ؟

ويقول مسئول الحياة العامة :

ـــ والحلاوة الطحينية .. تفطروا بيها بكره .

ويبدا الاحتفال حين يرتفع صوت الزملاء :

بلادى . بلادى . بلادى .   لك حبى وفؤادى .

بعدها يقول **الدكتور فايق فريد** كلمة شكر فيها المأمور الذى ينصرف بعد ذلك . كانت تلك هى اول مرة اقابل فيها الدكتور فائق نائب دائرتى (روض الفرج) والتى يدخل فى نطاقها شارع ابن الرشيد الذى كنت أعيش فيه . رشح نفسه عام ١٩٥٧ **ونجح باغلبية ساحقة** وحين اعتقلوه لم يفكروا حتى فى رفع **الحصانة البرلمانية** عنه ! .

سألنى عن مجدى فهمى
ـــ هل تعـــرفه ؟

ـــ عرفته من والدته .
ـــ **ازاى ؟**
ـــ كانت والدته نشيطة جدا اثناء المعركة الانتخابية . اليها يرجع الفضل فى كسب أصوات معظم سيدات الحى ، ومعها بقية عائلة مجدى .. خصوصا اخوه مصطفى وزوجته بدريه .

ويستمر الاحتفال حتى بعد الثانية عشر بقليل . ويهنىء الزملاء بعضهم بعضا بالسنة الجديدة ، ويعودون الى زنازينهم ، ونعود نحن الى عنبر (٢) لاجد الزملاء يواصلون احتفالهم برأس السنة الجديدة ونسمع أصوات الزملاء المعتقلين فى عنبر (١) يواصلون احتفالاتهم أيضـــا فى زنازينهم . وفجأة توقف الزملاء المعتقلين عن الاغانى والاناشيد وسمعنا اصـــوات مكتومة ..

ـــ ايه الحكاية ؟

وننادى على السجان ونسأله :

ـــ **دفعه جديدة من المعتقلين** وصلت دلوقت .
ـــ وبيضربوهم والا ايه ؟
ـــ المأمور وبعض السجانه نازلين فى المعتقلين ضرب .

ونتساءل فى دهشة :

ـــ ده المأمور كان لسه بيقول لهم كل سنة وانتو طيبين .
ـــ ايه اللى خلاه يضربهم وكان لسه قاعد معاهم ؟
ـــ يمكن يكون خايف ؟
ـــ من مين ؟
ـــ بيتكلم كثير عن عناصر ســـيئة ..
ـــ ويمكن خايف من الضابط **عبد العال سلومة** .
ـــ ويمكن حفلة استقبال للزملاء الجدد .
ـــ تفتكروا المأمور له صلة بالمباحث ..
ـــ المؤكد ان الضابط **عبد العال سلومة ضابط مباحث** .
ـــ ولكن ما اظنش المأمور ضابط مباحث ؟
ـــ وده اللى يخليه يخاف من سلومة .

وبعد اقل من ســاعة يعود الزملاء فى عنبر (٢) الى الغناء ونسمع اصواتهم عالية ، وضحكاتهم أعلى .

ـــ كانت علقـــة بسيطة .
ـــ علشان ما ينسوش ..
ـــ ولا يتعزلوا عن الواقع ..

وعرفنا فى صباح اليوم التالى أن **الدفعة الجديدة من المعتقلين** ممن قضوا السنة الماضية فى **السجن الحربى** نظرا لان معظمهم من المجندين والضباط ومعهم أيضا عشرون من أبناء **قطاع غزة** ، منهم الشـــــاعر

الفلسطينى **معين بسيسو** وعبد **القادر يسن** ومدير التعليم فى قطـــاع غزه . وعرفنا أن هناك معتقلين جدد ألقى القبض عليهم ، وأنهم ومعهم الزملاء الذين تمت محاكمتهم وصدق على احكامهم يقيمـــون الآن فى معتقل **اوردى ابو زعبل** . وان ما تم فى **الواحات** على يد همت ونرتته تم ايضا فى **أوردى أبو زعبل** . وانهم يخرجون للعمل فى الجبل ويتعرضون للتعذيب الوحشى كل يوم اثناء خروجهم للعمل ، أو اثناء تواجدهم فى العنابر مساء . وبالاضافة الى ذلك يجمعـــون كل يوم فى الصـــباح للقيام بطابور **رياضى** لمـــدة نصف ساعة حيث يطلب منهم أن يهتفـــوا هتافات معينة . وسمعنا عن الموقف البطولى **للدكتور اسماعيل صبرى** . حين طلب منه **حسن منير** قائد المعتقل ان يغنى اغنية « جمـــال يا مثال الوطنية » .. وقال له :

— غنى يا ولد .

كان الزميل **اسماعيل صبرى** يقف فى الصف الاول ، خرج منه وتقدم خطوات الى الامام ، وقال بصوت عال :

— نحن نرفض أن نغنى تحت ظل الرشاشات والاسلحة والعصى ، نرفض أن نغنى بالامر . أى اغنية وطنية مكانها الخارج ، حيث **الحـــرية** . نحن كوطنيين نتشرف بغناء اغانى وطننا الحبيب ولكننا نرفض أن نغنيها تحت ظل **الارهاب** .

وتنهال على **اسماعيل صبرى** ضربات الشوم والعصى ، حتى يسقط على الارض وراسه يسيل منه الدماء .. والضرب لا يتوقف .. ولا تخرج صرخة واحدة من فم اسماعيل .

ونعرف خبر استشهاد **الدكتور فريد حداد** ، الطبيب الباطنى المشهور الذى يحبه كل فقراء شبرا الذين كان يعالجهم بالمجان .

حين القى القبض عليه وذهبوا به الى **ابى زعبل** ضمن مجموعة من الزملاء .. جردوه من ملابسه والقوا به أمام **حسن منير** قائد المعتقل .. ساله الضابط يونس مرعى :

— اسمك ايه يا ولد ؟
— الدكتـــور فريد حداد .
— دكتور يا ابن (..) اضربه يا عسكرى

وانهال عليه العسكرى ضربا بالشوم والعصى حتى حطموا راس البطل وجسده .. ذهب وهو يردد كلمات **ناظم حكمت** :

وساذهب لا استشعر لوعة .

الا لوعة اغنيـــة لم تكمل .

بعض السفاحين هم الذين ذهبوا بلوعتهم .. **اسماعيل همت** انتقمت منـــه السماء في حادث سيارة ، **وعبـــد اللطيف رشـــدى** الذى قتل **شـــهدى عطية الشـــافعى** قتلته رصـــاصة مســـجون خرج من الليمان لينتقم منـــه بعد كل العذاب الذى لقيه على يـد ذلك الضـــابط الســـفاح .

وفى المساء بينما كنا نبكى فى صمت شهداءنا فى ذلك اليـــوم — **فريد حداد ، ومحمد عثمان ، ورشدى خليل ، وعلى متـــولى الديب** — كان رمزى يوسف الذى يقوم يوميا بالاستماع الى الاذاعات العالميـــة ينقل الينا اهم التعليقات السياسية عن : الخلاف بين قادة **حزب البعث** وبين **الرئيس جمال عبد الناصر** ، والاتفاق المصرى الســـوفيتى ببنـــاء المرحلة الثانيـــة للســـد العالى ، وتحليق فالنتينـــا رائدة الفضـــاء السوفيتية بمركبتها فى الفضاء ، وبينمـــا كان الزميل المسئول عن نشرة الاخبار اليومية يقوم بكتابتها كى تذاع على الزملاء فى موعـــدها اليومى المعتـــاد ، وقبل أن نبدأ فى مناقشة ما وصلنا من أخبار ، نسمع صوت مفتاح يوضـــع فى باب الزنزانة ، والمأمور يقف على بابهـــا ومعه سجان وهو يصيح :

— ماوز دكتور .. حد فيكم دكتور ؟.
— ايوه .. الدكتور شريف حتاته .. وصلاح حافظ ..

ويذهب المأمور مهرولا الى الزنزانة المجاورة .. ويصيح :

— شريف .. صلاح .. تعالوا حالا ..
— خير فيـــه ايه ؟
— فيـــه اطباء تانيين ..
— ايوه .. **حمزه البسيونى . مختار السيد ، شكرى عازر ، رزق عبد المسيح . عبد المنعم عبيد .**

ويقول المأمور :

— تعالوا معـــايا .. وروح انت يا سجان انده الدكاترة دول وحصلنى على البيت ..

وتذهب مجموعة الاطباء من المسجونين والمعتقلين مع مأمور السجن الى مسكنه الذى يقع بجوار السور الخلفى للسجن .

ويقول لهم المأمور فى حزن يمزق القلوب :

— ولادى راح يموتوا .. انقذوا لى ولو واحد بس ، ولد واحد ..
— اطمئن .. المسألة مش خطيرة للدرجة دى ..
— صحيح يا أولادى .. صحيح ؟ .. تقا معاكم ويساعدكم ..

اطفال المأمور تتراوح أعمـــارهم ما بين ٥ سنوات و ٣ سنوات . كانوا يلعبون فى حجرة نوم والديهما اللذين كانا مشغولين عنهم حيث كانوا

فى حديقة « الفيلا » . وتصادف ان ذهبت الام الى غرفة النوم لتحضر كتابا لزوجها كان يقسرا فيه ، فوجدت الاطفال ملقين على الارض فى حالة **اغماء** ، وعلبة حبوب الضغط ، التى يستعملها المأمور ملقاة على الارض ، بعض حباتها ملقاة الى جوارهما ، ومعظم ما كان فى العلبة من حبوب كانت فى جوف الاطفال . **وصرخت الام** .. وجاء الاب على صراخها .. ثم هرول مسرعا الى السجن يطلب نجدة الاطباء المسجونين والمعتقلين الذين هبوا سريعا لانقاذ اطفاله بعد ان عملوا لهم غسيل معدة بالوسائل البدائية ، وسهروا الى جوارهم حتى الصباح .

— الحمد لله .. الاولاد كويسين قوى ..
— اشكركم يا اولادى .. ربنا انقذهم على ايديكم .
— خللى المدام تحضر لهم فواكه وشوية خضار طازة ..

وتسأل الام :

— خضار زى ايه ؟
— عصير طماطم .. خضار مسلوق ..

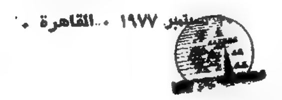
وتقول الام بحسرة

— مفيش حاجة من دى ابدا ..
— ممكن الفواكه تسد .. ان كان فيه .
— فيـــه برتقال ..
— كويس قوى .. ولمون كمان .

وبينما كان الزملاء الاطباء يجلسون على « كراسى » فى حجره الصالون .. يدخنون **السجاير** ويشربون **القهوة** ، كان الحوار يجرى بينهم وبين المأمور عن ندرة الخضار الطازج فى بلدة « **المحاريق** » بسبب صعوبة المواصلات مع المناطق المجاورة التى يزرع بها خضروات وفواكه . وكيف ان الواحات الداخلة التى تبعـد حوالى ٢٠٠ **كيلو متر** عن الواحات الخارجة غنيــة بالفواكه والخضـــار ، ولــكن لا توجد وسائل نقل حديثة الا عربة واحدة تاتى كل يومين محملة بالخضر والفواكه التى « يلهفها » موظفو المحافظة ولا يتركون شـيئا للاهالى . ويقتــرح الزملاء عمل مزرعة كبيرة يديرها ويشرف عليها نزلاء السجن من مسجونين ومعتقلين الذين يزيد عددهم عن ٤٠٠ .

وتبدأ قصة المزرعة .. احكيها لك فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

سبتمبر ١٩٧٧ .. القاهرة .



الرســـــالة رقم (٥٤)

حبيبتى

كان احد المشروعات « **الضخمة** » التى كتبت عنها الصحف كثيرا هو زراعة الواحات الخارجة واطلقوا عليها اسم « **الوادى الجــديد** » . ومن القاهرة الى الواحات ذهب عدد كبير من الخبراء والمهندسين لدراسة هذا المشروع . قالوا كلاما كثيرا وكتبوا تقريرات أكثر ، واضافت الصحف الى ما قالوه وما كتبوه . صفحات كاملة تبشر « **بالخير الوفير** » . كان ذلك منذ عام مضى ويزيد عليه بضعة اشهر منذ جئنا الى سجن **المحاريق** . وفجأة توقفت الصحف عن الكتابة حول هذا الموضوع ، ثم سمعنا اخبار **فشل** المشروع ، وقالوا أن السبب هو قلة **المياه الجوفية** .

كان من الطبيعى ان يضع الزملاء المهندسون كل هذا فى اعتبارهم وهم يخططون لاستصلاح وزراعة ١٠٠ **فدان** منالارض فىالمنطقة التى تقعبين السجن وبيوت الضباط ، وبها بئر واحد للمياه . سأل المامور زملاءنا المهندسين وهم يعرضون عليه المشروع :

ــ هل تنجحوا فيما فشلت فيه الحكومة .

وقال الزملاء بثقـــة :

ــ النجاح مضمون ١٠٠٪ ..
ــ ليس عندى ما اقدمه لكم ..
ــ لا نحتاج سوى لعدد من الفئوس والغلقان .

ويضحك المأمور قائلا ..

ــ وآهى الحمد لله متوفرة . بتستعملوها فى الجبل .
ــ هذه المرة سنستعملها فيما هو مفيد .
ــ هل لديكم خبــرة ؟.
ــ **عبد المنعم شتلة وحسين طلعت** مهندسان زراعيان .
ــ والافندية المثقفين يعرفوا يزرعوا ؟.
ــ هم رأس مالنا ، وبيننا عدد من الفلاحين .
ــ والبذور ؟
ــ عندنا شوية من أيام جناح .. ونشترى **كمان** .
ــ مفيش ميزانية للمشروع ده .
ــ لا تحتاج لمليم واحد من الحكومة .

ويضحك المامور ..

ـــ وهيه يعنى راح تديكو حاجة ؟

بعد ان وضع الفنيون الخطة ، رفع السياسيون شعار « **طبق خضار طازج** » لكل زنزانة يوميا . ولم يكن الزملاء فى حاجة الى تحميسهم أو توعيتهم .. فكلهم سياسيون ، وكلهم يلمسون الواقع ، حاضره .. ضعف وهزال وصفرة على الوجوه وامراض منتشرة ، حصيلته حتى اليـــوم : سقوط **على متولى** العامل بشبرا الخيمة بعد أن اصيب بدوسنتاريا قاتلة ، والمهنـــدس **رشدى خليـــل** مات فى زنزانة مظلمة بعـــد أن أصـــيب بحمى قاتـــلة . ومســـتقبل هذا الواقع هو المزيد من امراض تنتشر بين الزمـــلاء لتفتك بعـــدد منهم . لهذا كان حماس كل الزملاء للعمـــل فى المزرعة دفاعا عن ذاتهم وصمودا فى وجه الموت البطىء الذى بدأ يؤتى ثمـــاره .

وبدأ الزملاء يعملون فى المزرعة بحماس وكلمات ناظم حكمت تملأ قـــلوبهم :

ويكبر الاصرار فى قلوبنا يردد
لابد أن نعيش .

كانت المزرعة مقسمة الى ثلاثة اقسام ، قسم **للمسجونين** ، وآخر **للمعتقلين** ، والثالث **للاخوان المسلمين** . وكان التنافس بين المـــزارع الثلاثة على اشده ، وقبل ان تنتهى عملية استصلاح الارض شهدت مزرعة المعتقلين ماساه هزليه. .ففى فترة الظهيرة بينما كانوا يستظلون بظلال بعض شجر الخروع المجاور لبيوت الضباط من وطاة الشمس القاسية وكانت الاشجار محملة بثمار الخروع ، قال **ظريف عبد الله** المحامى وهو يلتهم ثمرة من تلك الثمار لمن حوله :

ـــ لذيذ .. طعمه زى اللوز .

وتساءل الزملاء ..

ـــ حقيقى لذيذ ؟.
ـــ مفيش منـــه ضرر ؟

وافتى الدكتور **مختار السيد** :

ـــ اكل الخروع صحى .

وراحت كل صيحات **عم نوح فلاح** « البحيرة » وتحـــذيراته مع الرياح :

ـــ يا زملاء .. الخروع « لا تاكله الحمير » !

ويزداد عدد الزملاء الذين يأكلون الخروع .

ويصرخ عم نوح :

— **يا ناس يا مثقفين .. راح تموتوا ..**

ولا فائدة . **هل يفهم الفلاح اكثر من الطبيب ومن المحامى ؟** . وبعد ما لا يزيد عن ساعة كانتتكل ثمار شجر الخروع قد غابت فى بطــون الزملاء . **هــل استبد بهم الجوع الى الحد الذى يلغى عقولهم ؟**

لم نكن نحن المسجونين نعــرف شيئا مما حــدث عند المعتقلين فى ظهيرة ذلك اليوم . وفى المساء بعد أن اغلقت علينا الزنازين ســمعنا « خبط » على الابواب يأتى من عنبر (٢) :

— ماذا حــدث ؟
— كبسة جديدة ؟
— وايه المناسبة ؟

ويقول السجان :

— المامور ومعاه عدد من الضباط والسجانه دخلوا العنبر ..
— بيضربوهم ؟
— ماشفتش مع السجانة عصى .

ونســمع صوتا ينادى :

— يا سجان افتح على **الدكتور شريف حتاته** وخليه ييجى يكلم المامور فى عنبر (٢) .
— لازم حد عيان ؟

ويقول **وليم طانيوس** « مسئول الادارة » بغضب :

— حاجة غريبة .. علشان واحد عيان يعملوا كل « الدوشة » دى !
— اصبر يا وليم لما تشوف ايه الموضوع ..
— حيكون ايه يعنى .. زملا هايفين ..
— ضرورى تــكون حاجة تستحق .

ويخبرنا السجان الذى حضر لاصطحاب الدكتور شريف حتــاته الى عنبر (٢) عن حالات تسمم كثيرة بين الزملاء .

— تسمم ؟ .. اكلوا ايه ؟
— حبوب زيت الخروع .

ونسمع الفصل الاول من القصة التى حكيت لك عنهــا يا حبيبتى فى هذه الرسالة . وكان التهام الزملاء المعتقلين **لحبوب زيت الخروع !** ثم نسمع من الدكتور شريف حتاته بعد عودته من عنبر (٢) مع « وش » الفجر الفصل الثانى من القصة :

بعد ساعة من اغلاق العنبر والزنازين ، بدأ عدد من الزملاء يحسون **بالام حادة** فى امعائهم . وعدد أصيب باسهال شديد ثم قىء . كان من

الواضح ان اعدادا كبيرة من الزملاء قد اصيبوا بالتسمم . وبدأ الـذين لم يسقطوا بعد يدقون الابواب يستنجدون بالسجانة كي يفتحوا ابواب الزنازين . ومع كل لحظة تمر كان يسقط اكثر من زميـل فاقد الوعي وقد انهكه الاسهال والقيء . وعندما وصل الخبر الى المأمور حضر بسرعة ومعه قوة السجن ، وفتح العنبر والزنازين التى تحولت بسرعـة الى مستشفى ميدان ، وبدأ الزملاء الاطباء ــ وكان منهم عدد كبير لم يأكل حب الخروع ــ ومعهم الطلبـة فى السنوات النهائية فى كلية الطب ، باجراء بعض الاسعافات ، وذهبت عربة السجن الى بلدة المحاريق لتحضر بعض الادوية .

وحتى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى كان الموقف خطيرا . حوالى نصف عدد المعتقلين يواصل القيء والاسهال ويصل ببعضهم الى مرحلة خطيرة فى حين كان هناك عدد آخر لم يخرجوا للعمل فى المزرعة وهؤلاء كانوا يقومون بخدمة المرضى .

وامتلا العنبر بالحركة والصراخ والتأوهات تماما كما يحـدث فى مستشفى ميدان حرب . وقرر الاطباء نقل ٧٠ زميلا على الفـور الى مستشفى الخارجة فقد كان نبضهم ضعيفا ودخلوا فى مرحلة الخطر ، بينما اجـرى للاخرين عمليـة غسيل للمعـدة فضلا عن بعض المضادات للتسمم .

وظل السجن كله حتى ظهر اليوم التـالى فى حالة حـركة دائمة ، لانقاذ الذين كانوا على حافـة الموت وظلوا فى غيبوبة وامكن انقاذ حياتهم .

كان تأثر المأمور « . . . » بما حـدث كبـيرا ، وقام بتنفيـذ كل ما نصح به الاطباء . قام بشراء كميات كبيرة من الطعام لهم واصـدر اوامره بعدم خروجهم الى العمل فى المزرعة حتى يتم شفاءهم تماما . وبعد ان تم شفاء المرضى من المعتقلين خرجوا جميعا للعمل فى المزرعة وهم اكثر حماسا .

واسـتمر العمل فى استصلاح ارض ١٠٠ فدان ما يقرب من ستة اشهر ، بعدها بذرنا الحبوب وانبتت ثمارا يانعة . طماطم مرملة وخيار شديد الاخضرار ، وقته حلاوتهـا ملحوظة ، وفـول اخضر ، وفجل وجرجير ، ومن اصناف الفواكه ، بطيخ ، احسن من « الشيليان » وشمام « فشر » الاسماعيلى . كانت المزرعة حتى آخر يوم لنا فى السجن تغطى احتياجاتنا نحن والعساكر والضباط ، وكنا نعد اقفاصا من الخضر والفاكهة كى يرسلها المأمور باسم نزلاء السجن وموظفيه المحـافظ وموظفى المحافظة . وبرامت عديدة جاءت وفود من موظفى مصـلحة السجون ومن المهندسين الزراعيين فى الواحات لزيارة المزرعة التى اشتركنا بانتاجها فى معـرض زراعى اقيم بالواحات وحصـلنا على الجـائزة الاولى .

ولاكثر من ثلاث سنوات كان نصيب الفرد من نزلاء السجن وموظفيه لا يقل عن نصف كيلو يوميا من الخضار الطازج والفاكهة ، ومن ثلث كيلو من الخضار المطبوخ من البازلاء ، والسبانخ ، والملوخية والرجلة والفول الاخضر والفاصوليا الخضراء . كما قام الفنيون بتجفيف الفول الاخضر لعمل فول مدمس وودعنا الى الابد « السوس المفول » واصبح العدس في خبر كان وكنا احيانا ناكله « تحريشة » !

كان الزميل **محمود المستكاوي** هو قائد المزرعة على الرغم من انه مهندس معماري وليس مهندسا زراعيا . فهو بشهادة المهندسين الزراعيين **عبد المنعم شتلة وحسين طلعت** افضل من يتولى قيادة المزرعة لما يملكه من قدرة على التعامل الانساني مع الزملاء ، ومثابرة ودأب على العمل ، وكان الزميل لمعي يوسف نائبه ، وكان الزميل المحامي حسين عبد ربه يشرف على جمع الزملاء وتوزيع العمل عليهم في المزرعة بكفاءة كبيرة .

ذات يوم اقترح الزميل **لمعي يوسف** عمل حمام سباحة ! تصوري يا حبيبتي .. حمام سباحة في قلب الصحراء !

- هل هذا معقول ؟
- لا يوجد مستحيل .
- اذن نبدأ .

وبعد ايام بدأ عدد من الزملاء الذين تطوعوا لبناء **حمام السباحة** العمل بحماس . وقبل أن نضرب أول فأس في الارض سمعنا من الزميل **محمود المستكاوي** محاضرة قيمة عن المشروع :

- هذه العين الجوفية اعلى من مستوى الارض المزروعة بثلاث امتار ، والمياه التي نستخدمها في ري الارض تنزل اليها من هذا العلو .
- حسنا ..
- ونحن نضطر الى تصريف المياه في الصحراء احيانا .
- جميل .
- هذه المياه علينا ان نستفيد منها في امرين . الاول ري الارض ، والثاني في الاستحمام فيها .
- مدهش .

ويتقدمنا الزميل **فوزي حبشي** الى قطعة ارض تجاور الارض الزراعية مباشرة ، ويقوم برسم مربع ١٠٠ متر في ٥٠ متر . ويقول :

- نحفر هذا المربع بحيث يكون قاعة في نفس مستوى الارض الزراعية . ثم نعمل مجرى من العين حتى هذه الحفرة لتجرى فيها المياه بشكل دائم . نروى بها الارض حين يحتاج الامر ، ونستحم فيها في غير اوقات الري .

ـــ عظيم .
ـــ يبقى بعد ذلك شىء مهم واساسى ، تبليط قاع الحمام وحيطانه .
ـــ وده يتعمل ازاى
ـــ فرقة متطوعين يأتون بحجارة بيضاء من هذا الجبل .

ويشير الى جبل يبعد عن المزرعة باكثر من كيلومتر .

ويقول ضـــاحكا ..

ـــ فيـــه متطوعين ؟

واقول ضـــاحكا :

ـــ كل السواحلية متطوعين .
ـــ اشمعنى ؟
ـــ همه الســـباحين .
ـــ واللى عاوز يتعلم السباحة .
ـــ يتطـــوع ..

وعنـــد فتح باب التطوع .. يتقدم أكثر من ١٠٠ زميل لبناء حمام السباحة فى غير أوقات العمل الرسمية ، أى عمل اضافى ، والطريف أن كل الزملاء بلا استثناء أرسلوا الى **أهاليهم** بعد يوم واحد من بدء العمل فى حمام السباحة يطلبون « **مايوهات** » !

ـــ راح يقولوا علينا مجانين .
ـــ او راح يسبحوا فى السراب .
ـــ أو فى الـــكثبان الرملية .
ـــ نحكى لهم على المشروع .

وبعـــد ثـلاثة شـهور من العمل المتواصل تم بناء **حمام للسباحـــة** لا يختلف كثيرا عن اى حمام سباحة فى **نادى الجزيرة** ! او **النادى الأهلى** ! مياهه جارية باستمرار ، وله أربع سلالم ، وله « منط » ايضا . كان ينقصه شىء واحد فقط :

ـــ ايه هـــوه ؟
ـــ ما يبقى بعد توفر الخضرة والماء .
ـــ دا الواحد يقعد هنا على طول .
ـــ واذا طلع مش وجه حسن ؟
ـــ نطفش فى الصـــحرا .

وذات يوم ـــ بعد انتهاء العمل فى حمام السباحة ـــ اعلن الزميل **حسين عبد ربه** عن حفلة تقام غدا صباحا لمناسبة افتتاح الحمام . عشرة زمـــلاء ـــ كنت أنا من بينهم ـــ يرتدون **المايـــوهات** ويقفون على حـــافة الحمام فى وضع الاستعداد **للسباحة** ، وعلى الحافة المقابلة وضعت منضدة عليها كميات من الطماطم ، والخص ، والبطيخ والشمام ، والى جوارها

يقف الزميل محمود المستكاوى وبعض الزملاء . وحول الحمام نجمع الزملاء والسجانة وبعض الضباط ليشهدوا مسابقة السباحة . ينفخ الزميل **لمعى يوسف** فى الصفارة ويقذف العشرة زملاء انفسهم فى مياه الحمام ، يتسابقون .

أجد نفسى فى المقدمة . يرفع المستكاوى يدى :

ــ اسكندرية تكسب .

ويصيح بعض الزملاء :

ــ ده تحيز .

ويضحك المستكاوى :

ــ انا يا خويا مش اسكندرانى .

ــ لكن حلتى .

ويعلق محمود ضاحكا :

ــ فى السياسة ممكن .. لكن السباحة **لا** .

ومنذ ذلك اليوم حتى يوم مغادرتنا سجن « **المحاريق** » كان معظم الزملاء يذهبون الى المزرعة يحمل كل منهم « **الفلق والفاس** » فى يد ، وفى اليد الاخرى **يحمل** « **المايوه** » وحول رقبته فوطة . اكثر من ٥٠ **زميلا** من الذين كانوا **لا** يعرفون السباحة تعلموها هناك .. **فى قلب** الصحراء !

وذات يوم .. عند عودتنا من المزرعة ، سمعت المهندسين **فوزى حبشى ومحمود المستكاوى** يتحدثان عن مشروع جديد . **بناء مسرح** . وبعد أيام بدأ العمل لبناء مسرح على الطراز الرومانى .

أحكى لك قصته يا حبيبتى فى الرسالة المقبلة .

١١ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٥٥)

حبيبتى :

فى صباح ١٢ **يناير ١٩٦٢** صـــدر فى سجن « المحاريق » العدد الاول من مجلة الحائط « **المسرح** » . على الصفحة الاولى كتبت هيئة التحرير افتتاحية العدد الاول « **لماذا تصدر المسرح؟** » .

وكتب الزميل **حسن فؤاد** « رئيس التحرير » كلمة يستحث فيها الزملاء لبناء المسرح بسرعة حتى يمكن تقديم أول عرض مسرحى عليه فى يوم المسرح العالمى الذى يوافق ٢٧ **مارس ١٩٦٢** . وداخل برواز نشر على نفس الصفحة خبر عن عرض مسرحية « العتمة » للزميل **شـــوقى عبد الحكيم** واخراج **الفنان داود عزيز** . وعلى الصفحة الثانية نشرت المجلة رسما لمشروع المسرح الرومانى من تصميم الزميل المهنـــدس **فوزى حبشى** الذى كتب كلمة يشرح فيها المشروع وطريقة تنفيذه واحتياجاته الملحة ، اهمها : صنع **٥٠٠ الف طوبة** لبناء كواليس المسرح . وحفر مساحة من الارض **٢٠٠ × ٥٠** متر وبعمق ٢ متر فى المتوسط . وقال انه بامكان **١٥٠** زميلا ان ينجزوا هذا المشروع الكبير فى الموعد المحدد اذا ســار العمل فى البناء بمعدل ٨ ساعات فى اليوم . وعلى الصفحة نفســها نشر خبر يقول ان « مسئول الحياة العامة » قرر ان يخصص علبتين سجاير بلمونت « لارج » واحدة لزملاء « **الزنزانة** » الذين يسجلون أعلى رقم فى عدد الطوب الذى يصنعونه ، والثانية لزملاء . « **الزنزانة** » الذين يسجلون اعلى رقم فى عدد « **الغلقان** » التى يحفرونها فى أرض المسرح . وعلى الصــفحة نفســها نشرت ملحوظة تقول أن العمـل فى بنـاء المسرح تطوعى ، وبالتـالى يجب الا يـكون على حســاب الاعمـال الاخرى التى يقوم بها الزملاء فى المزرعة والمرافق العامة .

كانت المشكلة الاساسية امام الزملاء المهندسين هى مشكلة الطوب وقاموا بعدد من التجارب ولكنها لم تؤد الى النتيجـة التى يطلبونهـا وهى صلابة الطوب ، وجاء الحل على يد **الفلاحين** ، الزميل **محمود شطا** عامل النســيج والقــائد النقابى عاد الى اصــوله الفلاحيــة فقــدم الحل . تراب الصحراء + طين الصلصال الموجودة بكثرة + تبن = عجينة متماسكة اذا جفت فى الشمس تكتسب صلابة . وبالفعل أجريت تجربة ونجحت نجاحا كبيرا . كانت صلابة الطووبة لا تقــل من صلابة الطوبة المحروقة .

وبدأ العمل ، خمس فرق فى كل « **زنزانة** » ١٠ زملاء يكون المجموع ٥٠ زميــلا عليهم أن يقــوموا بعمل الطوب على أن يكون لــكل فرقة

« المعجنة » الخاصة بها ــ خلطة التراب والطين والتبن ــ ومع كل زميل قالب الطوب « الخشبى » يضع فيه من « المعجنة » ثم يضعها تحت اشعة الشمس لتجف . وعلى كل « **زنزانــة** » أن تنظم العمل « كفريق عمل » لتقديم أكبر قدر من الانتاج . وخمسة « **زنازين** » أخرى بها **٥٠ زميلا** يقومون بحفر أرض المسرح ويلقون بالتراب قريبا من « المعاجن » .

وفى صباح اليوم التالى صدر **العدد الثانى** من مجلة « المسرح » من صفحة واحدة . نشر فيها كلمة على عامودين تعلن بدء العمل فى بناء المسرح وتدعو الزملاء الى التنافس ، ليس فقط من اجل الحصول على علبة السجاير البلمونت ، ولكن ايضا حبا فى المسرح ، وفى بقية الصفحة نشرت تحت عنوان « قائمة الشرف اليوم » أرقام « الزنازين » واسماء الزملاء فى كل «زنزانة» .. وتركت خانة « عدد الطوب » و «عدد الغلقان » خالية حتى غروب شمس اليوم لتملأ .

وفى اليوم الاول سجلت « **الزنزانة** » التى يسكنها **محمد شطا** وزملاؤه الرقم القياسى فى عدد الطوب الذى انتجته . وكان الفرق بينهما وبين « **الزنزانة** » الثانية اكثر من ٢٠٠ طوبة وبين « **الزنزانة** » الاخيرة أكثر من ٥٠٠ طوبة ، ويقول محمد شطا ضاحكا وهو يتسلم الجائزة :

ــ ايادى خشنة مش ناعمة .
ــ بكره تخشن يا ابو عنتر .

كان العمل يجرى بنشاط من أجل انجاز مشروع بناء المسرح .

وكانت الصدفة وحدها هى التى حكمت أن يبدأ عرض مسرحية « العتمة » **لشوقى عبد الحكيم** فى صالة عنبر (٢) فى نفس اليوم الذى بدأ فيه بناء المسرح الكبير . صعوبات كثيرة كانت أمام مخرج المسرحية **داود عزيز** . « الكواليس » كانت زنزانة فى نهاية العنبر ، يرى الجمهور الممثلون يدخلون اليها ويخرجون منها . والاضاءة لا يمكن التحكم فيها . ولابد من أن يقف هذا عند زرار لمبة ، وآخر عند زرار غيره ، وثالث .. وهكذا .. وبين الحين والحين تسمع صوت المخرج ..

ــ اطفى .. (١)
ــ ولع (٢)
ــ ولع (٣) و (٤) .
ــ اطفى (١) و (٤) .

كان المخرج أكثر اهتماما بالشكل فهو فنان تشكيلى ، وكان المؤلف يشد شعره فهو يريد أن يصل المضمون الى المتفرجين الجالسين على « البلاط » يتحملون لسعات برد يناير تارة ، وعدم فهمهم ما يرونه من لوحات فنية فى نظر المخرج تارة أخرى ، ولا معنى لها فى نظرهم ونظر

المؤلف . الطريف في هـــذه المسرحيـــة أنها اثارت مناقشة واسعة بين انصارها وهم المؤلف والمخرج وانا ــ ربما لتعاطفي مع المؤلف ورغبة في تشجيعه فقد كانت هذه هي **أول اعماله** المسرحية ــ وبين كل الزملاء . لقد استمرت هذه المناقشة اكثر من ستة شهور كاملة ولم يكسب اى من الفريقين المتصارعين نقطة واحدة من الفريق الاخر .

فهل كان ذلك احد العوامل التى كانت تحفز الزملاء للعمل باقصى جهدهم من اجل بناء المسرح في اقصر وقت ممكن ؟ من المؤكـــد أنهـــا كانت كذلك فالعروض المسرحية التى شاهدها الزملاء يوم الاحتفال بيوم **المسرح العالمي عام ١٩٦٢** ثم في خلال السنوات التالية حتى خرجنا من السجن في **عام ١٩٦٤** ، اثارت مناقشات غنية بين الزملاء وعلى صفحات مجلة « المسرح » وكشفت عن مواهب عظيمة ، الزميل **على الشريف** الذى قام بدور عظيم في فيلم الارض . والزميل **أحمد حجازى** الذى قام بادوار مختلفة في عدد من الافلام . **ومحمد حمام** صاحب الصوت الدافىء الذى يشدك الى اعماق الريف ويجو لبك في انحاء النوبة ، وشجع **شوقي عبد الحكيم** كى يستمر في كتابة المسرحيات بعد مسرحية « المتمة » فكتب مسرحيات حسن ونعيمة وشفيقة ومتولى ، والشبابيك ، وكتب روايـــة « أحزان نوح » واضاف **فريد فرج** الى مسرحياته مسرحية **«حلاق بغداد»** التى كتبها في السجن ، وكتب **صلاح حافظ** مسرحية « الخبر » **وطوسن كيرلس** كتب ثلاثة مسرحيات زجلية . وكتب **لويس بقطــر** مسرحيـــة « الاستنكار » . وكان **رمزى يوسف** اكتشافا جديدا ، قدم في ســـجن « جناح » شخصية كاريكاتيرية **« الباشمهندس »** وهذا الباشمهندس تاجر صغير تتجمع فيه كل تناقضات البورجوازية الصغيرة ، وقام **رؤوف نظمي** بتطويرها الى مسرحية من فصل واحد قدمها على المسرح الرومانى بسجن « المحاريق » ، كما قدم **حسن فؤاد** « بيت الدميـــة » لابسن ، وفصلا من « ماكبث » .

ومنـــذ تم بناء المسرح كنا نقـــدم عليـــه مسرحيات في المناسبات المختلفة ، في الاعياد ، وفي أعياد الثورة ، واعياد ميـــلاد بعض الزملاء احيانا . وكان مأمور السجن وضباطه وجنوده **يحضرون تلك الحفلات** ، يصحب بعضهم عائلاتهم معهم . وكثيرا ما حضر **محافظ الوادى** وكثير من الموظفين هم وعائلاتهم . وكان مشهد بعض الاطفال الذين كانوا يحضرون مع آبائهم من موظفي « الخارجة » وهم يجلسون مع الزملاء أحيانا ، ويقومون بالقاء بعض الكلمات على خشبة المسرح احيـــانا ، من المشاهد الانسانية التى تركت آثارها في قلوب الزملاء . مجموعة من هؤلاء الاطفـــال كانوا يسمون **صلاح حافظ** « بابا صلاح » الذى قدم لهم من خلال « الاراجوز » ما كان يشد انتباههم طول الوقت ، وكثيرا ما كانوا يطلبون الاعادة .

ولم يكن المسرح مخصصا لعـــرض المسرحيات واقامة الحفـــلات فقط وانما كان كذلك قاعة للمحاضرات والمناظرات . الزميل **عادل حسين** قدم بعد **اجراءات يوليو ١٩٦١** عددا من المحاضرات الاقتصادية القيمة

كان يدلل بها على صحة وجهة نظر « حدتو » وقام **الدكتور فوزى منصور** بتقديم عدد مماثل من المحاضرات فى نفس الموضوع يؤكد من خلالها صحة الخط السياسى « للحزب المصرى » . وكان ذلك تقليـدا جديدا فى الحوار بين « حدتو » و « الحزب المصرى » . وقدم **أحمـــد طــه** سلسلة من محاضرات عن الحركة النقابية فى مصر ، وكذلك **محمد على عامر** الذى قدم لنا خبرته فى الحركة العمالية المصرية . كمـا قــدم **محسن الاعسر** تجربة الكفاح المسلح فى **القنـــال عام ١٩٥١** والمقاومة الشعبية خلال العدوان الثلاثى . وقــدم الزميل **محمــود شندى** اشعارا كثيرة نشرها بعد خروجه من السجن .

لقد شهدت الفترة من أواخر عام ١٩٦١ حتى ابريل **١٩٦٤ فى سجن المحاريق** نشـــاطا فنيـــا وثقافيـــا وسياسيا وفكريا واسعا .. ربما لم تشهده أى بقعة فى مصر طوال تاريخها الحديث . غير أن الحوار الفنى والثقافى كانت حصيلته هائلة ، بينما لم تكن حصيلة الحوار السياسى اكثر من صفر . واسوق اليك يا حبيبتى بعض الامثلة :

فى العمل الفنى ، كان **وليم اسحق وداود عزيز ومجــدى نجيب ومحمد المهــداوى وسعيد عبد الوهاب وسعيد عارف** وهم فى « تنظيم » واحد يتعاونون مع **حسن فؤاد وصبحى الشارونى واحمد بيكار وزهدى** وهم فى «تنظيم» آخر ، بروح خالية من العقد التنظيمية ، فاقاموا معارض للفن التشكيلى معا ، ونظموا محاضرات قيمة رفعت من مستوى ثقافتنا فى التصوير والنحت والفن التشكيلى .

وفى العمل الثقافى ، قام عدد من ابرز المثقفين المصريين من التنظيمات المختلفة بتقديم أعمال ثقافيـــة من خـــلال أحدث الكتب التى كانت تصلنا ومن خـــلال المناظرات والمحـــاضرات التى قدموها ، كنت تـــرى عددا من هذا التنظيم ، يتفق فى الراى حول موضوع ثقافى مع آخرين من التنظيم الاخر .

وفى المجال التعليمى : تتلمذ عدد كبير من الزملاء من مختلف التنظيمات على يد **الدكتور عبد العظيم انيس** ، وفى اللغات على يد الدكتور شريف حتاته **وحليم طوسن ومحمد الجندى** وهكذا ..

وكنت ترى زميلا يقوم برسم لوحة ، او يشكل قطعة خزف ، أو ينحت تمثالا .. يلجأ الى حسن فؤاد مع أنه ليس فى تنظيمه ، او الى داود عزيز او وليم اسحق مع انهما لاينتميان الى تنظيمه .

وفى كتابة المسرحيات .. كنت ترى المواهب الجـديدة تلجأ الى الفريد فرج ، أو صلاح حافظ بصرف النظر من الانتماء التنظيمى . لم يكن غريبا اذن أن تكون حصيلة الحوار الفنى والثقافى غنية .. رفع مستوى الزملاء الثقافى والفنى ، وكشف عن مواهب جديدة واصلت تقديم اعمالها الفنية بعد خروجها من السجن ، مثل **محمود شندى ومجدى نجيب ،**

وعلى الشريف واحمد حجازى . ومحمد حمام ، وشوقى عبد الحكيم ، وصنع الله ابراهيم ، وخليل قاسم ومحسن الخياط ومحمد صدقى وغيرهم ممن لا تعى ذاكرتي اسماءهم . كلهم بداوا واستمروا وسط ذلك الجو الديمقراطى الحقيقى ، وكلهم واصلوا تقديم اعمال فنية وثقافية بعد خروجهم من السجن حتى اليوم .

لماذا لم تكن حصيلة الحوار السياسى فى مثل حصيلة الحوار الثقافى والفنى ؟ لماذا كانت حصيلة الحوار الثقافى غنية ، ولماذا كانت حصيلة الحوار السياسى صفرا ؟

فى كلمة .. كان الحوار الثقافى والفنى يدور بين الزملاء على اختلاف انتماءاتهم التنظيمية فى جو من « الحرية » النسبية ، بينما كان الحوار السياسى يدور فى جو من « الالتزام » المطلق .. كل لسياسة تنظيمه ، كانت الحرية النسبية تعطى لكل زميل فى هذا التنظيم أو ذاك أن يتفق مع زميله الاخر ، بصرف النظر عن انتمائه التنظيمى . بينما كان الالتزام المطلق كل لسياسة تنظيمه تعطل كل فرص اللقاء السياسى ، بل وتزيد من شقة الخلاف . وكان مشهدا مالوفا أن ترى مئات الزملاء يذهبون الى المسرح لسماع محاضرة ثقافية بينما كنت ترى اعدادا قليلة تستمع للمجلات الناطقة المختلفة ، « الطريق » مجلة الحزب المصرى ، « والهواء » مجلة حدتو والافق مجلة « الافق » وهو تنظيم داخل المصرى. كل مجلة تنطق بلسان تنظيمها والطبع لاتدور اى مناقشات بعد نشر موادها، هذا فضلا عما تنشره كل مجلتين اتهامات للتنظيمات الاخرى فتزداد الخلافات السياسية اتساعا ويكرس الانقسام بينها .

كم من الجرائم ارتكبت باسم « الالتزام » فى الحركة الثورية فى مصر ؟ واعطنى يا ابنة الستينيات حق « الاجتهاد » ، فاقول ان مبدأ « الالتزام » بعد لينين انتهك فى التطبيق انتهاكات خطيرة فى كثير من الاحزاب الشيوعية، حيث استخدم لتدعيم سلطة فرد أو مجموعة من الافراد فى قيادة الحزب . والغريب ان الاحزاب الثورية والوطنية فى بلدان العالم الثالث ، خاصة فى البلدان التى الغت الاحزاب واقامت بدلا منها « تحالف قوى الشعب » أو « حزب الجبهة » وغير ذلك من المسميات لم تأخذ من الاحزاب الشيوعية سوى مبدأ « الالتزام » فقد وجدت فيه السبيل الى تدعيم سلطة الزعيم فى الحزب والدولة .

ونظرة واحدة الى « الاتحاد الاشتراكى العربى » فى مصر والتنظيمات المماثلة له فى بلدان العالم الثالث عموما تؤكد ذلك . وحين وضع الالتزام سدا امام الاجتهاد فى الاحزاب الشيوعية حدث ما حدث لعدد من المفكرين كان آخرهم جارودى .

واعود الى سجن « المحاريق » حيث بدأ النشاط الثقافى والسياسى والفكرى والذى استمر أكثر من ثلاث سنوات ، بعد وصول برقية الى المامور من القاهرة .

احكى لك عنها فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

القاهرة ١٢ سبتمبر . القاهرة .

الرســـالة رقم (٥٦)

حبيبتى

ذات يوم من ايام يونيو عام ١٩٦١ ، كانت الساعة قــد تجاوزت الثانية عشرة ظهرا ولم تفتح الزنازين على الزملاء المعتقلين ، وكانت تفتح عادة فى الساعة الثامنة صباحا ، وبعد نصف ساعة فقط يكون الزملاء قد انتظموا فى صفوف كى يذهبوا الى العمل فى المزرعة . المسجونون فقط هم الذين فتحت عليهم الزنازين كى يذهبوا للعمل . بعد ان انتظموا فى الصفوف كالمعتاد وقفوا ينتظرون زملاءهم المعتقلين ليسيروا معــا الى المزرعة كما كان يحدث منذ شهور . وبعد ساعة انتظار جاءت الاخبار تقول ان الزملاء المعتقلين لن يخرجوا للعمل اليوم . لماذا ؟

ــ وصلت برقية مساء أمس الى المأمور .
ــ حفلة تعذيب أخرى لهم ؟
ــ ليس فى الجو ما يشير الى ذلك .
ــ قرار اتهام جديد لعدد من الزملاء ؟
ــ وهل يستدعى هذا عدم خروجهم للعمل ؟
ــ دفعة جديدة من المعتقلين ؟
ــ ولماذا لا نحاول معرفة الخبر من عند المأمور ؟

ونسمع صوت احد الضباط يقول لنا :

ــ روحوا انتو للمزرعة .. المعتقلين مش رايحين اليوم .
ــ لمـــاذا ؟
ــ أخبـــار سارة سيقولها المأمور لهم .
ــ حقيقى أخبار ساره ؟

ويبتسم الضابط ويقول :

ــ كل الدلائل تشير الى ذلك .
ــ هات ما عنـــدك .
ــ ليس عندى أوامر .

ويقسم الرجل بأنه لا يعرف سوى ان المأمور سعيد ومبسوط منذ وصلته برقية عاجلة مساء أمس وان الاوامر التى صدرت له هى أن لايخرج المعتقلين للعمل لأنه « عاوز » يقول لهم اخبار سارة .

ويصيح احد الزملاء ..

— يبقى لازم افراج .
— على العموم خــير ..

ويتحرك طابور المسجونين الى المزرعة ، وأنتظر مع عدد من الزملاء كى نستطلع الامر .

قبل أن نصل الى باب مكتب المأمور نراه خارجا منه ويقــول لنــا مبتســـما :

— ايه .. طلباتــكم ؟
— سيادتك عارفهـــا .
— اخبار كويسة لزملاءكم .
— ممكن نعرفها ؟
— ساعلنها لهم حالا .

ويصيح على احد الضباط ..

— افتح على المعتقلين وخليهم يستنوا هنا فى الحوش ، ثم يلتفت الينا ، ويقول :

— وانتو بقى تعرفوا الاخبار مع زملاءكم ..
— طب نعرف ولو حاجة بسيطة ..

ويقول مبتسما :

— لا .. كلكم راح تعرفوها مرة واحدة .
— يبقى لازم افراج من المعتقلين ..
— حاجة زى كده .

واقول ضــاحكا :

— وفيه حاجة زى الافراج ؟
— فيه مقدمات .
— يبقى عرفنا ايه هيه الاخبار .
— برضه مش بالضبط ..

ويسير متجها الى حيث يقف المعتقلون فى انتظاره وفى انتظار مايحمله من أخبار سارة . قال بصوت متهدج به نبرة انسانية كانت تلازمه منذ ليلة الازمة التى مرت بأولاده :

— وصلتنى أمس برقية من القاهرة بتحسين معاملتكم .

وتخرج بعض التنهدات الصامتة من بعض صفوف المعتقلين .

— خـــير .

ويواصل المأمور :

— من اليوم يمكنكم ان تلبسوا **احذيتكم** وان ترسلوا **خطابات الى اهاليكم** وتتسلموا منهم خطابات . كذلك سمح لكم بالتعامل مع **الكنتين** وشراء ما تحتاجون له . كذلك لم يعد **العمل اجباريا** .

ويختتم كلمته :

أنا سعيد بهذه الاوامر .. وأرجو أن تفهموا أن بعض ما حدث منى فى الشهور الماضية لم يكن بارداتى .. كنت انفذ التعليمـــات ولكن بمرونة وتصرف .. أرجو أن يكون هذا مقدمة للافراج عنكم .

ثم اعطى **المأمور** امرا الى احد الضباط كى يفتح المخزن ويســلم المعتقلين **احذيتهم وملابسهم** التى اخذت منهم عندما جاء همت فى العــام المــاضى . ثم نادى على الزميل **فخرى لبيب** ، وطلب منه ان يصحبــه الى مكتبه هو والدكتور **شريف حتاتة والزميل وليم طانيوس** .

ذهب الزملاء مع المــأمور الى مكتبه ربما كى يعرفوا اخبارا جديدة وربما كى يعطيهم بعض التنبيهات ، بمناسبة الظروف الجديدة . وذهبت أنا مع المعتقلين أتأملهم وهم يتسلمون احذيتهم وملابسهم .

تذكرت مجاة شخصية « **الطواف** » فى مسرحية عيلة الدوغرى **لنعمان عاشور** عندما تحققت امنية عمره حين اشترى له «مصطفى» حـــذاء وهو الذى ربى كل ابناء « الدوغرى » حتى كبروا واتوظفوا وظل هو حافيا . ثم كيف التى بالحذاء بعيدا حين اكتشف أن رجله لم تعــد تتحمله ! وتذكرت امنية المهرج فى مأساة الملك لير الذى كانت احلامه تتوقف عند حذاء يضع فيه قدمه ويرد عنه غائلة البرد والثلج .

وشهدت الزملاء الذين اكتوت أقدامهم العارية بحرارة رمال الصحراء فى عز الصيف ولسعاتها الباردة كالثلج فى الشتاء القارص .

بعض الزملاء **يحتضنون أحذيتهم** كما تحتضن الام وليدها فى حنــان وتقبله . والبعض **يمسحون** احذيتهم بملابسهم ثم يجلسون على الارض ويلبسونها بصعوبة . وآخرون **يجرون** بعد ان لبسوا أحذيتهم ..يشوطون الاحجار الصغيرة فى طريقهم .. ثم **يتوقفون ويصفقون** بأيديهم مهللين . كانوا جميعـــا كالاطفال الصغار فى يوم العيد فرحون بأحذيتهم الجديدة .

وتذهب عيناى بعيدا لترى ملايين الفلاحين فى قرى مصر وكفورها ونجوعها .. حفاة عراة .. **متى تجول «الكاميرا» المدينة لتلتقط صورهم وهم ياكلون ويلبسون ؟ متى ايتها المدينة الظالمة .. متى ؟**

واعود مرة اخرى الى سجن المحاريق ، وأتأمل صورا انسانية :

الدكتور **محمود القويسنى** يقبل صورة فى يده وتجرى الدمــوع فى عينيه :

ـــ شوف يا درش .. ولاد عفاريت .
ـــ «أمانى» ؟ حلوه قوى يا محمود
ـــ نفسى أشوفها عروسة .

والدكتور **شكرى عازر** يجرى نحوى ويقول :

ـــ شوف خطيبتى حلوه ازاى ؟
ـــ احلى منك يا شكرى .
ـــ باحبها قوى يا درش .

والزميل سيد **عبد الله** رأينه وسط جمع من الزملاء وفى يده علبـــة سجاير بلمونت كبيرة يوزعها عليهم :

ـــ كل اتنين سيجارة .

وبعد أن يوزع العلبة كلها .. ينتحى جانبا وفى يده صوره .

ـــ خطيبتك يا سيد ؟

ويضحك ضحكته الودودة المحببة الى النفس :

ـــ أمى .. واحشانى قوى ..
ـــ ابعت لها تخطب لك .

ويقهقه بنفس صافية .. وهى دائما صافية فى كل الظروف :

ـــ وهيه عاوزه توصية .. بعتت لى تقول انها خطبت لى بنت حلوة .
ـــ تعرفهـــــا ؟
ـــ أبدا أول مرة اسمع عنها .
ـــ وراح تتجوزها .

وتخرج منه تنهيدة عميقة :

ـــ نفسى احب يا درش .

ما يقرب من ثلاث ساعات .. وأنا واقف فى مكانى لا اتحرك ، أتأمل عشرات **الصور الانسانية** التى يعجز القلم عن وصفها . وتدريجيا تخف الحركة .. ويسود الهدوء .. ويذهب المعتقلون الى **زنازينهم** .. يجلسون على **الابراش لا** يتكلمون فكل منهم يعيش فى عالمه الخاص .

كان الزملاء قد عادوا بعد لقاء طويل مع المأمور الذى أخبرهم عن استشهاد **شهدى عطية الشافعى** فى ابى زعبل . **هذا هو الثمن اذن ؟**

عرفت **شهدى عطية الشافعى** رائدا من رواد الفكر الماركسى ،يناضل بقلمه وفكره دفاعا عن العمال والفلاحين وضد الاستعمار والاقطاع والملك. سمعت محاضراته فى دار الابحاث العلمية وتعلمت منه ثم تتلمذت على يديه.

ليالي كثيرة قضيتها معه يقرا بالانجليزية مؤلفات كبار المفكرين واستمع اليه ثم نناقش ما قراه وما سمعته . كان أول مفتش مصرى للغة الانجليزية . وكانت لغتى الانجليزية لا تساعدنى على ما أريد معرفته ولا اجده بالعربية وكان رحمه الله يسأل عنى بالحاح اذا حالت ظروفى يوما دون لقاءه فى مواعيد الدروس ، وكانت ثلاث مرات فى الاسبوع . منذ ذلك التاريخ ـ ١٩٤٦ ـ لم نفترق حتى اختلفنا فى أوائل عام ١٩٤٩ ، لكن رغم اختلافنا لم تتوقف الدروس حتى حكم عليه بالاشغال الشاقة سبع سنوات عام ١٩٥٠ ، ولم نلتق بعد ذلك سوى مرتين . الاولى عندما دخلت ليمان طره عام ١٩٥٤ ، والثانية عندما التقيت به فى سجن المحاريق عام ١٩٥٩ .. بعدها بشهور اخذوه الى المحاكمة ليحكموا عليه مرة أخرى بعشر سنوات اشغال شاقة ، رغم الدفاع السياسى الذى القاه واعلن فيه تأييده الكامل للحكم الوطنى ولسياسة الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم اخـــذوه الى اوردى ابو زعبل كى يغتالوه هناك .

حقا كان الضابط عبد اللطيف رشدى هو الذى انهال على شهدى بالضرب حتى تركه جثة هامدة .. لكن هل كان هو القاتل الحقيقى ؟

قالوا .. انه حين قتل الضابط عبد اللطيف رشدى ، شهدى عطية كان الرئيس عبد الناصر فى زيارة ليوغوسلافيا ووصلت انباء استشهاد شهدى اليه هناك ، واثارت ضجة فى الراى العام العالمى لما لشهدى من سمعة واسعة ككاتب مصرى تقدمى .

ومن بلغراد أرسل عبـــد الناصر برقية يأمر فيها بالتحقيق فى مقتل شهدى .. وكان ذلك يعنى وقف التعذيب البدنى الذى كان يمارس على المعتقلين .

لكن السؤال يفرض نفسه : قبل شهدى ، قتل فريد حداد ورشدى خليل وعلى الديب بالاسلوب نفسه، وخلال مايقرب من عام مارس خلاله السفاحون ابشع انواع التعذيب ، على المعتقلين .. فلماذا لم يأمر عبد الناصر بالتحقيق فى مقتل كل هؤلاء الزملاء ؟ وهل لم تصل أخبار ذلك التعذيب الوحشى له قبل ذلك ؟ .

المح فى عينيك يا ابنة الستينات نظرات قلقة اعرف أن سببها هذا السؤال الذى طرحته . لا تقلقى يا حبيبتى فما اعرفه عن نفسى وأزعم أنه صحيح ، هو اننى رغم كل ما لقيته على يد عبد الناصر ، حين قبض على القاضى الذى اوشك أن يصدر أمرا ببراءتى ، وعين قاضيا جديدا أصدر حكما على بسبع سنوات أضاف اليهم عبد الناصر ثلاثة اخرى عندالتصديق على الحكم ، ثم سنتين اعتقال بعد انتهاء فترة العقوبة ، فان موقفى طوال الاثنى عشر عاما داخل السجن والمعتقل ، ثم بعد خروجى من السجن وحتى اليوم ، كنت وما زلت وسأظل ما بقى من عمرى مدافعا عن كل ايجابيات الزعيم الوطنى جمال عبد الناصر . وما تحملته داخل السجن من اتهامات لى ((بالعمالة والخيانة)) لاننى كنت ادافع عن انجازات عبد الناصر

الوطنية والاجتماعية على يد الذين احتضنهم عبد الناصر بعد خروجهم من السجن . وما تحملته بعد خروجى من السجن حيث ألقى بى بعيدا عن المسرح .

ولست ابغى من وراء هذه الكلمات يا حبيبتي سوى أمرا واحدا هو ان أرى **عينيك** كعهدى بهما دائما ، تنفذ نظراتهما **الصادقة** الى أعماقىتبعث فيها **الامان والهدوء** ، فاعرف انك تصدقين كل كلمة أقولها لك .

اما وقد راح القلق من عينيك يا حبيبتى .. اعيد طرح السؤال ، وأرانى غير قادر على الاجابة عليه . لكنى ارفض رغم ذلك تلك الاجابة السطحية التي تلقي كل شىء على **المباحث العامة واجهزة الامن** وكأنها كانت فى واد، **والسلطة السياسية** فى واد آخر . فى الوقت نفسه أرفض كل المحاولات التي تصور عبد الناصر **بصورة ناصعة** البياض لاتشوبها نقطة سـوداء واحدة . فعبد الناصر زعيم وطنى بارز ، ولكنه مثل كل الزعماء ، الذين عرفهم التاريخ ، له ايجابياته التى تشكل مساحة كبيرة من الصورة ، وله ايضا **سلبياته** التى ربما تكفى واحدة منها لتدمير كل ايجابياته .

وحتما ستجدينالاجابة **يا ابنة الستينات** وانت تؤرخين **للحركةالثورية**، فرغم انك من جيل عبد الناصر الذى شهد كل ايجابياته وبهرته ، لكنه لم يعرف من سلبياته شيئا فى حياته ثم عرف بعضها بصورة مغرضة بعـد رحيله ، فانك ، **وانت الصادقة** مع نفسك ، قادرة على الوصـول الى **الحقيقة** لجيلك وللاجيال المقبلة .

وحين نعود سويا يا حبيبتى الى سجن **«المحاريق»** سنجد حقا أن **التعذيب** قد توقف ، وان حياتنا هناك ــ المسجونين والمعتقلين ــ كانت اشبه بالحياة فى معسكر للكشافة . ولكن كان هناك تعذيب **اشد قسوة** يمارسونه على الزملاء ..

اكتب لك بعض صوره فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى ..

١٥ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســــالة رقم (٥٧)

حـــــبيبتى :

ابدا رسالتى هذه اليك يا حبيبتى بكلمات عن صورة حياتنا فى سجن **((المحاريق))** خلال الشهور الاربعة الاخيرة من عام ١٩٦٠ **حتى يوليـــو عام ١٩٦١** .

كانت صورة حياتنا كمسجونين ومعتقلين اشبه بصورة الحيـــاة فى معسكر للكشافة . الزنازين مفتوحة طول النهار والليل ، وأبواب العنابر أيضا لا تغلق ويستطيع من يشاء أن يتجول فى حوش السجن . ويستطيع من يشاء أن يشترى ما يريد من طعام وسجاير وملابس من كانتين السجن . وزيارات الاهالى لا تنقطع ــ **طبعا للمقتدرين** ــ والخير الوفير يأتى معها . العمل فى المزرعة أصبح **نزهة** فالارض لم تعد تحتاج الى مجهود كبير ، وفى قلبها **حمام سباحة** لمن يريد ان يسبح . واعمال الرسم والنحت والخزف وصب الجبس تجدينها فى كل ركن من أركان السجن ، فى مكاتب المأمور والضباط ، وعلى بوابة السجن ، وفى العنابر والزنازين والمعارض الدائمة . والمسرح يموج بالعمل الثقافى ، مسرحيات ، وحفلات ، ومحـــاضرات ، ومناظرات ، وفى كل يوم يذيع **عبد الستار الطويلة** ثلاث نشرات اخبارية واحيانا أكثر من وكالة «واس» . وكانت **((واس))** وكالة أنباء محايدة ــ أى ليست تابعة لاى تنظيم من التنظيمات ــ تذيع كل ما يصل اليها من اخبار محلية ــ مصدرها التنظيمات المختلفة ــ أو الاخبار والتعليقات العالمية التى يلتقطها كل تنظيم من الترانزستور الخاص به . أما أخبار القاهرة فقد كنا نسمعها من راديو السجن الذى كان فى مكتب المأمور بواسطة سماعات فى العنابر ، وطبعا كنا نسمع أيضا الاغانى والخطب السياسية وجلسات مجلس الامة والمؤتمرات .. الخ .

وكانت هناك أيضا ثلاث صحف ناطقة يومية تعبر عن سياسة التنظيمات الثلاث المختلفة .

- جريدة **((الطريق))** كانت لسان حال «الحزب الشيوعى المصرى» .
- جريدة **((الافق))** كانت لسان حال تنظيم «الافق» وكان داخل تنظيم «الحزب الشيوعى المصرى» ويقول انه هو الحزب الحقيقى .
- جريدة **((الهواء))** كانت لسان « الحزب الشيوعى المصرى » حدتو .

تريدين مزيدا من الايضاح يا حبيبتى ؟

حسنا .. فمثل هذا الايضاح سوف يساعدك يا ابنة الستينات على فهم بعض ما قد يكون قد غمض عليك فى بعض رسائلى السابقة وأنا اتحدث عن «الاغلبية» و «الاقلية» و«حدتو» و«المستقلين» .

واعود بك يا حبيبتى الى عام **١٩٥٧** . حتى ذلك الحين كانت هناك ثلاث تنظيمات اساسية : **«الحركة الديموقراطية للتحـــرر الوطنى »** و **« الديموقراطية الشعبية »** و **«الحزب الشيوعى المصرى »** . وعندما بدات مناقشات **الوحـــدة** بين هذه التنظيمات الثـــلاث غيرت « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى » اسمها واصبح **«الحزب الشيوعى الموحد»** وغيرت « الديمقراطية الشـــعبية » اسمها واصبح **« حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى »** .

وبعد مؤتمر **باندونج** ، وبعد **العدوان الثلاثى** على بلادنا ، كان موقف التنظيمات الثلاث من **ثورة ٢٣ يوليو موقفا واحدا تقريبا** ، تأييد الحكم الوطنى بزعامة الرئيس جمال عبد النـاصر .

ومع ان هذا الموقف السياسى **الواحد** كان هو الدافع الاساسى لاقامة **الوحدة** حيث لم يعد هناك مبرر لانقسام الحركة الثورية ، الا أن الطابع الاساسى لمناقشات الوحدة كان هو الطابع **التنظيمى** . كان كل تنظيم حريص على أن تكون له **الاغلبية** فى اللجنة المركزية للتنظيم الجديد . لكن كيف ؟ اتفقوا على أن يكون التمثيل فى القيادة الجديدة بنسبة عدد أعضاء كل تنظيم ! «برضه» كيف ؟ والتنظيمات سرية ؟ أخبار كثيرة جاءتنا «نحن المسجونين القدامى» وكنا مبعدين تماما عما يجرى ، تقول أن **هنــــاك « تزوير »** فى القوائم ، وأن هناك « أسماء غير حقيقية » و.و. وصدقينى اننى لم اعرف الحقيقة ولا اعرفها حتى اليوم ، **بل ولم أســـع يوما الى** معرفتها فقد كان رأيى ان الوحدة اذا لم تتم على أساس **سياسى** فمصيرها الانهيار لا محالة .

وبعد شهور تمت **الوحدة** بين **«الحزب الشيوعى »** و **« الحـــزب الشيوعى المصرى الموحد »** وسمى التنظيم الجديد باسم **« الحــــزب الشيوعى المصرى المتحد »** ولم يهتم هذا التنظيم الجديد بالسياسة والفكر قدر اهتمامه بتكوين لجنته المركزية . لقد وافق **«الحزب الشيوعى المصرى»** سابقا على أن يكون «اقلية» فى قيادة التنظيم الجديد « الحزب الشيوعى المصرى المتحـــد » ولـــكن بشرط ! وكان شرطا غريبـــا على مبـــادىء التنظيم .. **اذا لم تتخـذ قـــرارات اللجنـــة المـــركزية بالاجمـــاع** ، فان قـــرار « **الاغلبيـــــة** » لا يـــكون الا **بثلثى الاصــوات ! وجـــاءت** الاخبار الينا فى سجن « جناح » تقول ان **هذه الوحـــدة الثنائية** ستجبر التنظيم الثالث على الوحدة ! وفى **٨ يناير عام ١٩٥٨** تمت الوحدة بـــين **« الحزب الشيوعى المصرى المتحد »** وبين **«حزب العمال والفـــلاحين المصرى »** وصار اسم التنظيم الجديد هو **«الحزب الشيوعى المصرى »** .

وايضا لم يكن اهتمامه **بالسياسة** مثل اهتمامه **بالتنظيم** ، فكان تمثيل التنظيمات الثلاث السابقة حسب **النسبة العددية** لاعضاء كل تنظيم ، نحصل العمال والفلاحين سابقا على العدد الاكبر ، يليه «حدتو» سابقا، يليه « الحزب المصرى » سابقا . ولما تعذران يكون للحزب الجديد **سكرتيرا سياسيا عاما** كما يحدث فى كل الاحزاب السياسية ، اتفق على ان يكون **الثلاث زعماء** للتنظيمات السابقة لجنة اطلقوا عليها اسم **«اللجنة الدائمة »** تقوم بعمل السكرتير العام . اما بالنسبة لقرارات اللجنةالمركزية فهى اذا لم تتم بالاجماع فيشترط للاغلبية أن تحصل على ثلثى **الاصوات !**

وبعد شهور من تلك الوحدة الثلاثية **خرجت « حدتو»** من التنظيم الجديد واحتفظت باسم « الحزب الشيوعى المصرى » «حدتو» بين قوسين تمييزا لها عن «الحزب الشيوعى المصرى» الذى بقى فيه « الحزب المصرى القديم » و «العمال والفلاحين القديم » ، وكانت له الاغلبية فى اللجنة المركزية ، وكان للجنة المركزية **سكرتير عام واحد** . وظل الوضع هكذا فى سجن «المحاريق» حتى ظهر تنظيم «الافق» داخل الحزب الشيوعى المصرى يعلن أنه هو « الحزب الشيوعى المصرى » **الحقيقى** . وبالتالى صدرت ثلاث صحف ناطقة تعبر عن سياسة التنظيمات الثلاث .

فماذا كانت سياسة كل تنظيم من تلك التنظيمات ؟

حين خرجت **«حدتو»** من التنظيم الواحد لم تكن هناك **خلافات** سياسية اساسية ، وايضا حين دخلوا جميعا **المعتقل** . وبعد حوالى شهر كان رأى «حدتو» هو أن السلطة السياسية هى **للبورجوازية الوطنية** ، وكان رأى «الحزب الشيوعى المصرى» الرسمى هو أن السلطة السياسية هى **للبورجوازية الكبيرة الاحتكارية** ، وكان رأى **الاقلية** « الحزب المصرى القديم » ، هو أن السلطة السياسية للبورجوازية الوطنية ! وبعد **اجراءات يوليو ١٩٦١** كان رأى «حدتو» أن فى قمة السلطة **(مجموعة اشتراكية)** بدأت بناء الاشتراكية منذ **قرارات يوليو ١٩٦١** . وكان رأى « الحزب الشيوعى المصرى » الرسمى — الاغلبية وهى العمال والفلاحين سابقا — أن السلطة هى سلطة **راسمالية الدولة الاحتكارية** ، وانها **الشريك الاصغر** للاستعمار . وكان رأى — **الاقلية — وهى الحزب المصرى القديم —** ان السلطة تمثل **البورجوازية الكبيرة الوطنية** ، وينبغى التحالف معها . وكانت «الافق» تنظيما داخل الحزب الشيوعى المصرى — ترى ان السلطة تمثل البورجوازية الوطنية — **الكبيرة والمتوسطة** .

كانت تلك هى آراء التنظيمات الثلاث حتى يوليو ١٩٦١ ، وكانت الصحف الناطقة المختلفة تعبر عن آرائها .

وكان هناك رأى رابع هو رأى **المسجونين القدامى** — من الحزب الشيوعى المصرى القديم — يقول بأن الثورة منذ قيامها تعبر عن مصالح **البورجوازية الوطنية** وان كان ممثلوها فى السلطة ليسوا هم الممثلين

التقليديين لها . والذين بداوا **يتناقضون** معها منذ قيام المؤسسة الاقتصادية عام ١٩٥٤ ، وكان تاميم **بنك مصر** ضربة لمصالح البورجوازية الاحتكارية ثم كانت اجراءات يوليو ١٩٦١ ضربة لمصالح البورجوازية الكبيرة لمصلحة **البورجوازية المتوسطة** .

ولم يكن للمسجونين القدامى الذين كسبوا الى جانب رايهم عـــددا لا باس به من الزملاء فى التنظيمات المختلفة الذين وفدوا الى سجن جناح **عام ١٩٥٦** ومن المعتقلين **عام ١٩٥٩** ، مجلة ناطقة تعبر عن رايهم فقد كانوا اعضاء فى «**الحزب الشيوعى المصرى**» يخضعـــون لسياستـه الرسمية .

والى جانب هذه التنظيمات كان يوجد عدد من «**المستقلين**» عن هذه التنظيمات كلها ، وكان عددهم يتزايد باســتمرار حيث كان ينضم اليهم الزملاء الذين فقدوا الامل فى تنظيماتهم السابقة .

هذه الكلمات السابقة التى اردت بها ان اعطيك يا ابنة الستينات **صورة قريبة من الحقيقة عن وضع الحركة الثورية حتى يوليـــو ١٩٦١** مختلفة عن تلك التى فى ذهنك ، فهى كلمات لم يقلها أحد من قبل لدوافع **ذاتية** .

غير اننى اردت بهذه الكلمات ، أن تكون مقدمة لمـــا اريد ان اقوله لك فى رسالتى هذه ، عن صور **التعذيب النفسى** التى بدات **المباحث العامة** تمارسها على الزملاء منذ وقف التعذيب الجسدى فى ظل الحريات المطلقة للتنظيمات داخل السجن !

قبل اجراءات يوليو عام ١٩٦١ ، كان الموقف الذى اخذته السلطة السياسة ازاء **مقاطعة الباخرة المصرية كليوباترة** موقفا وطنيا حازما ، ثم كان **تاميم بنك مصر** وبعض الاجراءات الوطنية الداخلية والعربيـــة والخارجية مع الانفراجة الديموقراطية فى السجن تجعل **المؤيدين** للحكم **الوطنى** يهللون ويبشرون **بافراج قريب** ، وتزيد المعارضين للحكم الوطنى اصرارا وعنادا !

وذات يوم من اواخر **نوفمبر ١٩٦٠** استدعت الادارة حـــوالى **٨٠ زميلا** وابلغتهم ان عليهم ان يرتبوا انفسهم للرحيل فى الغد الى **الفيـــوم** تمهيـــدا **للافراج عنهم** ، هلل المؤيدون وكبروا .. بدأ تصفية **المعتقل** .. وهذا يؤكد سلامة موقفهم السياسى .

ووضع المعارضون اياديهم على قلوبهم . الافراج يعنى أن سياستهم خاطئة .

وبين هؤلاء وهؤلاء كان عدد كبير من الزملاء — من بينهم المسجونون القدامى — ينظرون بعين الشك الى ما يجرى رغم انهم مؤيدين للحـــكم الوطنى !

كان العدد الاكبر من الدفعة التى سافرت الى **الفيوم** للافراج عنها من المستقلين . وكان من الطبيعى أن يزداد عدد المستقلين من التنظيمات المختلفة .

وعشنا بعد ذلك شهرين كانت من اقسى الشهور التى مرت بنـــا ، خصوصا الزملاء البسطاء الانقياء .

أخبار **متناقضة** تصل عن الزملاء فى الفيوم :

— لقد **أفرج** عنهم بعد اسبوع من وصولهم الفيوم .
— لا .. أنهم ما زالوا فى **المباحث العامة** .
— بل ما زالوا فى **الفيوم** .
— **ويعذبون** هناك كما عذبوا فى الواحات وأبو زعبل من قبل .
— نقلوا الى معتقل **القلعة** وتجرى معهم عمليات **غسل مخ** .
— ابدا .. انها محاضرات وطنية ليس الا ، بعدها سيخرجون .
— بل ليكتبوا اقرارات بعـدم الاشتغال بالسياسة واستنكارا لافكارهم ومعتقداتهم .
— لقد أضربوا عن الطعام جميعا .. وأجبروهم على فك الاضراب .
— الزميل **عبد القادر مفتاح** مات وهم يرغمونه على فـــك اضرابه من الطعام .

وتستدرج مجلات التنظيمات المختلفة الى الفخ . «الطريق» تؤكد أن الزملاء يعذبون فى **الفيوم** وانه لم ولن يتم الافراج . و«الهواء» تقول العكس، فقد بلغها من أوثق المصادر» أنه قد تم الافراج فعلا ، و«الافق» لا تؤكد أخبار الافراج ولا تكذبها وتحذر من الانسياق وراء مؤامرة **التصفية**، وتطلب التريث والتعقل . حتى الاهالى الذين جاءوا لزيارة ذويهم خلال تلك الفترة ، حملوا معهم موجات من الاشاعات والاخبار **المتناقضة** ، لكنهم كانوا يؤكدون ان **المباحث العامة** هى مصدر تلك الاخبار .

وانعكس ذلك كله فى **طرقات العنبر** وحوش السجن . معظم ليالى تلك الفترة كان **المسجونون** فقط هم الذين ينامون ، اما **المعتقلون** فكانوا لا ينامون الليل ، بعضهم كان يجلس الى جوار سور السجن الخارجى يسرح مع **احلام الافراج** ، والبعض يجلسون مجموعات فى بعض أركان طرقة العنبر تحكى وتتسامر .. حول الافراج . والبعضيرقدفوقالابراش يكتب حكايات للاهل يبشرهم بالافراج القريب .

وفى ليلة **رأس سنة ١٩٦٢** تقيم **«حدتو»** احتفالا كبيرا فى المسرح ، تقدم فيه عددا من المسرحيات ، وتلقى فيه قصائد شعر ، وخطب ساخنة تؤكد **الافراج** . وتصدر قيادة «الحزب المصرى» قرارا **بمقاطعة** هـــذا الاحتفال .. لكن عددا من الاعضاء يتسرب من باب العنبر ليسمع من بعيد ما ينعش آماله فى الافراج .

وتمضى أيام من يناير ١٩٦٢ يعود بعدها الى سجن المحاريق ٥٤زميلا بعد أن تركوا فى الفيوم ٣٥ زميلا استسلموا تماما لكل ما طلب منهم مقابل الافراج .وكانت القصة هى .. انه بعد أسبوع واحد من وصول الزملاء الى الفيوم عوملوا خلاله معاملة خاصة .. سراير نظيفة وابواب العنبر مفتوحة طول النهار .. والتغذية جيدة .. زيارة الاهل فى اى وقت ودون حساب حتى ولو كانت كل يوم .. والتعامل مع الكانتين دون أى قيود .. والصحف والمجلات والكتب مسموح بها .

وبعد هذا الاسبوع بدأ ((الشغل)) .. ذهب الى هناك حسن المصيلحى ومعه عدد من ضباط المباحث ، وأخذوا يستدعون كل زميل على حدة .

— يمكنك أن تخرج الى اهلك فورا .
— ورقة صغيرة تكتبها تعترف انك كنت مخطئا وتخرج فورا .
— زوجتك وأولادك ما ذنبهم ؟. اخرج .
— يا أخى أنت غاوى معتقل ..

ويفاجأ بعض الزملاء بزيارات مفاجئة .. من الاب ، أو الزوجة ، او الخطيبة ، او الابن ، أو الام .. وكانت زيارات منتقاة بعناية من المباحث العـــامة .

— أولادك راح يموتو من الجوع ..
— يا ابنى أنا كبرت وعايزك جنبى .
— لامتى راح أستنى مخطوبة كده من غير جواز ؟

ويستسلم البعض .. وهؤلاء يستمرون أياما اخرى مكرمين معززين ثم يخرجون .

والآخرون كانوا أبطالا .. منهم الدكتور فوزى منصور الذى يهب فى وجه المصيلحى قائلا :

— هراء هذا الذى تقوله لا يستحق منى الا الاحتقار .

ويقول الدكتور فايق فريد :

— كيف تفكر فى أن تقول هذا الكلام لنائب من نواب الشعب ..

ويقول نبيـــل زكى :

— الموت فى الواحات خير من الحرية الملوثة التى تعرضها ..

ويقول رؤوف حلمى الطالب بآداب القاهرة :

— لن يقبل أى مناضل شريف عروضكم المخزية .

لقد رفضوا الثمن الفادح لحرية ملوثة ، فعـــزلوهم فى عنبر خاص وسحبوا منهم كل الامتيازات واســـــتخدموا معهم كل أساليب الترهيب

والترغيب ، وعادوا الى «**المحاريق**» بعد ان صمدوا فى وجه اقسى محاولات التعذيب النفسى .

لقد كان واضحا كل الوضوح ان **مؤامرة** لتصفية المعتقلين معنويا قد بدات ، وكان حصيلة الجولة الاولى من المؤامرة ٣٥ معتقلا ، ومع ذلك لم تضع قيادات التنظيمات المختلفة اى خطة لمواجهة هذه المؤامرة .على العكس ازدادت حدة الصراعات وتبادل الاتهامات فيما بينها واصبحت ظروف المعتقلين النفسية والمعنوية أكثر ملائمة لتنفيذ المؤامرة . وعبثا راحت كل المحاولات العاقلة التى بذلها عدد من الزملاء من مختلف التنظيمات كى توقف المجلات الناطقة حملة **المهاترات** المتزايدة وتبادل الاتهامات . وكلما زاد الصراع حدة ، كلما زادت **الامتيازات** فى السجن وكلما أرخت الادارة يدها .

اذكر أنه منذ عودة الزملاء من **الفيوم** زاد عدد **زيارات الاهالى** بشكل ملحوظ . كانت **المباحث العامة** تعطى كل التسهيلات لعدد من الاهالى كى **يقوموا** بزيارة ذويهم .. بشرط واحد .. ان يكتبوا ورقة صغيرة . هذه زوجة لاحد الزملاء تأتى لزيارة زوجها ومعها طفلها .

— علشان خاطر الطفل ده اكتب الورقة .
— مش ممكن .

وتصرخ فى وجهــه :

— مش لاتيه أوكله ..
— اصبرى شويه معلهش .
— اصبر لامتى .. لغاية ما انحرف علشـان اوكل العيال .

وزوجة اخرى تهدد زوجها **بالطلاق** ، واخرى تعطى زوجها مهلة ان لم يخرج خلالها فسوف تطلب الطلاق من المحكمة . وامهات جئن الى ابنائهن يطالبونهم ان «يسمعوا» الكلام من اجلهن ..و..و.. وفقد ثلاثة من الزملاء عقولهم .. وراحوا يطوفون فى طرقات العنابر وحوش السجن يهلوسون .

— انا عملت ايه الا الخير للناس . مراتى قالت انها راح « ... » .
— طيب ولادى الغلابة ذنبهم ايه ؟
— حكومة وطنية ولا خاينة ؟ .. مش فاهم ، يسقط مين ويحيى مين ؟ .
يحيا الوفد .. آه النحاس باشا .. الله يرحمك يا سعد باشا .
تسقط الفاصوليا والعدس ! يحيا السمك فى الماء .

وحين طلبنا من المأمور نقل هؤلاء الزملاء الى **المستشفى** قال انه أرسل للمباحث العامة يطلب الافراج عنهم . وبعد ايام جاء رد المباحث العامة ليس فقط برفض الافراج عنهم ، وانما **بعدم** نقلهم الى المستشفى . وكان مغزى الرفض واضحا .. ان يظل الزملاء الثلاثة بين المعتقلين **شبحا لقدر لا مفر منه** .

وبدأت المؤامرة مرحلة جديدة شعارها « **اما الموت فى الصحراء** » **واما «الجنون» .. «واما الافراج بعد كتابة ما يملى عليك»** .. حمله من المصيلحى وأركان حربه عندما حضر الى الواحات ، لكن امثلة من **البطولة** كانت قد سبقت المصيلحى ، فى حضورهم الى معتقل الواحات . عاد اكثر من **عشرة زملاء** كانوا قد انهوا مدة الحكم عليهم بالسجن .. عادوا معتقلين بعد أن رفضوا **عرض المباحث العامة** .. الافراج بشرط ان تكتب ورقـــــة !

كان من بينهم **ماجد حافظ ، ورفعت السعيد ، ومنير المغربى واحمد طه وغيرهم** .. كان الزملاء يحتفلون بكل زميل تنتهى مدة حكمه ويعلنون ثقتهم فى انه لن يقبل عرض المباحث المخرب للنفس نظير الافراج عنه ، وعندما يعود معتقلا يرحبون به ويشيدون ببطولته . كانت تلك النماذج الحية التى سبقت المصيلحى فى حضوره الى الواحات ، احد العوامل الاساسية التى ساعدت بعض الزملاء المترددين على الصمود فى وجه المصيلحى وزبانيته .

فى مساء اليوم نفسه الذى حضر فيه المصيلحى الى الواحات .. اغلقت العنابر والزنازين على غير العـــــادة منذ يونيو الماضى . ثم بدأ **المصيلحى** يستدعى مجموعات من الزملاء يساومها على الافراج بشروطه. وما سمعه منهم كان محطما لآماله وأحلامه ..

وأحكى لك يا حبيبتى قصة واحد من هؤلاء الزملاء لمـــا لها من دلالة:

كان شابا لا يزيد عمره عن ٢١ عاما وكان طالبا بجامعة القاهرة . وكان من أسرة غنية تسكن احدى عمارات القاهرة الفخمة ، يعيش مـــع والديه ومع أخته التى تكبره بعامين . وأمام شقتهم كان يسكن واحد من **«المحترمين» من رجال المخابرات** . وأمثال هذا الرجل «المحترم» لايتركون مثل هذه الفرصة تفوتهم ، بدأ بمغازلة الفتاة الحسناء فلم تستجب له ، عرض عليها كل الخدمات فرفضت ، هددها وتوعدها فتحدته . وذات يوم خرج الاخ من شقته على صوت صراخ أخته . كان الرجل «المحترم» يهددها **بالاعتقال والتشريد** فصرخت فى وجهه ، واشتبك الاخ معه . وكان جزاؤه الاعتقال . قال له **المصيلحى** :

— هو انت شيوعى ؟
— لا .. بل اكره الشيوعية .
— اكتب كده واخرج .
— لن أكتب شيئا ضد الشيوعية .

ورد عليه المصيلحى مندهشا .

ــ يا ابنى أنت ضدهم ومش عاوز تكتب وتخرج ليه ؟
ــ دول ناس اكلت معاهم عيش وملح .
ــ لكن حاولوا يخلوك زيهم .
ــ ابدا .. لم يحدث .. وبيعاملوني زى اى واحد منهم .
ــ طب انت مالكش دعوة بالسياسة .
ــ وعارف ليه اعتقلت .. ؟
ــ عارف .. لكن مش احنا المسئولين .
ــ طيب تقدر تخرجنى ..
ــ ايوه بس بشرط تكتب ورقة .

ويقول الشاب بحسم :

ــ لن اكتب كلمة واحدة ضد من **اكلت معهم عيش وملح** .

ولم يتحمل المصيلحى اكثر من يوم واحد ، غادر بعده المعتقل وهو يجر اذيال فشله ، وكان يتصور انه سوف يصفى المعتقل فى اسبوع واحد وبشروطه !

لكن المؤامرة لم تتوقف .. **مجموعات جديدة** من الزملاء كانوا يرحلونها الى **القلعة والى الفيوم** لاجراء عمليات غسيل المخ على ايدى **اساتذة مدربين** على تشويه العقول وتخريب النفوس . يخرج القليل ويعود الكثير .

وفى اواخر يونيو واوائل يوليو عام ١٩٦١ بدأ الزملاء فى **قيادات «الحزب المصرى»** يناقشون الوضع .. قالوا ان هناك جانبا ايجابيا لزيارة المصيلحى .. هو أن هناك رغبة فى تصفية المعتقل !

ــ حسنا .. فماذا بعد ؟
ــ لا يجب أن نبقى مدافعين .
ــ ولماذا تبقون هكذا ؟
ــ اذن نبادر بالهجوم .
ــ كيف ؟
ــ بالاضراب عن الطعام حتى الافراج عنا .
ــ وهل تأملون فى تحقيق الافراج ؟
ــ لا
ــ مغامرة اذن ؟
ــ سنحدد موعدا لفك الاضراب .
ــ وسيتركونكم حتى ينتهى الموعد .
ــ لن يعرفوه .. فهو سر .
ــ حتى ولو ظل سرا ... ما الذى سيحققه الاضراب ؟
ــ وحدة الزملاء وتماسكهم .. وصلابتهم فى وجه المؤامرة .
ــ وربما العكس . وهو الاغلب .

اعلنوا بكل ارتياح :

— حتى لو **استكر المئات** •• نستبقى «**الصفوة**» ولو لم يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة .

:

وبعد أيام .. فى النصف الثانى من **يوليو عام ١٩٦١** يبــدأ اضراب الزملاء المعتقلين فى «الحزب المصرى» . ولهذا الاضراب قصة احكيهـــا لك فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

١٧ سبتمبر ١٩٧٧ • القـــاهرة

الرســـــالة رقم (٥٨)

حـــــبيبتى :

فى يوم ٨ يوليو ١٩٦١ اعلن ٢٠٠ زميل معتقل الاضراب عن الطعام. وفوجئت ادارة السجن وحاولت فى البداية اقناعهم بالعدول ولكنها بعد ان ادركت اصرارهم بدات تتخذ الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالة . بعد ٢٤ ساعة منذ بدأ الاضراب عزلت المضربين فى عنبر (٣) ، ـــ وكان خاليا بعد نقل الاخوان المسلمين الى ليمان طرة ـــ وكفت عن تقديم الطعام او اى شيء آخر فيما عدا المياه .

اذكر أن رؤوف نظمى رغم مرضه الشديد كان من اول المتطـــوعين لدخول الاضراب .

ـــ ليه يا رؤوف ؟
ـــ كى أكون أنا وزملائى الى جانب الزملاء الاخرين .
ـــ ليسوا قاصرين .
ـــ لا يملكون تجربة فى الاضراب عن الطعام .
ـــ يتعلمون ..
ـــ ربما ينهار بعضهم ..
ـــ وهل تمنعهم .. ؟
ـــ محــــاولة ..
ـــ احتمال فشلها أكبر .
ـــ ولو ..
ـــ ولكنك مريض .. دع غيرك يقوم بالمهمة .
ـــ لن يحول المرض دون هدفى .
ـــ استشهاد اذن ؟
ـــ ربمـــــا .
ـــ بل هـــو ..

ويضحك رؤوف نظمى ضحكته الصافية الودودة والانسانية ، ويقول :

ـــ انت أكثر واحد فاهمنى يا درش ..

وابذل محاولة اخرى لاثنائه عن الدخـــول فى الاضراب فهو مريض بعدد لا بأس به من الامراض فى مقدمتها النزلة الشعبية ، واقول :

ـــ هناك معارك اخرى يمكن أن تستشهد فيها ..

ويقول وابتسامة على وجهه :
— أخشى أن يفوتنى القطار ..

وبعد الدفعة الاولى بيومين اعلن **١٠٠ آخرون** انضمامهم للاضراب . وفى اليوم الرابع دخل **خمسون** آخرون .

وكان المجموع ٤٠٠ معتقلا قد دخلوا الاضراب .

كنت أنا بقرار من **«المسئول المركزى»** المسئول عن الاضراب ، لاننى كما قال .. املك **خبرة ١٨ اضرابا** عن الطعام فى السجون المختلفة . ومهمة مسئول الاضراب هى التحدث باسم المضربين أمام ادارة السجن ، وأمام النيابة .

كانت **الزنازين** تغلق ابوابها علينا ، على المسجونين والمعتقلين الذين لم يشاركوا فى الاضراب من «حدتو» أو الذين لم يسمح لهم الاطباء بذلك من «الحزب المصرى» طول النهار والليل ، ففى حالات الاضراب عن الطعام تفرض حالة الطوارىء .

وانقضى الاسبوع الاول من الاضراب لم استطع خلاله مقابلة احد من المضربين غير اننا كنا نرسل لهم الاخبار من خلال شبابيك الزنازين .

كان الزميل **مختار جمعة النوبى** يسكن معى فى نفس الزنزانة ، فى عنبر (٢) والمواجهة للزنزانة التى يسكن فيها **محمود شندى** النوبى فى عنبر (٣) . وخلال ذلك الاسبوع ، فى مساء كل يوم كان **مختار جمعة** يرسل الاخبار من خلال نافذة زنزانتنا «بالنوبية» كى يستقبلها **محمود شندى** ويترجمها الى « العربية » .

وخلال ذلك الاسبوع كنت على اتصال مستمر بالادارة لطلب النيابة للتحقيق فلائحة السجون تنص على حضور النيابة فى موعد لا يزيد عن ٤٨ **ساعة** من بدء الاضراب . وكان المأمور يقول بأن السجن فى **منطقة عسكرية** وهو يتبع **النيابة العسكرية** ولا يملك الا ان يبلغها لكنه لا يعرف متى تحضر .

وفى اليوم العاشر جاء **الحاكم العسكرى** لمنطقة الوادى الجديد والتقى بعدد من المضربين وطلب منهم فك الاضراب مقابل مزيد من المكاسب .. كان مطلبهم الذى وضعوه امامه **الافراج أو الموت !**

وفى اليوم الثانى عشر جاء **نائب الاحكام العسكرى** ، وهو يمثل النيابة وفتح محضرا باقوال المضربين ، وظل طول الليل يكتب حتى ملأ اكثر من **١٢٠ صفحة**. كان نائب الاحكام العسكرى هذا متحمسا ، كتب كل ما قيل له ، بل وكان يضيف من عنده كلاما قانونيا يفيد المعتقلين وقضيتهم ، كما اضاف كلاما سياسيا هاما بعد أن استأذن المعتقلين فى كتابته . وتعهد

بعد اقفال المحضر أن يرسله الى القاهرة مع «(مخصوص)» اى بواسطة مندوب خاص . وجاء مساء يوم ٢٣ يوليو ١٩٦١ ، أى فى اليوم السادس عشر للاضراب عن الطعام ، وتصادف أن عرفنا بخبر قدوم رئيس النيابة العامة من القاهرة ، بعد أن سمعنا من الترانزستور فى خطاب الرئيس عبد الناصر ، اعلان قرارات يوليو ١٩٦١ .

كان الزميل رمزى يوسف الذى يستمع الى الخطاب من السماعة يسجل اسماء الشركات والبنوك التى اممت والدهشة بادية على وجهه . وبعد الخطاب قراها علينا وسأل احد الزملاء الزميل « هرارى » وهو من الزملاء المنظرين لسياسة « الحزب المصرى » .

— ايه رأيك يا زميل هرارى .

وقال الرجل وكان يستمع بذهول الى اسماء الشركات والبنوك التى اممت فقال على الفور :

— ضربة حاسمة للبورجوازية الكبيرة .
— فقــــط ؟
— وقطاعات هامة من البورجوازية المتوسطة .

ونضحك :

— يعنى مش تدعيم للاحتكارية يا زميل هرارى ؟

ويبتسم هرارى :

— ده كلام يعاد فيه النظر .

وبالمناسبة .. لم يكن راى هرارى له اهميته فقط لان الرجل يملك ثروة نظرية ، وانما لأنه كان احد المحـــامين القلائل للشركات المصرية الكبرى ، وكان بحكم عمله يعرف الكثير عن الاقتصاد المصرى الذى اخذ يحدثنا عنه بتفصيل لم نكن نعرفه ، وما كان يمكن أن نعرفه الا من «محامى الاحتكارات المصرية» ! . وبالطبع لم نندهش أبدا حين شطب هرارى على كل ماقاله لحظة سماعه قرارات يوليو ، فقد كلفوه — قيادة « الحزب المصرى» — أن يلقى خمس محاضرات متتالية تتلخص فى أن هذه القرارات تدعيم لرأسمالية الدولة الاحتكارية ! كما يقول « الحزب المصرى » ! .

كانت حالة المضربين عن الطعام قد ســــاءت كثيرا ، ووصلت حالة رؤوف نظمى وعبد الله كامل الى وضع الخطر ، واستدعتنى الادارة لمقابلة رئيس النيابة العامة الذى قدم من القاهرة ، وكان معه نائب الاحـــكام العسكرى الذى قال لى بمجرد أن رآنى :

— الاضراب حتى النهاية .

ولم أرد عليه .

وصاح بحماس جعلنى استريب فيه :

ـــ الاضراب لازم يستمر .
ـــ لمـــا نشوف .

ويصرخ بصوت اكثر حماسا :

ـــ لمـــا نشوف ايه .. الاضراب حتى الافراج .. أو الموت .

وتركته وذهبت لمقابلة الزميل «المسئول المركزى» حيث أخبرته بما سمعناه منذ لحظات فى خطاب **الرئيس جمال عبد الناصر** ..سألنى والانهاك باديا على صوته الخافت:

ـــ ايه رايك ؟
ـــ رايى السياسى تعرفه جيدا .
ـــ بالنسبة للاضراب ؟
ـــ الاستمرار فيه بعد صدور هذه القرارات خطأ .

واذهب معه الى **«الزنزانة»** التى ينام فيها الزملاء الذين يشكلون **«القيادة»** المحلية للمعتقل ، ويخبرهم عن قرارات يوليو ويعلن انه لا يملك أن يتخذ موقفا يتعارض مع السياسة الرسمية للحزب . وتوافق الاغلبية من الزملاء على رأيه . ويقول احد الزملاء من الاقلية ، والذى يتفق رايه معى ، بلهجة استفزازية :

ـــ الموقف التنظيمى الوحيد هو الاستمرار فى الاضراب .. حتى الافراج أو الموت .

ويســـود صمت متوتر .. اقطعه فى هدوء :

ـــ ممكن التصرف دون الاشارة الى موقف الحزب .

ويعلق الزميل بلهجة تحس فيها التشفى لموقف « الاغلبية » .

ـــ افتكر مش مهمتك انك تطلعهم من «الورطة» !

واتجاهل كلامه واقول للزملاء :

ـــ يمكن فك الاضراب بدون كلام سياسى خالص .

كنت افكر فى شىء واحد .. هو أن لا يؤخـــذ على المعتقلين موقف الاستمرار فى الاضراب بينما كل الصحف والاذاعات العالمية تكتب عن مغزى ودلالة تلك **القرارات التقدمية** . فى نفس الوقت كان يحدونى الامل فى أن تغير قيادة الحزب موقفها عند دراسة تلك القرارات .

حاول **نائب الاحكام العسكرى** ان يعرف ماذا نوينا عليه قبل أن ابدأ حديثى مع رئيس النيابة ، لكن لم أعطه فرصة الكلام معى .

فتح رئيس النيابة المحضر .. قلت :

ـــ بعض المطالب يريدها المعتقلون .
ـــ اى مطلب يمكن تحقيقه سأنفذه .

ثم يبتسم قائلا :

ـــ طبعا ماعدا الافراج .. ليس من سلطة النيابة .
ـــ طبعا دى مسألة معروفة . لكن النيابة تملك أن تعد على الاقل .
ـــ وبماذا يمكن أن أعد به ؟
ـــ أن تتصل برئاسة الجمهورية كى ترسل لنا مندوبا نناقشه .
ـــ اعد بذلك .

ويقفل رئيس النيابة المحضر ، ويوقع عليه الزميل «المسئول المركزى» ثم يوقع رئيس النيابة ، بينما يضرب نائب الاحكام العسكرى كفا على كف ، ولكنه لا يستطيع التعليق امام النيابة .

وذات يوم فى اواخر عام ١٩٦٧ فوجئت به يدخل مكتبى فى «اخبار اليوم» وهو يرتدى بدلة مدنى ، لم اعرفه فى البداية ، كان نحيلا وضعيفا ، ذقنه غير حليقة ، وملابسه متسخة ، وحين عرفنى بنفسه صحت من الدهشـــــة :

ـــ مش معقول ؟

قال وعلى وجهه ابتسامة حزينة :

ـــ معقول ونص .

وبدأ يقص على حكايته .

فى اغسطس عام ١٩٦١ ، بعد فك الاضراب بحوالى شهر ، استدعته المخابرات العامة للتحقيق معه فى محضر الاضراب الذى كتبه . قالوا له انك خرجت عن مهام وظيفتك حين سجلت فى المحضر كلاما سياسيا فى ١٢٠ صفحة به مساس بالحكم . وقالوا له انه ظهر من التحريات التى أكدها تعاطفك الواضح مع المعتقلين فى طريقة كتابة المحضر ، انك «شيوعى» ، ونقلوه الى سيوة كضابط جيش عادى لا علاقة له بالقضاء العسكرى ، واثناء قضاء عطلته السنوية فى القاهرة عام ١٩٦٢ ، قبضوا عليه ومعه طالبين واتهموه ، بقلب نظام الحكم والانضمام الى تنظيم شيوعى ، وحكم عليه هو وزملائه بالسجن ثلاث سنوات لكل منهم .

قلت له ضــــــاحكا :

ـــ لم نترك فى الواحات .
ـــ قضيت العقوبة فى سجن مصر .

قلت بأســـف واضح .

— ظلمنـــــاك .
— وانت بالذات .
— أعترف .. وماذا تعمل الآن ؟
— ابحث عن وظيفة .
— هل استطيع مساعدتك ؟
— من اجل هذا جئت لك .

حسب الرجل انني قد أصبحت ((مهما)) !

ســــألته :

— وكيف يمكن ان اساعدك؟
— توصى على واحد من المسئولين .

انا اوصي عليه ! ومن انا ؟ يظن المسكين انني قد اصبحت ((مهما)) أستطيع أن أرفع سماعة التليفون واطلب احد المسئولين واقول له .. وظف هذا الرجل !

قلت له وانا اضحك :

— هل تظن انني « مهم » ؟

قال بدهشــــة ..

— تتولون مناصب هامة فى الدولة والاتحاد الاشتراكى والصحف .
— وهيصيش فيه الكثيرون .
— الكل يؤكد انها حقيقة ..
— ابدا ، ابدا .
— ماذا اذن ؟
— **ديكور يا عزيزى !.**

وبدا على الرجل للحظة انه لا يصدقنى . ولكن يبدوا أن نبرات صوتى وتعبيرات وجهى كانت تنطق بصدقى . قال الرجل برجاء :

— حاول .. ارجوك ..

قلت :

— ربما اجد من ارجوه ليكلم واحد من المسئولين .

ولم أره بعد ذلك مرة ثانية . يبدو أن الرجل اقتنع بأننى لست ((مهما)) واننى غير قادر على عمل اى شيء له .

وبعد اقل من شهرين منذ صدرت قرارات يوليه ، وفى سبتمبر ١٩٦١ وقع الانفصال السورى . وازداد لهيب الصراع بين الزملاء .

— مؤامرة رجعية استعمارية .
— بل لقد تحررت سوريا .
— الرجعية العربية وراء الانفصال .
— أيده الحزب الشيوعي السوري .
— والتقى مع الرجعية والاستعمار .

وحين اجتمع **محافظ الوادي** الجديد بجميع المعتقلين والمسجونين ، والقى ممثلو التنظيمات كلماتهم ادانت ((**حدتو**)) الانفصال ، وأوضحت أن القوى التي تتعارض مصالحها مع الاشتراكية هي التي وراء الانفصال . وتحدث مندوب ((**الحزب المصري**)) عن موقف الشيوعيين عندما قامت الوحدة ، فهم لم يكونوا ضدها وانما كان لهم مآخذ على التطبيق ، ولم يقل أن الانفصال قد حقق ((**حرية سوريا**)) ! وطالب مندوب ((**الافق**)) بعد أن ادان المؤامرة الاستعمارية ، باطلاق الحريات الديموقراطية لكل الشعب ، واقامة الاحزاب الوطنية وفي مقدمتها الحزب الشيوعي ، فهي الضمان الوحيد لصيانة وتدعيم اجراءات يوليو التقدمية .

وبعد الاجتماع انهالت الاسئلة على الزملاء في ((**الحزب المصري**)) . لماذا لم تعلن قيادتكم رأيها في الانفصال ؟ لماذا لم تتفقوا بوضوح مع الحزب **الشيوعي السوري** ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟ . وتخرج الصحف الثلاث صباح كل يوم تتبادل الشتائم والاتهامات ، وتزداد حيرة الزملاء البسطاء . ويفرك **المصيلحي** يده من فرط سعادته ، ويبعث بقوائم جديدة بأسماء المعتقلين المطلوبين للسفر الى ((**القلعة**)) لاجراء عمليات **غسيل المخ** ، وتتساقط هناك **أعداد اخرى** ، ويعود الذين مازالت دماغهم ((ناشفة)) الى الواحات .

وفي اوائل **ديسمبر عام ١٩٦١** وصلنا خبر مثير ، **سكرتير الحزب الشيوعي المصري** وكان هو الوحيد الذي لم يقبض عليه من أعضاء القيادة ، قدم دفاعا سياسيا امام **محكمة الدجوي** يعلن فيه **تأييده** لكل الاجراءات التقدمية التي حققتها ثورة ٢٣ يوليو ، ويدين الانفصال السوري كمؤامرة رجعية استعمارية ، ويطالب بالديمقراطية والحريات السياسية واقامة الجبهة الوطنية .

وعندما حضر الى الواحات بعد الحكم عليه بالاشغال الشاقة ، جرى بيننا حوار أحكي لك عنه يا حبيبتي في رسالتي المقبلة .

١٧ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـــالة رقم (٥٩)

حبيبتى

كان نمطا طريفا من الصداقة بينى وبين **الشهيد ابراهيم عامر** . فى احدى المرات الكثيرة التى التقينا فيها ــ **بجوار سور سجن المحاريق** ــ لمناقشة بعض القضايا الفكرية .. سألنى :

ــ ايه رأيك ؟ عندى احساس بانك تجلس معى مضطرا ؟

سألته :

ــ فى كل جلساتنا ؟

سكت قليلا .. وقال :

ــ لا .. بعضها .

قلت ضاحكا ..

ــ معك حق .

سأل بدهشـــة :

ــ وما الذى يضطرك ؟
ــ لانى **احبك** .. وفى نفس الوقت **أخاف** منك .

قال على الفور :

ــ فهمت .
ــ وطبعا تستمر جلساتنا ؟

قال بحماس :

ــ بل وأقترح زيادتها
ــ موافق .

لم اكن اعرف الزميل **الشهيد ابراهيم عامر** قبل ان التقى به فى سجن **المحاريق عام ١٩٥٩** . بعض الذين عرفوه الصقوا به تلك الاتهـامات التقليدية « مراجع ، مرتد ، تروتسكى .. الخ » . وحين التقيت به لم يكن اسمى قد وضع بعد فى قائمة المتهمين بتلك الاتهامات ، ولهـذا كنت أخاف منه ! لكن رغبتى فى التزود بالمعرفة كانت تشدنى للجـلوس معه ساعات طويلة استمع منه خلالها الى قراءاته العديدة والمتنوعة والتى لم أقرأها . ورغم اننى فى كل مرة كنت اضع التحصينات اللازمة حـول

عقلى حتى لا يتأثر بكلام « **المرتدين والمراجعين** » المدانين من « **الامية** » فقــد كان بعض هذا الكلام يخترق تلك التحصــينات ويلتقطه عقلى ويختزنه !

وجاءت لحظة وجدت فيها عقلى يخرج بعض ما اختزنه خــلال اكثر من ثلاث سنوات .. بعض المفكرين الكبار الذين **اجبروهم** على أن يقدموا « **نقدا ذاتيا** » ! والبعض الذين رفضوا « **نقد** » أفكارهم ففصلوا من احزابهم ! وآخرون قدموا استقالاتهم وانضموا الى المعسكر المعادى ! اذا لم يكن كل هذا صحيح تماما ، ففيه **جــزء من الحقيقــة** تضخم منه الدعايات الاستعمارية والرجعية ، فى حربها ضد بعض الاحزاب الشيوعية. هذه الاحزاب ، بدلا من أن تراجع ممارستها الخاطئة لمبدأ « النقد والنقد الذاتى » تــكتفى بادانة كل من يحاول مناقشــة تلك الممارسات ونتائجها المدمرة .

خلال اقل من ١٥ يوما تجسدت امامى حقيقة الممارسة الخاطئــة لمبدأ « **النقد والنقــد الذاتى** » على يد عدد من قيادات الاحزاب الشيوعية حتى اصبح أسلوبا « **عصريا** » من اساليب **محاكم التفتيش** ضد كل من يحمل فكرا يهدد فكرها وبالتالى يهدد « **سلطتها** » !

كانت ملامح هذه الحقيقة تشكلها لقاءاتى الثلاثة مع الزميل سكرتير « **الحزب الشيوعى المصرى** » عند حضوره الى سجن « المحاريق » بعد محاكمته وصدور الحكم عليه فى **اوائل عام ١٩٦٢** .

خلال لقاءنا الاول اتضح اتفاقنا الكامل على الجوانب الاساسية للسياسة التى يجب أن يتبناها التنظيم ــ خاصة بعد اجراءات يوليو ١٩٦١ ــ والتى أعلنها **أمام المحكمة** عند محاكمته ، وأصدر بهــا تقريرا . واتفقنا كذلك على ضرورة أن تقوم « **القيادة** » بعمل تقييم لمواقف التنظيم منذ تمت الوحدة فى ٨ **يناير ١٩٥٨** ، سياسيا وتنظيميا بغرض استخلاص دروس يمكن أن تكون أساسا لمناقشة موضوعية مع زملاء « **حدتو** » . وعندما عرضت عليه فكرة مناقشة هذا التقييم فى **المؤتمر الاول** «للحزب» الذى حل موعده كما جاء بلائحة التنظيم ، وافق بحماس شديد . وفى ختام ذلك اللقاء الاول أبديت له بعض مخاوفى من أن يحدث **ضغط** عليه من جانب زملائه حين يصورون له أن تغيير خطهم السياسى الحالى يعنى هزيمتهم وهزيمة « **تيار تاريخى** » لصالح « **تيار تاريخى آخر** » أى يعنى هزيمة تيار « العمال والفلاحين » وانتصار تيار « المصرى القــديم » ، قال بغضب انه يرفض هذا التفكير « **الحلقى** » المدمر ! وأنه قــد آن الاوان لتصفية كل الافــكار « **الشللية والحلقية** » التى اضرت بالحركة الثــورية وجعلتهــا عاجزة عن الحــركة . وحين ســألته : **مــاذا سيكون موقفك لو مارسوا عليك الضغوط كى تغير موقفك السياسى ؟ قال بحسم :**

— تأكد يا زميل باننى لن أرضخ لاى ضغوط لاجبارى على تغيير موقفى الذى اعلنته فى المحكمة باقتناع كامل . وأنا على ثقة بأن موقفهم سيكون هو موقفى .
— وإذا أصروا على موقفهم ؟
— فى هذه الحالة سوف يكون موقفى مع « الاقلية » .

كنت أعتبر ان هذه المقابلة يمكن ان تكون بداية **مرحلة** جديدة فى مسار الحركة الثورية ، فان اقتنعت « الاغلبية » **بخط سياسى جديد** « للاقلية » ومعها سكرتير الحزب الذى تولى هذا المنصب بحكم موقعه فى « الاغلبية » السابقة ، ويمكن ان يحتفظ به فى « الاغلبية » الجديدة فان ذلك يعتبر نصرا هائلا للحركة الثورية المصرية . وان أصرت « الاغلبية » الحالية على موقفها وأصبح « سكرتير الحزب » فى « الاقلية » يتفق فى الرأى مع تيار تاريخى غير تياره التاريخى التقليدى ، فان هذا الموقف سوف يكون ضربة هائلة للتفكير **« الحلقى »** وبالتالى بداية **مرحلة انصهار « التيارات التاريخية »** فى تيار واحد يواكب مسار الحركة الثورية ومتطلباتها المتغيرة الجديدة . لم يعلق **مجدى فهمى** على حديثى . . وللمرة الاولى خلال رحلتنا الطويلة المشتركة لم أطلب منه تعليقا ، ورحت فى نوم هادىء عميق مع **حلم عمرى . . « انصهار التيارات التاريخية المختلفة فى تيار واحد »** !

وتجدد الامل فى تحقيق « حلم عمرى » خلال المقابلة الثانية مع الزميل « السكرتير » . فقد اتفقنا على أنه لا بديل « لانصهار التيارات التاريخية المختلفة » غير مزيد من تحلل الحركة الثورية وتفتتها . وان التمسك بموقفه ، وهو الذى يحظى بثقة وتأييد عدد كبير من زملائه « التاريخيين » ومن « المصرى القديم » ومن التيارات الاخرى سوف يكون البداية الحقيقية **للوحدة بين التنظيمات** . تلك الوحدة التى حالت أسطورة **ادعاء** كل تنظيم بأنه **« التيار الثورى الوحيد »** دون تحقيقها منذ بدأت محاولاتها الاولى فى الاربعينات بين « الحركة المصرية للتحرر الوطنى » و « الشرارة » فى تنظيم « الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى » التى افرخت بعد شهور « التكتل الثورى » و « العمالية الثورية » و « نحو حزب شيوعى » و « صوت المعارضة » و « نواة الحزب الشيوعى » و « طليعة الشيوعيين » والى جانب هذه التنظيمات كان « الحزب الشيوعى المصرى » ، تنظيما صغيرا أيضا معظم قيادته واعضاؤه من « حدتو » ، وفضلا عن كل تلك التنظيمات ، كان يوجد تنظيم كبير لم يشترك فى وحدة الاربعينيات هو « الديموقراطية الشعبية » الذى أصبح « حزب العمال والفلاحين » وحصل على اغلبية مقاعد اللجنة المركزية فى **وحدة ٨ يناير ١٩٥٨** بينه وبين « الحزب الشيوعى المصرى » وبين « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى » بعد أن عادت اليها معظم التنظيمات التى انشقت عنها وحصول عدد من قادتها على مقاعد فى قيادة « حدتو » ثم فى قيادة حزب وحدة ٨ يناير ١٩٥٨ .

وفى لقاء ثالث بينى وبين الزميل السكرتير فوجئت به يقول لى انه أعاد دراسة موقفه السياسى الذى أعلنه فى **المحكمة** فاكتشف انه وقع تحت تأثير سياسة « **حدتو** » وانزلق دون أن يدرى الى **الفكر اليمينى !** وقال أنه يرجونى أن أراجع موقفى السياسى ولكن بعد أن أتحرر من التفكير « الحلقى » ! والالتزام « بالتيار التاريخى » !

لم أعلق على كلام الزميل بكلمة واحدة وانصرفت .. وأنا على ثقة من اننا لن نلتقى مرة أخرى فى **حوار آخر** .. ثم التقيت به بعد أيام مع عدد كبير من الزملاء الذين جلسوا فى « طرقة » عنبر (٣) فى انتظار البيان الذى سيذيعه و « ينقد » فيه نفسه ، وفجأة ارتفعت بعض الحناجر بهتافات .. تنادى بسقوط **الحكومة** وعملائها المندسين وحياة الحزب وسكرتيره ، ويبدأ الاجتماع بكلمة زميل « قيادى » ندد فيها بالفكر اليمينى البراق الذى استطاع أن يؤثر فى « **سكرتير الحزب** » وجعله يقف موقفا سياسيا خاطئا ، لكن زملاؤه استطاعوا « بالمناقشة » أن يساعدوه على اكتشافه أخطائه المدمرة .

وترتفع حناجر بنفس الهتافات . وتتوالى تعليقات عدد من الزملاء من التنظيمات الاخرى ، ويبدأ « **السكرتير** » فى القاء كلمته . كان وحده فى الخارج بعيدا عن زملائه فوقع **ضحية الفكر اليمينى** ، ولما اجتمع بزملائه اتضح له أن رأيه السياسى **خطأ** ويلتقى مع الآراء المعادية **للطبقة العاملة !** وأنه الآن يوافق على خط الحزب « **الطبقى** » ! ويستنكر آراءه السابقة التى تخدم مصالح « البورجوازية » وتلتقى مع الفكر الرجعى واليمينى !

بعد ذلك الاجتماع « الخطير » التف حولى عدد من الزملاء « يأخذون بخاطرى » ! ويعزوننى فى وفاة « **حلم عمرى** » الذى مات قبل أن يولد .

واسمع صوتا ينادى على من بعيد :

— خير .
— اجتماع « القيادة المحلية » .

ويبدأ الاجتماع بكلمة من رئيس الجلسة يحيى فيها الموقف الشجاع للزميل « السكرتير » ويقدم صيغة قرار بذلك للتصويت . وترتفع أصابع « الاغلبية » بالموافقة . ويسأل رئيس الجلسة : من المعترض ؟ أرفع يدى ، وزميلان آخران . ويسأل رئيس الجلسة : من الممتنع ؟ لا أحد يرفع أصبعه . يقول بغضب لزميلين :

— يبقى ايه موقفكم يا زملا ؟

يقولان فى صوت واحد :

— عدم الاكتراث .

وقبل ان يواصل رئيس الجلسة الاجتماع ارفع يدى فى طلب كلمة .. اقــــول :

— لاسباب سياسية وتنظيمية تعرفونها جيدا .. اقدم استقالتى من « اللجنة القيادية » .

ويفاجأ الجميع بالموقف . ويقول رئيس الجلسة :

— ندرج الاستقالة فى جدول الاعمال .

وأسأل :

لمــاذا ؟

— ربما لا توافق اللجنــة .
— لن يغير هذا منموقفى .
— تخرج على راى « الحزب » ؟
— ليس هناك ما يجبــرنى على البقاء .
— تبقى بقــرار .
— من قال هــذا ؟
— مبادىء التنظيم ..
— أهدرتموها بما يكفى .

وحين اهم بالخروج من الغرفة يصر أحد عقلائهم — على أن أبقى لاسمع بعض القرارات التنظيمية الهامة . وأوافق بشرط ان يبدأ الاجتماع بها . ويعلن رئيس الجلسة قرارا من « اللجنة المركزية » بعمل «كونفرنس» لمناقشة الخط السياسي للحـزب ، ويذيع أسماء الاعضــاء فى هــذا «الكونفرنس» . كان اسمي بينهم ومعى ثلاثة آخرين من الزملاء الذين يتفقون معى ، واكثر من ثلاثين زميلا من الراى الآخر الرسمي . وقبل ان تبدأ المناقشة اهم بالوقوف للانصراف ، ويسأل رئيس الجلسة :

— ما رأيك فى هذا القرار ؟
— حلو .. يفرح « العيال » .

يغضب .. ويحتج ويطلب من زملائــه النظــر فى امرى لاهانتى « القيادة » بينما اغادر الغرفة .

ما كدت أجد مكانا الى جوار سور السجن الخارجى استظل فيه خلال وقفة مع النفس ، حتى وجدت عددا من الزملاء الذين شاهدونى وأنا أخرج من غرفة الاجتماع يجلسون الى جانبى . سألونى عن اســباب خروجى من الاجتماع قبل أن ينتهى ، فلما لم اقل لهم شيئا احترموا رغبتى فى عدم الكلام .

كنت بحاجة الى ان انفرد بنفسى ، لكن بعد دقائق اسمع صوت سجان ينادى على :

ــ المأمور عاوزك فى مكتبه .

وما أن لمحنى المأمور وكان يهم بركوب عربته حتى قال لى :

ــ انت فين .. أكثر من ساعة وأنا منتظرك .
ــ كنت قاعد جنب السور ..
ــ طبعا يا عم .. سرحان فى بره .. كلها كام يوم وتخرج .
ــ أخرج .. والا ارجع معتقل .. ؟

ويقول المأمور بثقة ..

ــ مفيش اعتقال .. راح تخرج .
ــ يا ريت .. وهو أنا غاوى سجن .
ــ على العموم أنا نازل القاهرة وراح اجيب لك الخبــر اليقين من المباحث .

كانت العشر سنوات الأشــــغال شاقة التى حكم على بها قد مرت ولم يبق غير ١٥ يوما على انتهاء مدة العقوبة . وقبل أن ارحل الى القاهرة للافراج عنى كان المأمور قد عاد منها يحمل معه تأكيدا من المباحث العامة بأنه سوف يفرج عنى ولن اعتقل ، وينتشر الخبر بين الزملاء وتسود موجة من التفاؤل وتجرى عددا من الرهانات بين الزملاء .. وتنطلق اشاعة تربط بين قـــرب انتهــــاء مـــدة العقوبة وبين استقالتى من «القيادة المحلية » !

احكى لك هذا كله فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٢٢ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـالة رقم (٦٠)

حبيبتي

هل تذكرين قصة علبة « **السلمون** » التي حدثتك عنها في احــد رسائلي الاولى السابقة اليك . وكيف كانت **المباحث العامة** تدبر لي قضية اخرى بعد انتهاء **العشر سنوات اشغال شاقة** التي حكم بها علي ؟ قبل ذلك اليوم الذي هاجمتني فيه المباحث العامة في سجن مصر بحوالي ١٥ يوما ، وكنت ما ازال في سجن المحاريق اتهمت بانني دفعت **ثمن الافراج** عني ! كان الثمن كما قال الزميل (...) وسط عدد من الزملاء هـــو استقالتي من « القيادة المحلية » ! وقال أن اتفاقا قد حدث **بيني وبين المباحث العامة بواسطة المأمور** بأن استقيل من « الحزب » نظير الافراج عني ، لذلك ذهب المأمور بعــد هذه الاســـتقالة يحمل للمباحث العامة خبرها وعاد يحمل تأكيدها بالافراج عني ! كاد بعض الزملاء ان يضربوه لولا تدخل بعض العقلاء من زملائه وهدد آخرون مثل الدكتور **محمــود القويسني** ، بانهم سوف يقدمون استقالاتهم من التنظيم اذا لم تصـــدر « القيادة » بيانا يدين هذه الافتراءات القذرة . وحين جاءني زميـــل من « القيادة » في نفس اليوم يقدم الاعتذار ويطلب مني أن أحضر اجتماعا للقيادة لتأكيد ثقتها بي ، رفضت الاعتذار ، كما رفضت حضور الاجتماع .

ورغم أن « القيادة » اصدرت بيانا في مجلة « **الطريق** » في صباح اليوم التالي تعلن فيه توجيه « اللوم الشديد » للزميل (...) ، ويؤكد ثقتها بي ، وينبه الى انني لم استقيل من « الحزب » وانما من « القيادة المحلية » ويدعوني الى العودة اليها بعد رفض الاستقالة ، ورغم اعتذار كل أعضاء « القيادة » لي وحديثهم « الحلو » عن تاريخي « **المجيــد** » ونضالي « **المشرف** » وانهم يعتمدون علي في تنشيط العمل بالخارج اذا أفرج عني ، فانني م اقبل حرفا واحدا من كل هذا الكلام . كان احساسي **بالمرارة** أثقل من ملايين أطنان كلامهم « **الحلو** » . ليس موقفا ذاتيا بقدر ما هو موقف موضوعي .

لماذا هذا الاصرار على توجيه الاتهامات « بالبوليســية والعمالة و . و . » لكل من يرتفع صوته براى مخالف « لاى قيادة » منـــذ الاربعينات وحتى اليوم ؟ مئات من ابناء الشعب الشرفاء ادانتهم « القيادات المختلفة » منـــذ بدأت الحركة الثورية في الاربعينـــات ، ولم تتوقف حتى اليوم . **من المسئول عن تدني الصراع بين التنظيمات المختلفـــة ، وداخل كل تنظيم ، الى هذا الحد ؟ علامات استفهام** أمام عناصر بعينها تصـــدت لقيادة الحركة الثورية ، ولكن لا احد منهم يجيب عليها .

واحسب يا ابنـــة الستينات أن قدراتك **الذاتية فضلا** عن ظروفك **الموضوعية** تمنحك فرصة الاجابة على **علامات الاستفهام** هـــذه وأنت تؤرخين **للاربعينيات** .

على انني مازلت حتى اليوم احس **بمرارة** الخمسة عشر يوما الاخيرة لى فى سجن « **المحاريق** » قبل نزولى لسجن مصر « **للافراج** » عنى ، او « **لاعتقالى** » او « **للحكم** » على فى قضية اخرى كانت تلفق ضـــدى . واجد نفسى اليوم اعقد مقارنة بين « زملاء » **اعمت ذواتهم قلوبهم** ففقدوا انسانيتهم ، وبين بعض « **الضباط** » الذين نشأت بينى وبينهم عـلاقة **انسانية** كما أوضحت لك فى بعض رسائلى السابقة اليك . كان المأمور (...) هو الذى ذهب الى **المباحث العامة** ليسأل ان كان سيفرج عنى أم لا ، فقالوا له انه سيفرج عنه . وجاء الرجل يزف الينا الخبر وهو سعيد بالافراج عنى وعن الجميع كما قال . **فما الذى دفعه الى ذلك سوى الجانب الانسانى فى داخله ؟**

ربما لم يتحمس للقيام بهذه المهمة الا بالنسبة لى فقط . فاذا كان تحمسه هذا ليس لسبب «**بوليسى**» ، وليس لانه «**قريبى**» فهل يمكن أن يكون هناك سبب آخر غير **الصداقة ؟** . وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ ولكن بعض «**الثوار**» ويا للاسف وقد غلبوا **ذواتهم** ، وفقدوا انسانيتهم لم يعد فى قدرتهم سوى تشويه العلاقات الانسانية .

وعند مقارنة التعامل الانسانى بين البشر خلال الخمسة عشر يوما قبل نزولى من سجن « المحاريق » ، الى سجن « مصر » فى أواخر فبراير **١٩٦٢** ، اجد الزميل (...) وبعض مريديه يقاطعوننى مقاطعة تامة ، ولا يحضرون الاحتفال الذى اقامه لى الزملاء لتوديعى ليلة سفرى الى القاهرة ، ولا يسلمون على صباح يوم مغادرتى سجن المحاريق الى سجن مصر . بينما اجد مأمور السجن يدعونى لتنـــاول الشـــاى معـــه ونتبادل حديثا انسانيا ، وعند مغادرتى بوابة السجن الخارجية يتقدم نحوى ويعانقنى ، وقبل أن تتحرك بى السيارة يصعد اليها ليودعنى مرة اخرى وهو يعانقنى ويؤكد على ان اتصل به بعد خروجى .

غير ان لحظات اخرى انسانية عشتها بين الزملاء من التنظيمـــات المختلفة ضاعفت من ثقتى « بالانسان » . الدكتور **محمـــود القويسنى** رحمه الله جلس معى مرات عديدة تبادلنا خلالهـــا ذكريات انســـانية ومازلت أرى حتى اليوم دموعه الابوية وهو يوصينى بالذهاب الى منزله وزيارة ولديه « أيمن » و « امانى » . والمرور عليهما كلما وجـــدت فرصة لذلك . **والدكتور شريف حتـــاته وزكى مراد محمد شطا ورفعت السعيد** الذين أصروا على أن يقيموا لى احتفالا خاصا شربت خلاله الشاى والسجاير «زى ماانا عاوز» كما قال **محمد شطا** . ومازلت اذكر كلماتهم الانسانية التى قالوها لى فى ذلك الاحتفال . **ورفعت صالح** المدرس بمدرسة خاصة « **بعشش الترجمان** » اوصانى أن أزور زوجته وأولاده الصـــغار

واشـــــترى لهم بعض الحلوى واقول لهم انهـــا من « بابا » . ورمزى يوسف الذى أوصانى ان اقبل أولاده يوسف وماجده وفاتن وأن أشرح لهم لمـــاذا هو مسجون ، وان لا يسمعوا كلام « امهم » التى تضغط عليه بواسطتهم كى يخرج من السجن بشروط المباحث . وعشرات من الزملاء جلسوا معى يتحدثون عن مشاكل أولادهم وعائلاتهم ويوصوننى بأن أعمل ما بوسعى للتخفيف منها حتى يعودوا اليهم . لقد قضيت معهم كل ساعات الليل والنهار طوال الخمسة عشر يوما التى سبقت نزولى الى ســجن مصر ، عاشوا خلالها على امل أن يفــــرج عنى وابذل جهدا للتخفيف من معاناة أهاليهم ، أما الليلة الاخيرة قبـــل مغادرتى سجن « المحاريق » فقـــد خصصتها لعم شعبان حافظ الذى يمثــل بالنسبة لنـــا تاريخـــا كاملا فمنــذ العشرينات وحيـــاة شعبان حافظ ســـلسلة من التضحيات من اجل مصر . فقـــد شارك مع حسن العرابى وســـلامة موسى وعبـــد الله عنان والشيخ صفوان ابو الفتح والشيخ عبد اللطيف نجيب وانطون مارون ، فى أول تنظيم سياسى يتبنى الاشتراكية العلمية . ومنذ حكم عليه هو وزملاؤه بالسجن فى اكتوبر ١٩٢٤ ، وهو يخرج من السجن ليعود اليه مرة أخرى ، وهكذا ، ثم كانت المرة الاخيرة التى دخل فيها السجن فى يناير ١٩٥٩ ، وكان عمره ٧٥ عاما .

كان تقديرى ان جلستى مع عم شعبان حافظ التى بدأت مع غروب شمس ذلك اليوم لن تستمر أكثر من ساعة ، اجلس بعدها مع بعض الزملاء الاصدقاء الذين لم أتحدث معهم بعد ، لكن الجلسة معه طالت حتى الفجر ، بعدها أصر على ان أنام الى جانبه الساعات الباقية على شروق الشمس .

كان حوارنا متصلا بكل صوره الانسانية . ما أن جلست الى جانبه على « برشه » الذى غطاه ببطانية وملاءة بيضاء نظيفة . وضع يده على كتفى وسألنى :

— كل حاجتك جاهزة ؟
— لسه يا عم شـــعبان .
— وليه يا ابنى ماجهزتش نفسك ؟
— قبل ما أنام راح أوضب كل حاجة .

نهض واقفا ومد يده الى كى انهض معه . قلت له :

— ماحنا قاعدين هنا يا عم شعبان .
— أيوه . . بس تعالى معايا .

واخذنى من يدى كما يأخذ الاب طفله الصغير وذهب بى الى الزنزانة التى اعيش بها . قال وعلى وجهه ابتسامة حب وحنان :

— فين ملابسك ؟
— أهى

واخذ « **يلمها** » بنفسه ويضعها في كيس حمله في يد وامسك يدي باليد الاخرى ، وقال :

— ياللا بينا . .

وقبل أن نغادر الزنزانة في طريقنا الى زنزانته مرة اخرى يقول **رمزي يوسف** .

— ايه يا عم شعبان . . عاوزين درش شوية ؟
— يا أخي ما هو طول عمره معاكو . . راح ينام عندي الليلة .

ويجري وراءنا **محمود شندي** . . ويصيح . .

— مش ممكن يا عم شعبان . . احنا عاملين له حفلة الليلة .

ويرد عليه بحسم :

— انا قلت راح ينام عندي . . يعني راح ينام عندي .

ونصل الى زنزانة عم شعبان . يضع « **مخلة** » ملابسي برفق على « **برشه** » ، يفتحها ، ويقول :

— البدلة مالها مكرمشة كده ؟
— بقالها عشر سنوات يا عم شعبان .
— وراح تلبسها وهيه مكرمشة كده ؟
— أكويها فين .

ويضحك قائلا :

— أوريك ازاي ؟

يمسك بنطلون البدلة يطبقه بعناية ، كذا « الجاكت » يطبقها بطريقة خاصة ويضعهما على البطانية فوق « **البرش** » ثم يأتي بأكثر من ١٠ بطاطين التي تخص **زملاءه** في « **الزنزانة** » ويضعها فوق البدلة . ثم يقول ضاحكا :

— تبقى منها « مرتبة » ومنها تكوى البدلة .

ثم يسألني :

— فين حذاءك ؟

وما أن يراه حتى يقول بغضب الاب :

— كده برضه . . تنزل مصر بالجزمة الوسخة دي ؟

يضع يده في « **مخلته** » التي يستخدمها « **مخده** » ويضع رأسه عليها عندما ينام ويخرج منها قطعة قماش ، وعلبة **ورنيش أسود** . ثم يجلس على حرف البرش ويبدأ في تنظيف الحذاء .

واصيح محتجا :

— مش معقول يا عم شعبان .. ايه اللى بتعمله ده ؟

ويرد على بحزم الاب :

— بس .. اسكت انت .

واسكت ولكن وانا مذهول . عم شعبان حافظ .. **هــذا التاريخ يقوم بكل هذه البساطة بتنظيف حذائى ؟ ماذا يدور فى اعماقه ؟** لم تــكن علاقتى به قوية الى هذا الحد ؟ ولا اذكر اننى جلست معه ســوى مرات قليلة جدا على مدى الثلاث سنوات السابقــة منذ اعتقل وجــاء الى الواحات . كثيرون غيرى من الذين انهوا مدة السجن عليهم وسافروا الى القاهرة لم يفعل معهم **عم شعبان** ما يفعله معى ؟ حتى الزملاء الذين يعيش معهم فى زنزانة واحدة كانوا مذهولين مثلى وربما اكثر . انــه يعاملهم معاملة الاب لاولاده ولكن ليس على هذه الصورة . وتتوالى تعليقاتهم ، بينما يقوم هو بتنظيف حذائى :

— هو درش ابنك البكرى يا عم شعبان ؟

ويرد عليهم :

— لا .. ده ابني الوحيد .
— واحنا مش اولادك ؟

ويقول ضاحكا :

— انتم زى اولادى ..
— لكن احنا اولى .. احنا عايشين معاك ليل ونهار .

ويلخص « الرجل » خبرته فيقول :

— **اعظم وارقى واقوى علاقة انسانية يمكن ان تبدا فى الدقيقة الاولى وعند اول لقاء بين انسان وآخر .**

وتدفعنى كلمــاته الانســانية بكل قوتها الى احتضــان عم شعبان حافظ والدموع تجرى من عينى **تحــكى لابن العشرينيات معــاناة ابن الاربعينيات !**

ويطلع علينا الفجر بعــد حديث طويل مع عم شــعبان ويقول لى بحنان :

— نام بقى الكام ساعة دول .. الرحلة طويلة .

وامد جسمى على « **البرش** » الى جانب « **برش** » عم شعبان . يضع على جسمى ثلاث بطاطين خوفا على من برد **الصحراء** . واروح سريعــــا فى نوم هادىء . ومع شروق الشمس افتح عينى **لترى صورة انسانية يجســدها وجه عم شعبان وحافظ** ، ابتسامة حانية تــكسو

وجهه الابيض المائل الى السمرة وشعر راسه الناصع البياض يكسبه مهابة . يقول :

ــ يالله قوم بقى علشان تروح .

وارد ضاحكا :

ــ اد كده انت متفائل يا عم شعبان ؟
ــ يا ابنى الواحد لازم يكون متفائل دائما .

وظل الرجل معى لا يتركنى لحظة واحدة . ذهب معى الى المغسل يرقبنى وانا اغسل وجهى . ثم اخذنى الى زنزانته ، واعد لى الشاى بنفسه . ثم اخرج البدلة من تحت البطاطين وقد زالت الكرمشة منها . واحضر لى القميص من على حبل مشدود وسط الزنزانة كان قد « نشر » القميص عليه بعد ان « بخ » عليه قليلا من الماء كى « ينفرد » . وكان فى الكيس « كرافتة » واحدة هى التى دخلت بها السجن منذ عشر سنوات لم « تعجبه » واحضر لى اخرى « موضة ١٩٥٩ » كان ابنه قد اهداها له قبل اعتقاله . وامسك بحذائى يضع عليه « اللمسات الاخيرة » مرة بالفرشاه ، ومرة بقطعة قماش ومرة ثالثة واخيرة « بـكم » بدلته . وبعد ان ارتديت ملابسى وصرت « افنديا » لاول مرة منذ عشر سنوات ، تملكنى احساس طفل يلبس بدلة العيد لاول مرة فى حياته .

ــ آخر شياكه يا درش .. دى البدلة لسه جديدة .
ــ لبستها مرتين فقط .. والمرة الثالثة اعتقلونى بها .

ورغم انه كان اقصر منى فقد كان مصرا على ان يضع يده على كتفى ، وانا فى طريقى الى البوابة الخارجية كى اركب السيارة الى اسيوط ومنها الى القاهرة . كنت انا وعم شعبان الذى لم يرفع يده عن كتفى حتى افترقنا ، ككيان واحد يتحرك وسط عشرات الزملاء الذين احاطوا بى كى يودعوننى .. ويودعونه ايضا . لكن وداعهم لى تم بعده لقاء بعد عشرين يوما حيث عدت اليهم معتقلا ، وكان وداع عم شعبان حافظ هو الوداع الاخير .

بعد عودتى من القاهرة التى ذهبت اليها مسجونا انهى مدة العقوبة وعدت منها معتقلا الى زمن غير معروف ، حكى لى الزميل رمزى يوسف تفاصيل اللحظات القاسية التى عاشها عم شعبان حافظ بعد ان غادرت سجن « المحاريق » .

حوالى ثلاثة دقائق بعد ان تحركت بى السيارة من امام سجن « المحاريق » وعم شعبان حافظ ما يزال يلوح بيديه يودعنى ! التف حوله عدد من الزملاء حين لاحظوا حركة يديه التى لم تتوقف بعد ان غابت السيارة عن الانظار ، الدموع تجرى من عينيه ، انفعالاته تحيل وجهه الابيض الى كتلة من الدم ، وفجأة يسقط على الارض مغشيا عليه .

حمله الزملاء الى زنزانته وحاول الاطباء انقاذ حياته .. لكنه كان يعاني سكرات الموت . مات بين ابناءه واحفاده نظيفا ، شريفـــا فى معركة الشرف والبطولة بعـــد نضال ٤٥ عاما متصـــلة . مات انسانا ، وابا حنونا أعطى حتى انفاســـه الاخيرة الحب ، والامل ، والحنـــان لواحد من ابناءه .

رنة **حزن** عظيم تخيم علم **السجن** كله. الفنانون **داود عزيزووليماسحق ومجدىنجيبوسعيد عبدالوهاب،والمهداوى** يمسكون بلوحاتهم وفرشاتهم يسجلون بسمة الامل الكبير على وجه **انسان عظيم** . والفنان **حسن فؤاد** ينحت بسرعة تمثالا لوجه بطل مات فى المعركة ، والفنان **صبحى الشارونى** يشكل للاب الحنون وجه من المصيص ، والمـــأمور « ... » يعود من مستشفى الواحات ومعه طبيب كي يحنط الجثة حتى تصل نظيفة الى أهله فى القاهرة . وينتظم كل الزملاء فى صفوف منتظمة ، يدخلون الواحد بعد الاخر . الى حيث يرقد الشهيد يلقون عليه النظرة الاخيرة . ويحمل الجثمان أربعة من السجانة ويسيرون به فى المقـــدمة وخلفهم كـــل الزملاء والسجانة والضباط والمأمور .. ونشيد حزين ترتفع نغماته مع الخطوات الحزينـــة .

وبعد أن تطوف الجنازة عنابر السجن وحوشه ، ينتظم **المـــأمور والضباط والسجانة** فى حرس شرف ويؤدون **التحية العســـكرية** للجثمان وهو فى طريقه الى السيارة التى ستنقله الى القاهرة .

خلال الايام التى قضيتها فى القاهرة فى **سجن مصر وسجن القناطر الخيرية والمباحث ومعتقل القلعة لم يصلنى خبر موت عم شعبان حافظ .** وخلال تلك الايام كنت أتأمل **ثلاثة نماذج** من بنى البشر . واحد حاول أن **يلوث** سمعتى ، وآخر كان طرف فى **مؤامرة** ضدى لمحاكمتى من جـــديد ، **وانسان** ملأنى بحبه وحنانه ليلة مغادرتى سجن **المحاريق** . وعند عودتى معتقلا كان أول من سألت عنه هو عم شعبان حـــافظ وتجاهل الزملاء سؤالى . وعندما أقاموا لى حفلا لتحيتى لم أجد من بينهم **شعبان حافظ ..** همست فى اذن **رمزى يوسف اساله** ، فقال انه مريض ونزيل مستشفى الواحات . وبعد احتفال الزمـــلاء بى طلبنى المـــأمور الى مكتبه . قال بغضب :

— انت مالكش أهل ؟

قلت مبتسما :

— طبعـــا ليـــه .
— أمال ماخرجتش ليه ؟
— سيادتك عارف **ثمن الخروج** .
— وايه يعنى ؟ اكتب ورقة واخرج .
— هل تظل على **احترامك** لى ان فعلت هذا ؟
— طبعـــا لا .

ــ وانا حريص على احترامك لى اكثر من حرصى على حرية ملوثة .

هب واقفا وعانقنى بحب والدموع فى عينيه :

ــ تشرب قهــوة ؟
ــ ولى طلب آخر لو سمحت .
ــ أطلب .
ــ ازور عم شعبان حافظ فى المستشفى .

سكت ولم يجب وحسبت انه من المتعذر اجابتى الى طلبى ، وبعد لحظة قال بصوت مخنوق :

ــ همه زملاءك ماقالوش لك ؟
ــ قالوا انه عيان فى المستشفى
ــ طيب .. بكره نشوف .

ومع اننى عرفت الحقيقة من صوت المأمور ، وفى تعبيراته الحزينة وهو يتساءل « همه زملاءك ماقالوش لك » ، الا اننى لم أصدق نفسى . وغفرت لرمزى يوسف كذبته حين سألته فى الليلة نفسها بعد عودتى من مكتب المأمور ، وحكى لى تفاصيل موت عم شــعبان . كان الزميل سمير عبد البــاقى يســتمع معى الى رمزى يوسف ، فقد كان مثلى لا يعرف الخبــر فهو معتقل حديثا . وقابلته بعد اعتقاله فى معتقل القلعة . فبعد ان رفضت انا وزميلى مصطفى كمال خليل عــرض المباحث العــامة للافراج عنــا ، ذهبــوا بنــا الى معتقل القلعــة ووضعــــوا كل منا فى زنزانة . وفى مساء اليوم نفسه سمعنا زجلا رقيقا . صاح مصــطفى كمــــال :

ــ مين اللى بيقول الزجل الحلو ده ؟.
ــ انا سمير عبد الباقى .

وينادى على مصطفى خليل ويقول :

ــ يظهر انه زميــل جديد .

ويصيح سمير ..

ــ أيوه اعتقلونى من أسبوع .
ــ شــد حيلك .
ــ وانتو معتقلين جدد ؟
ــ أيوه .. بس بعد عشر سنوات اشغال شــاقة .
ــ ليـــــه ؟
ــ ما انت عارف يا سمير
ــ ده انا مضرب عن الطعام .
ــ ليــــه ؟
ــ علشان يفرجوا عنى .. ايه رأيك ؟
ــ مالوش لزوم .

ـــ وتفتكر راح اروح معاكو الواحات ؟
ـــ طبعا .. أمال حاتروح فين يعنى ؟
ـــ خلاص .. راح أفك الاضراب .

كنا **ثلاثة** حين وصلنا سجن مصر .. **غاب واحد فى الظلام** . وكنا ايضا **ثلاثة** حين غادرنا **معتقل القلعة الى الواحات** .. وجاء معنـــا **سمير عبد الباقى الى النور** . واصبحت الصورة واضحة كل الوضوح .. اعتقال الزملاء فى الخارج لايزال مستمرا .. وكى تخرج عليك أن تكتب .. واذا لم تكتب فمصيرك **الاعتقال بعد السجن** .

بعد أيام كان الزملاء الذين حكم عليهم فى قضيتى نفسها يستعدون للنزول الى القاهرة وهم متأكدون انهم الى **الواحات** عائدون . وبعد أن عادوا جميعا **معتقلين** كانت هناك أعداد اخرى من الزملاء يســتعدون للنزول الى القاهرة ((**وآهى فسحة**)) ، غير أن **المبــاحث العامة** خيبت آمالهم فى ركوب السيارة والقطار ، ومشاهدة شوارع القاهرة فى تنقلاتهم بين **سجن مصر والمباحث العامة والقلعة** ، ثم ركوب القطـــار والسيارة مرة أخرى الى **الواحات** ، فقد أصدرت اوامرها بأن لا لزوم لكل هـــــذا ((**التعب**)) و ((مصاريف)) السفر ذهابا وايابا . وعلى المسجون الذى تنتهى **مدة سجنه** ان يخلع الملابس **الزرقاء** ويلبس الملابس **البيضـــاء** ، وعلى ادارة السجن أن تنقله من عنبر **المسجونين** الى عنبر **المعتقلين** ! ومن يريد أن يخرج عليه أن يرسل ((**الثمن**)) عن طريق ((مندوبها)) ـــ وكان ضابطا معروفا للجميع ـــ فى ادارة السجن .

وبعد شهور قليلة تحول كل المسجونين (**من سنة ١٩٥٢ـــ١٩٥٤**) الى **معتقلين** وحل محلهم عدد اكبر من الذين حـــكم عليهم (١٩٦٠ ـــ ١٩٦٢) ! وتخف حدة الصراع فقد مله الكثيرون . ويعود النشـــاط الفنى والثقافى . ندوات سياسية وثقافية . وعروض مسرحية جديدة . وتأليف وترجمة .. الخ .

ويمر حوالى ثلاثة اشهر ، ولا احد فى المعتقل يتحـــدث عن الافراج ، ولا خبر يأتى من الخارج يبشر به . المســـجونون يتحولون الى معتقلين ولا شىء غـــير ذلك . حتى المباحث العـــامة ضـــعف نشـــاطها المعروف . وخلال تلك الفترة لم يخرج سوى زميل واحد هو **اسماعيل عبد الحكم** . صدر **قرار جمهورى** بالعفو عنه لانه كان **يحتضر** وبعد أن تأكدوا من موته المحقق ، ولكنه **لم يمت** .

كانت معركة اسطورية ضد الموت ، استمرت اكثر من شهرين ، أحكى لك تفاصيلها فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٢٣ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـالة رقم (٦١)

حبيبتى

نسيت ان احـكى لك فى رسـالتى السابقة قصة ذلك الاعتـداء الخطير على « **القانون** » الذى اكتشـفه الضابط « النـوبتجى » فى **سجن مصر** بعد أن وصلت اليه « **للافراج** » عنى بعد أن قضيت عشر سنوات سجن .

بينما كنت اقف فى مكتب **الضابط «النوبتجى»** فى سجن مصر فى انتظار انهاء الاجراءات الخاصة **«باستلامى»** من سجن المحاريق **«وتسليمى»** لسجن مصر ، صاح الضابط فجأة :

ــ انت لابس بدلة « **ملكى** » ليه ؟

قلت بدهشة :

ــ امال البس ايه ؟

صرخ الضابط :

ــ تلبس بدلة السجن اللى كنت لابسها .

ويتدخل **ضابط البوليس** الذى تولى حراسـتى اثنـاء الرحلة من **الواحات الى القاهرة** :

ــ ده مفرج عنه يا حضرة الضابط بعد قضاء الحكم عليه .

ويمسك الضابط « النوبتجى » **بالاوراق** « الخاصة بى » ويلوح بها بيـده ويصيح :

ــ تاريخ الافراج عنه بعد خمسة أيام !

ينظر ضابط الحرس فى الاوراق ويقول :

ــ فعلا .. لسه خمس أيام .

ويسأل الضابط « النوبتجى » :

ــ مين بقى المسـئول ؟

ويرد ضابط الحرس :

ــ اظن المسئولية تقع على ادارة سجن « المحاريق » .

واطلق ساخرا :

ـ اذا كان ولابد .. اتحمل انا المسئولية .

ويقول الضابط « النوبتجى » بغضب :

ـ بتهزر يا مسجون ؟
ـ كلها خمس أيام ولا ابقاش « مسجون » .
ـ لكن انت دلوقت مسجون .

ويســـتطرد :

ـ ولغاية آخر دقيقة من مدة الحكم عليك .
ـ معاك حق .. **القانون هو القانون** .

ينصرف ضابط الحرس والجنود بعد أن يوقع الضابط « النوبتجى » على الاوراق « **باستلامى** » . يهمس لى وهو يسلم على :

ـ معلهشى .. استحمل **بدلة السجن** كمان خمس أيام .

ويسند الضابط « النوبتجى » راســه على كف يــده اليمنى .. « **بوز تفكير** » بينما اظل انا واقفا ببدلتى « **الملكى** » فى انتظار قــراره بخلعها باسم « **القانون** » .

كانت بدلة « صوف انجليزى » ١٠٠ ٪ .. وكان لونها بنى محروق .. اشتريتها من **صلاح هاشم** ـ زميل الدراسة والمسيرة ـ **بثلاث جنيهات** دفعتها له مرة واحدة ، فقد كنا فى أول الشهر وكنت لسه « قابض » مرتبى .. وكان هو على « الحديدة » مع انه كان صاحب ورشة شنط « حريمى » . لبستها مرتين فقط قبل القبض على فى **يوليـو ١٩٥٢** ولم اكن قد سددت سوى قسط واحد من أجـرة تفصيلها ، وحين عــرف **الترزى** خبر القبض على رفض أن ياخذ بقية الاقساط المســتحقة له على . **الفنــان حسن فؤاد** لبسها مرة هو أيضا اثناء قيامه بــدور فى مسرحية « **بيت الدمية** » لابسن على المسرح الرومانى بالواحات . وبعد عشر سنوات ـ منذ خلعتها ـ البســـها للمرة الاولى رغم انها لازمتنى خلال تنقلاتى فى **الســجون والليمانات** المختلفة . وها انذا اقف فى انتظار **قرار** الضابط « النوبتجى » فى سجن مصر بخلع بدلتى العزيزة باســم « **القانون** » ! اعرف أن مشكلتك ليست هى اتخاذ هذا القرار ، وانمــا مشكلتك هى ان تحصل من «**المخازن**» على بدلة سجن زرقاء بعد انصراف أمين المخزن لانتهاء مواعيد عمله الرسمية .

يرفـــع الضابط « النوبتجى » راسه من على كف يده اليمنى ويقول السجان :

ـ شوف حد من المسجونين عنده بدلة زيادة على مقاس المسجون ده .
ويقول له السجان الذى كان يقوم بتفتيش « المخلة » التى كان بها ملابسى واتيت بها من الواحات :

— يا افندم ما هو معاه بدلة زرقة آهى .

ويصرخ الضابط « النوبتجى » :

— لما معاك بدلة زرقة . مدوخنا ليه .
— دى بدلة خاصة .
— يعنى ايه خاصة ؟
— يعنى أهلى فصلوها وبعتوها لى
— وماله ما تلبسها .. مش كنت بتلبسها فى الواحات ؟

واقول ضاحكا :

— بس دى قماشها « **ملكى** » مش « **ميرى** » .

ولاول مرة **يضحك** حضرة الضابط « النوبتجى » ويقول :

— يا اخى فى عرضك البسها وخلصنا .
— وتتحمل انت المسئولية ؟
— ممكن أتحملها زى بعضه .

واخلع « **بدلتى** » ولا البسها مرة ثانية الا عند مغادرتى **سجن « القناطر الخيرية » كى اذهب الى المباحث العامة** . والطريف ان مشكلة **قانونية** أخرى ظهرت حول البدلة الزرقاء « **الخاصة** » فى مكتب الضابط «النوبتجى» فى سجن « **القناطر الخيرية** » فبينما كان السجان يقوم بتفتيش « مخلتى » اكتشف وجود هذه البدلة بها . فقال للضابط « النوبتجى » :

— يا افندم معاه بدلة سجن .

سالنى الضابط بدهشة :

— واخدها معاك ليه ؟
— دى بتاعتى
— يعنى ايه بتاعتك ؟
— يعنى مش بتاعة السجن .. مفصلها على حسابى الخاص .

وناولته البدلة وقلت له :

— حتى شوف قماشها .. « **ملكى** » مش « **ميرى** » .
— فعلا .. قماش « **ملكى** » .

وتصورت أن المشكلة قد انتهت ، فاخذت البدلة لاضعها فى «المخلة» .. لكن السجان جذبها منى بعنف وقال :
— يا حضرة الضابط .. ده راح ياخدها .

وقال الضابط :

— سيبه ياخدها .. مش بتاعته ؟

ويتساءل السجان :

ـ والعهدة يا حضرة الضابط ؟

يبدو ان الضابط كان حديث عهد بالعمل فى السجون ، فقد سأل السجان بدهشة ..

ـ يعنى ايه عهدة ؟

لم يجب السجان . ربما لعدم قدرته على شرح المشكلة ، وربما « لفجيعته » فى هذا الضابط «العيل» الذى لا يفهم فى **القوانين واللوائح**. فتوليت أنا شرح المشكلة للضابط ..

ـ دلوقت السجن هنا « **استلمنى** » لابس بدلة زرقة .
ـ كويس .
ـ وأنا دلوقت خارج ببدلة « **ملكى** » .
ـ كويس .
ـ البدلة « **الملكى** » بتاعتى .. لان السجن معنـــدوش بدلة « **ملكى** »
ـ أيوه .
ـ والبدلة الزرقة بتاعة الحكومة لان المساجين ما عندهومش بدل زرقة.

ويصيح الضابط الشاب ضاحكا :

ـ تبقى البدلة الزرقة بتاعة **الحكومة** .

واقول مبتسما :

ـ مضبوط .
ـ وبناء عليه .. امرنا بمصادرة البدلة الزرقاء ، فهى « **عهـــدة** » .

واكمل ضاحكا :

ـ وحرصا على **اموال الدولة** .

ومع ان هذه البدلة الزرقاء « الملــكى » كانت عزيزة عندى وكنت أود الاحتفاظ بها بعد خروجى من السجن ، الا اننى لم « **ازعل** » كثيرا حين أخذوها منى ، فهى على اى حال **ترمز** لايام السجن ، أما البــدلة البنى « **الملكى** » التى لم « **أتهنى** » بلبسها ســـوى مرات قليلة ، والتى سجنوها معى فاننى أحمل لها **ذكريات جميلة** . وسوف البسها كثيرا حين اخرج من السجن .. ربما بعد ساعات اذا انرجت عنى **المباحث العامة** ، وربما بعد زمن غير معروف اذا **اعتقلونى** ، حتى اذا اعتقلت فســوف أستمتع بلبسها أياما أخرى قبل ان يأخذونى الى **الواحات** . وبالفعل ، عندما ذهبت الى **القلعة معتقلا** ، لم أخلع « **بدلتى** » ابدا طوال **العشـــرة أيام** التى مكثتها هناك . ولسبب لم أعرفه لم يصادروا بدلتى « الملــكى » عند وصولى الى مكتب الضابط « النوبتجى » **بمعتقل الواحات** ! ربما لان « المخازن » كانت مقفولة حيث وصلت مساء وبعد انتهاء مواعيـــد العمل الرسمية ، وكان من الصعب الحصول على بدلة بيضاء « **لــزوم المعتقلين** » ! وربما بسبب « **ذهول** » الضابط « النوبتجى » الذى رآنى

امامه نجاة . وهو الذى كان على يقين من خـروجى « افـراج » ! . وربما كان تصرفا **انســانيا** منه فتركنى أستمتع بصحبة بدلتى العـزيزة خلال الساعات المتبقيــة من الليل ، و « والصباح رباح » ، ومن الصعب أن يصل الخبر الى حراس « **القانون** » فى القاهرة قبل شروق شــمس الغد . أيا كان السبب فقد كنت أنا « **الكسبان** » ، فلم أخلع بدلتى طول الليل ، ورحت أتجول بها فى حوش السجن ، وفى طرقات عنابره . أجلس على الرمل بجوار **سور السجن الخارجى** تارة ، وتارة أخرى أمشى فى اتجاه المزرعة . مساحة واسعة من الارض الخضراء ، الى جوارها حمام السباحة ينعكس على مياههضوء القمر .. **ســيجارة « كاملة »** فى يدى اليمنى ، ويدى اليسرى فى جيب بنطلون البدلة « الملكى » ، وتشــدنى الصورة **وتستغرقنى اللحظة** ، وأتخيل اننى اقف على كورنيش النيــل الذى لم اره فى حياتى ، فقد كان أحد **انجازات الثورة** التى لم أر منها شيئا حتى يوم خروجى من السجن **فى ابريل ١٩٦٤** .

واسمع صوتا ينتزعنى من تأملاتى :

ــ انت فين ؟ . قلبنا عليك الدنيا .

كان صوتا مخنوقا يجيش صاحبه بالبكاء . من الذى مات ياترى ؟ المستشفى قد امتلات بالزملاء المرضى . **الفنان داود عزيز** اصيب بذبحـة صدرية وحالته خطرة وهو يرتقد فى انتظار ترحيله الى القصـر العينى لعلاجه هناك ؟ **رمزى يوسف** الذى تمزقه آلام فى كل جسمه ولم يصــل الاطباء الى تشخيص مرضه بعد ؟ ، **فتحى عبد الفتاح** الذى أصيب بصداع شــديد وآلام حادة فى عينيــه ، ويرتقد أيضــا فى انتظار ترحيــله الى القاهرة لاجــراء عملية ؟ **على زهران** بعــد اكتشاف بولينا حــادة ؟ الزملاء الاخرون مرضى بالدوسينتاريا والانفلونزا . فهـل يكون احـــدا منهم قــد مات ؟

وتخرج منى الكلمات بصعوبة شديدة :

ــ ايه يا رؤوف .. فيه ايه ؟ ..

لا ينطق ويرتمى بين أحضانى والدموع لاتزال تجرى من عينيه :

ــ فيه حد مات .. قول ؟

ــ **اسماعيل عبد الحكم يحتضر** ..

وأصرخ بأعلى صوتى :

ــ انا لسه كنت معاه من نصف ساعة .

ــ حصل له انهيار مفاجىء .

ــ انفلونزا تعمل انهيــار ؟

ــ التشخيص غلط .

ــ وايه الصحيح ؟

ــ التهاب كبدى وبائى

— متأكد ؟
— الدكتور شريف حتاتة هو اللى شخص المرض .
— وباقى الزملاء الاطباء رأيهم ايه ؟
— كلهم عند اسماعيل دلوقت .

حول سرير **اسماعيل عبد الحكم** وقف كل الزملاء الاطباء **شريف حتاتة، وعبد المنعم عبيد** ، **وحمزة البسيونى** ، **ومختار السيد** ، **وصلاح حافظ** ، **وشكرى عازر** ، **ورزق عبد المسيح ورؤوف نظمى** ، يتداولون ، وعشرات الزملاء يتجمعون خارج الغرفة وفى طرقات العنبر .

— ايه يا شريف ؟

ويهمس شريف :

— المرض معدى ولابد من نقله .

واصيح فى صوت مكتوم :

— نقله .. نقله فين ؟

يقول وعلى وجهه ابتسامته الانسانية .

— نفضى غرفة من الزملاء وننقل اسماعيل اليها حالا .
— لكن اسماعيل حالته خطر ؟.
— هيه فعــلا خطر .

اجرى مسرعا الى غرفتى واطلب من الزملاء اخلاء الغرفة حالا ، وتنظيفها وخلال نصف ساعة يتم نقل **اسماعيل عبد الحكم** وهو فى حالة غيبوبة الى الغرفة التى جهزت لمباشرة علاجه فيها . ويقرر الاطباء بالاجماع انه يمكن انقاذ الزميل **اسماعيل عبد الحكم** من الموت ، كما يمكن حماية الزملاء من انتقال العدوى اليهم بفرض نظام دقيق ، لكن المشـــكلة الاساسية هى مشكلة اقناع السجن بعدم نقله الى مستشفى الواحات . فهو هناك لن يلقى العناية اللازمة وسوف يعزلونه هناك ، كما سيتم عزل السجن كله ، فلا تفتح **الزنازين** الا للذهاب الى دورات المياه فقط ، ويمنع خروج الزملاء الى المزرعة ، وتتوقف زيارات الاهالى . وتمضى الساعات المتبقية من ليل ذلك اليوم والزملاء كلهم فى حالة ذهول . بعضهم يفترشون رمال الصـــحراء ، والبعض يجلس فى حوش العنبر ، تجرى دموعهم فى صـــمت ولا يتـكلمون . وبعضـــهم جلس أمام غرفـــة **اســـماعيل عبد الحكم** ينتظرون كلمـــة تطمئنهم من أحـــد الزملاء الاطباء الذين يشرفون على علاجه .

وتشرق شمس الغد على يوم غير عادى ..

ضجيج الزملاء عند ذهابهم الى دورات المياه ، أو عند خروجهم الى العمـــل يحل محله **الهدوء الشامل** . نداءات مسئولى « النظـــام »

التى تتعجل الزملاء للخروج الى العمل توقفت تماما ، فلا هم صاحوا بنداءاتهم التقليدية فى صباح كل يوم ، ولا الزملاء انتظموا فى صفوف كما اعتادوا كل يوم للخروج الى العمل . حتى السجانة الذين يحضرون فى صباح كل يوم لاصطحاب الزملاء الى المزرعة وغيرها من المرافق العامة .. أصابهم الذهول حين عرفوا الخبر وانضموا الى موكب الهدوء الشامل ولم ينطقوا بكلمة واحدة .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف صباحا عندما كان عدد من الزملاء « **القياديين** » والاطباء فى مكتب **المأمور** لمناقشته فى أمر مرض **اسماعيل عبد الحكم** واقناعه بعدم نقله الى مستشفى الواحات . وفى حوش السجن وعلى بعد خطوات من مكتب المأمور كان الزملاء يقفون فى انتظار ما سوف تسفر عنه المقابلة .

تمر ساعة وتجر وراءها ساعة أخرى ، الهدوء شامل لا تسمع سوى أصوات الرياح ، **وشمس الصحراء الحارقة** تخترق أجسام الزملاء ورؤوسهم فيسيل منها العرق وتختلط بدموعهم التى ما تزال تجرى من عيونهم . القلق الذى هز نفوسهم وكيانهم منذ سمعوا الخبر فى فجر اليوم يتزايد .. فى صمت .. ولكن تراه يتسع فى تعبيرات وجوههم مع كل دقيقة أخرى تمر .

وفى الساعة العاشرة والنصف يخرج وفد الزملاء من مكتب المأمور ووجوههم تنطق بما حدث :

— هل اقتنع المأمور بعدم نقل اسماعيل الى مستشفى الواحات .
— لا .. لم يقتنع .
— وما هو الموقف ؟
— سنعرض الامر على قيادات التنظيمات لتقرر ما تراه .

ولا يعلق اى زميل على ما حدث . وبالهدوء نفسه يتحركون من أمام **مكتب المأمور** ويتجمعون أمام **باب العنبر** . وعند دخول الزملاء القياديين الى العنبر كى يجتمعوا للمناقشة ، يقول الزميل **رؤوف نظمى** بصوت هادىء :

— لن ينقل اسماعيل عبد الحكم الا على جثثنا .

ولا يعترض زميل واحد على ما قاله رؤوف . اتفق معه الجميع تلقائيا ودون أى مناقشة . كانت روح **الاستشهاد** تسيطر على جميع الزملاء . لم يكن موقفهم **مغامرة** يائس فقد الامل فى كل شىء ، وانما كان **ذروة صراعهم ضد الموت** . لم يكن موقف الدفاع عن مجرد **الوجود** ، وانما كان موقف الدفاع عن الحياة .

كان نقل **اسماعيل عبد الحكم** الى مستشفى الواحات — حتى لو أنقذوا حياته — يعنى للزملاء استسلامهم لحالة من حالات التواجد .

وكان الاصرار على بقـائه بينهم والصراع من أجـل انقاذه ، معركة ربمـا يسقط خـلالها اسـماعيل ومعه آخـرون ، لـكنها سوف تكون **معركة حقهم فى الحياة .**

وتمضى نصف ساعة .. كانت كل دقيقـة منها تمر كأنها دهر .

الزملاء لا يزالون فى انتظار قرار قياداتهم التى ماتزال مجتمعة . والسجانة يتجهون الى باب مكتب المأمور وينتظمون فى طابور ، وبعـد دقائق يخرج اليهم المأمور ومعه بعض الضباط .

لحظـة وينفجر هـذا الهدوء الشامل الى بركان لا يعلم احـد حجم ضحاياه . المأمور يستعد لنقل **اسماعيل عبد الحكم** الى مستشفى الخارجة بالقوة حتى لا يتحمل المسئولية . والزملاء يبنون بأجسادهم المتلاصقـة سداً لا يقتحم الا على **جثثهم . وقيادات التنظيمات** لاتزال تدرس الموقف ! وقبل أن يخطو طابور الجنود المدجج بالسلاح خطوة واحدة يجرى عدد من الزملاء لمناقشة المأمور فى محاولة أخيرة لوقف الكارثة :

— سيادة المأمور .. دقيقة واحدة لو سمحت .

ويرد :

— أنا أنقله الى المستشفى كى أنقذه من الموت واحميكم من العدوى .
— سيموت اذا نقل وهو فى حالته هذه الخطيرة .

ويجـد المأمور انه سيتحمل مسـئولية نقله دون موافقة **طبيب السجن .**

فيقول :

— سأستدعى طبيب السجن .
— رجاء أن تراه أنت قبل أستدعاء الطبيب .
— ولماذا قبل استدعاء الطبيب ؟
— ربما ترى غير ما تراه الآن .
— لست طبيبا .
— **ولكنك (...) الانسان .**

وتمس الـكلمة أعماقه ، يطرق بوجهـه الى الارض قليلا ثم يقول للسجانة :

— انتظروا هنا .. ماحدش منكم يتحرك الا بأوامر شخصية منى .

ويلتفت الى الزملاء ويقول :

— تعالوا نشـوف زميلكم .

وعندما يصل المأمور الى باب العنبر يفسح الزملاء لـه الطريق ويسـير متجها نحو الغرفة التى يرقد فيهـا **اسماعيل عبد الحكم** ، وجد

أمامه شاب فى ريعان شبابه يرقد على سرير وهو فى **غيبوبة تامة** . وجهه شاحب شحوب الموت ، الاصفرار يغطى كل بياض عينيه ، والمقلتان جامدتان لا تتحركان . ولم يستطع المأمور أن يقف أكثر من **دقيقة واحدة** واستدار ليخرج من باب الغرفة وهو يخفى عينيه بيده . وسار صامتا حتى خرج من باب العنبر ووصل الى مكتبه ولم ينطق بكلمة واحدة وسار معه الزملاء الذين بدأوا الحوار معه منذ لحظات . قال فى تأثر شديد :

— هل تستطيعون حقا علاجه .. وضمان عدم انتقال العدوى ؟
— زملاؤنا الاطباء يؤكدون ذلك .
— اذن لا داعى لنقله ولكن بشرط ..
— نعرفه وسوف ننفذه بكل دقة .

كان الشرط الذى يطلبه المأمور هو أن لا يتسرب خبر اصابة **اسماعيل عبد الحكم** بمرض معدى الى خارج السجن حتى لا يتحمل مسئولية وجود مرض معدى فى السجن ولم يبلغ عنه . ونؤكد له أننا مع ثقتنا بأن الخبر لن يخرج عن الحدود التى عرف فيها . فان موقفنا سوف يكون أمام المسئولين اذا تسرب الخبر باننا لم نخبر ادارة السجن عن ظهور مرض معدى فى السجن .

وعلى مدى شهرين كاملين قام الزملاء الاطباء بمجهودات هائلة لعلاج الزميل **اسماعيل عبد الحكم** . وخلال هذين الشهرين وعلى الرغم من صدور ميثاق العمل الوطنى الذى أثار مناقشات واسعة بين الزملاء ، فلم يكن فى عنبر (٢) حيث يرقد **اسماعيل عبد الحكم** صوت واحد يرتفع قليلا داخل العنبر الذى شمله السكون المطبق طوال تلك الفترة .

ظل **اسماعيل عبد الحكيم ١٥ يوما فى غيبوبة** تامة لا يستطيع تناول الطعام وكانت تغذيته الوحيدة الجولوكوز بواسطة ابرة فى العرق . وقليلا ما كان يتبول ولكنه ظل طوال الخمسة عشر يوما لا «**يتبرز**» وخشى الاطباء أن يصاب بتسمم وكانت معركتهم لتطهير امعاءه . وعلى فترات متباعدة كان اسماعيل يفيق خلالها دقيقة أو دقيقتين وكان الطبيب « النوبتجى » يطعمه اقل كمية من البطاطس المسلوقة ، أو العسل الابيض ويعود بعدها الى الغيبوبة .

وفى اليوم السادس عشر حدثت **المعجزة** واخرج اسماعيل «**براز**» لايزيد عن حجم **الفولة** . وكأنما حصل **الدكتور مختار السيد** حين وضع تلك « الفولة » فى منديل بعناية شديدة والسعادة تملا وجهه على أرقى « **ماسة** » فى العالم .

مازلت اذكر ما حدث فى ذلك اليوم .

كنت من القليلين جدا الذين يسمح له بزيارة اسماعيل بعد عمل كل الاحتياطات الطبية الضرورية حتى لا تنتقل الينا العدوى . فى مساء ذلك اليوم كنت اقف الى جوار سرير اسماعيل . عيناه مفتوحتان لكن مقلتيها لا تتحركان .. سألت الدكتور مختار :

— هل يرانى اسماعيل يا مختار ؟
— يراك ولكنه لا يستطيع أن يميزك من غيرك .
— ومتى يستطيع ذلك ؟

واسمع ردا غريبا ..

— اذا حدثت المعجزة .. واخرج « برازا » .

وتمضى دقائق .. يتحرك خلالها اسماعيل قليلا .. ويسرع رؤوف باعطائه كمية قليلة جدا من البطاطس المسلوقة ، ثم يروح فى غيبوبة مرة اخرى . وتمضى حوالى ساعة لا يتحرك اسماعيل خلالها حركة واحدة، حتى عيناه اللتان كانتا مفتوحتين اغمضهما .

— ايه يا رؤوف ؟
— مش عارف .. رايح انادى على الدكتور مختار .

ويقول الدكتور مختار :

— انتهز اى فرصة يا رؤوف واعطيه شوية بطاطس فى فمه .

ويأمر الدكتور مختار باعطائه ادوية اخرى .

ويمر الوقت وانا واقف الى جوار اسماعيل فى انتظار **المعجـــزة** . وفجاة يشير اسماعيل اشارات بيده لا افهمها لكن رؤوف فهم ما يطلبه . تعبيرات وجه رؤوف تدخل فى نفسى بعض الهدوء ويشير الى ان اخرج من الغرفة قليلا . واظـــل واقفـــا على باب الغـــرفة فى انتظار حدوث **المعجزة** . وتمر خمس دقائق أسمع خلالها ضربات قلبى تشتد ، وانفاسى تتلاحق بسرعة ، ويخرج **الدكتور شكرى عازر** من الغرفة ينادى على والفرحة بادية على وجهه :

— تعالى يا درش .. حدثت **المعجزة** .

واقف الى جوار اسماعيل .. ورؤوف ينط من الفرح وهو يمسك بمنديل به « **البراز** » ، ويقول :

— بداية زوال مرحلة الخطر .

واقول له بلهفة ..

— هل يتـــكلم ؟
— لسه مش دلوقت .

ـ هل يتحرك ؟
ـ لســه برضه .
ـ هل يميز من يراه ؟
ـ برضه .. شوية .

واقول بانفعال :

ـ تبقى معجزة ايه دى بقى ؟

ويسود الصمت . **العيون** ترقب بانتباه شديد ما يطرأ على الجسد الممدد **كجثة هامدة** . اتامل اسماعيل تارة ، وتارة اخرى ارقب ما يجرى على وجوه الاطباء **حمزة البسيونى وشريف حتاتة ومختار السيد وعبد المنعم عبيد وشكرى عازر ورؤوف نظمى** . افرح لكل كلمة امل ينطق بها طبيب ، وانتبض كلما رايت على وجه احدهم بوادر قلق . فجاة نرىمتلتى عينى اسماعيل تلمعان .. وتتجهان نحو الزملاء الاطباء واحدا بعد الاخر ثم تستقر على .. وتتحرك شفتاه وتخاطبنى بهمس :

ـ ازيك يا درش ؟
ـ شد حيلك يا أبو السباع
ـ حديد يا عمو .

وانخرط فى بكاء **كالاطفال** .. اهم باحتضانه وتقبيله .. لكن سواعد الاطباء التى امتدت الى تمنعنى .

بكل مقاييس تلك **اللحظة** الانسانية النادرة كان تصرف الاطباء معى **بالغ القسوة** رغم انهم كانوا على حق . **فاسماعيل عبد الحكم** كان بالنسبة لى موضــوعيا يرمز لاستمرار حياتى النضالية . فهــو واحــد من **ثوار الستينات** الذين اشتركوا فى **المقاومة الشعبية فى بور سعيد عام ١٩٥٦** . وهناك فى قلب معركة تطهير أرض بلادنا المقدسة من دنس الغزاة ، التقى بعدد **من ثوار الاربعينات** الذين شاركوا فى الـكفاح المسلح **عام ١٩٥١** ، وكان لقاؤهم تجســيدا لاصرار ثوار كل الاجيــال على تحرير مصر واستقلالها . وعلى المســتوى الذاتى **كان اسماعيل عبــد الحكم** جزءا من كيانى . عرفنى يوم سمع عنى لاول مرة ، وعن بعض **ثــوار الاربعينات** الذين تكبلهم « **الحكومة الوطنية** » بالاغــلال بينمــا الغزاة يحتلون جزءا عزيزا من أرض مصر ! وكان من الطبيعى أن يســال ، **لمــاذا ؟**

ســمع اسماعيل اجابة على سؤاله .. زادته اقتناعا بضــرورة الالتحام مع ثوار الاربعينات ، والتقى **بأخى مسعد** « رحمه الله » وعرف منه الكثير مما كان يريد أن يعــرفه عنى . فى الدقائق الاولى التى التقينا خلالها لاول مرة فى **عام ١٩٥٩ بسجن المحاريق** ، كان احساسنا المشترك بأن شيئا آخر غير زمالة المعركة يشد كل منا للاخر .

مازلت اذكر أول واقصر حوار مع **اسماعيل عبد الحكم** ذات يوم فى **اوائل عام ١٩٥٩** ، وكانت ((**تكديرة**)) السجن فى ذروتها ، رأيته من وراء قضبان ((**زنزانتى**)) وهو يميل على السجان الذى يجذبه بعنف بعيداً عن الزنزانة يقول له وابتسامته الانسانية تملأ وجهه :

ــ دقيقة واحدة .. اشوف عمى .

ويرق قلب السجان ويسأل :

ــ عمك مسجون هنا ؟
ــ من زمان .. وماليش عم غيره .
ــ طيب .. شوفه .. بس بسرعة .

لم أكن قد عرفته بعد ولا عرفت اسمه . لكنه كان يعرفنى للشبه الشديد بينى وبين أخى **مسعد** . قال وهو ينادى على :

ــ مسعد بيسلم عليك يا عمو ..
ــ أهلا .. وازيه .
ــ خلف بنت اسمها « منى »

منذ عشرة ايام .. يوم اخذونى الى المباحث العامة ((**لاعتقالى**)) بعد قضاء مدة السجن ، رأيت ((**منى**)) هناك .. كان عمرها عامين جاءت مع ابيها لزيارتى قبل أن أذهب الى معتقل ((**القلعة**)) وكانت هذه أول مرة اراها فيهـا :

وانتبه على صوت الزميل الدكتور **عبد المنعم عبيد** :

ــ رحت فين يا درش ؟
ــ رحت وجيت .. ورحت وجيت .. !
ــ ولسه ياما حانروح ونيجى .
ــ لكن مؤكد راح نوصل .

والمح ابتسامة رقيقة شفافة على وجه **اسماعيل عبد الحكم** ! هل سمع هذه الكلمات التى تبادلتها مع **عبد المنعم عبيد** ؟ ، ربما لم يسمعها بأذنيه .. لكن من المؤكد انه كان معنا بكل كيانه المنسوجة خلاياه بحب الحياة . كان معنا بحيويته الدافقة وشبابه الغض فى صراعنا ضد الموت ومن أجل انقاذ كيانه . كان معنا بتكوينه الانسانى السوى الذى يجمع بين حب الدنيا بطولها ، وعرضها ، وبين استعداده لتحمل كل الصعاب ، وتحمل كل التضحيات حتى حياته ذاتها من أجل تحقيق أهدافه .

بعد أن حدثت **المعجزة** وافاق من غيبوبته لاح أمامنا أن أمل انقاذ حياته لايزال بعيداً فى الافق . وتستمر معركة **الصراع ضد الموت** اكثر من شهرين وتأخذ بعداً جديداً فى النصف الاخير منهما حيث بدأ اسماعيل

يتناول طعاما خفيفا بعد أن كان يعيش على « الجلوكوز » فقط ، وحيث بدأ يسير خطوات داخل الغرفة يسنده زميل ، وحيث بدأ ينطق كلمات قليلة جدا . غير انه كان بين الحين والحين تسوء حالته ويسقط مغشيا عليه . وكان لابد من نقله الى **مستشفى القصر العينى بالقاهرة** لاستكمال علاجه هناك ، وكان **المامور** مقتنعا بذلك كل الاقتناع ، وراح يرسل البرقيات المتتالية الى مصلحة السجون والمباحث العامة يطلب منها سرعة نقل **اسماعيل عبد الحكم** الذى تسوء حالته يوما بعد يوم ! وفى برقية اخيرة ارسل يقول انه يخلى مسئوليته مما سيحدث فى السجن اذا مات **اسماعيل عبد الحكم** . وجاء الرد برقيا من المباحث العامة يحمل خبر **القرار الجمهورى بالافراج عنه** ، كما يحمل الموافقة على نقله الى القصر العينى ، لكن الاطباء لم يوافقوا على نقله الى القاهرة فى الحال ، فى نفس الوقت قالوا انه لن يتحمل السفر بالسيارة ثم بالقطار .

ووافق المامور على « استضافة » **اسماعيل عبد الحكم** الذى افرج عنه وعلى الابراق لوالده للحضور لمصاحبة ابنه على الطائرة التى تقوم من **الواحات الى القاهرة** مرتين فى الاسبوع . وبعد حوالى عشرة ايام قرر الزملاء الاطباء انه يمكن نقل اسماعيل بالطائرة ولكن بشرط أن يكون فى صحبته طبيب يتولى اسعافه اذا اقتضى الامر . ولم يتردد المامور (...) لحظة واحدة فى الموافقة على سفر الزميل **الدكتور حمزة البسيونى** معه على الطائرة نفسها ، وكان قرارا خطيرا اخذه على مسئوليته قال له احد الزملاء مازحا :

ــ ربما يهرب بحمزة البسيونى .

ويرد عليه المامور ضاحكا :

ــ ما انا راح آخذ كلمة شرف من الدكتور حمزة بانه مايهربشى .

ــ الى هذا الحد تثق بحمزه البسيونى ؟

يقول مبتسما :

ــ طبعا اثق جدا .. لكن برضه الاحتياط واجب .

ــ كيف ؟

ــ سيجد فى المطار من يحرسه حتى القصر العينى .. ثم من هناك حتى هنا مرة أخرى .

ويوم سفر **اسماعيل عبد الحكم من الواحات الى القصر العينى بالقاهرة** ، شهدت **الصحراء** ، مشهدا **انسانيا** مؤثرا يعجز القلم عن تصويره . عدد من الزملاء يحملون اسماعيل وهو راقد على سريره فقد كانت تعليمات الاطباء بان لا يتحرك حتى باب العنبر حيث تنتظره سيارة الاسعاف التى ستحمله الى مطار الواحات . السيارة تسير ببطء شديد ويحيط بها مئات الزملاء يسيرون فى صمت وقلوبهم تغنى **لاسماعيل عبدالحكم** . وتقف سيارة الاسعاف على باب العنبر ، ويتقدم عدد قليل من الزملاء

لتوديعه ، كان يرقد على سريره فى عربة الاسـعاف والابتسامة لا تفارقه. قلت له مودعا :

— نلتقي قريبا يا ابو السباع .
— قريبا جدا يا عمو .

« عمو » .. سمعتها منه فى اول لقاء بيننا فوصلت مباشرة الى أعماقى وسمعتها كثيرا من ابناء اخوتى لكن تأثيرها عندى لم يتجـاوز الاحساس التقليدى بها . ويزداد اقتناعى بحقيقة ان **الارتباط الانسانى** اقوى من كل الارتباطات الاخرى .. **حتى ارتباط الدم** .

وتتحرك سيارة الاسعاف فى طريقها الى **مطار الواحات** ، وترتفع سواعد الزملاء تودعه وتهفو قلوبهم للامل المستحيل .. ان يعيش اسماعيل عبد الحكم . كان الامل ضعيفا فى انقاذه **من الموت** .. هكذا قال الاطباء بعد سفره وهذا ما كتبه طبيب السجن فى تقرير رفعه للجهات المسـئولة منذ حوالى ١٥ يوما . وقيل ان **المباحث العامة** وافقت على الافراج عنه بعد ان تأكدت من انه **ميت لا محالة** ، فاسرعت بنقله الى القصر العينى ليموت هناك . وحتى لا « **تتحمل** » مسئولية موته فى المعتقل فى ظروف سياسية جديدة طرحت فيها من جديد قضية **الافراج** عنا وبشكل اكثر جدية . لكن .. خاب امل المباحث العامة **وعاش اسماعيل عبـد الحكم** . وفتح بخروجه وحياته باب السجن لنخرج وراءه ، ولكن بعد ان عشنا اكثر من عام ونصف بعد خروجه على اعصابنا وفى ظل ظروف سياسية جديدة ، زادت من حدة **الصراع السياسى** بين التنظيمات المختلفة ، وزادت من نشاط **المباحث العامة** لتشويه عقول اكبر عدد من الزملاء قبل ان يصبح الافراج عنا حقيقة مؤكدة .

أحكى لك بعض احـداث تلك الفتـرة العصيبة فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٢٨ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـــالة رقم (٦٢)

حبيبتى

فى مســـاء اليوم نفسه الذى سافر فيه **اسماعيل عبد الحكم** الى القاهرة ، وجدت نفسى نجاة **كغريق فى بحر ليس له قرار** . كانت هذه هى المرة الاولى ــ منذ أكثر من عشر سنوات فى السجن ــ تحدث لى فيها مثل هذه الحالة . افكار كثيرة واسئلة اكثر تملا رأسى حتى يكاد ينفجر ، واحساس **بالعجز الكامل** عن متابعة اى فكرة او الاجابة على **اى سؤال** . ولم تكن عندى أدنى رغبة فى الحديث مع أحد ، فحول اى شىء ســـيكون الحديث الذى **لا أملك بدايته** ؟ ووجدت نفسى أخرج من باب العنبر واسير فى فناء السجن متجها الى سوره الخارجى لاجلس هناك وحيــــدا فى « **الخلوة** » ! جلست دقائق .. بعدها وجدت نفسى « **العب** » بالرمل .. اكومه على شكل « **تل** » صغير ثم اهده ! احفر **حفرة** فى الارض ثم املاها بالرمل الناعم ! امسك بيدى اليمنى « **زلطة** » وباليد اليسرى « **زلطـة** » أخرى ، واضرب اليمنى باليسرى تارة ، وتارة أخــرى اضرب اليسرى باليمنى .. واعيد الكرة مرات ومرات حتى يصيبنى **الملل** فاقذف بهما بعيدا . واجد عصـــا صغيرة من « **الجـريد** » فامسك بها وارسم على الرمـل خطوطا مستقيمة ، ومنحنيات ودوائر ، واحيانا أخرى أرسم **وجه امرأة او وجه طفل** .. ثم يصيبنى الملل مرة أخرى . أكثر من ساعة مرت على وأنا **العب** على الرمل **كالاطفال** ، بعدها شعرت بقليل من هدوء النفس واسمع صوتا ودودا يقول :

ــ منتظر حد يا درش ؟
ــ أيوه
ــ مين ؟
ــ جودو !

ينفجر **زين سليط** فى الضحك ويقول :

ــ ده انا جاى انتظره أنا كمان .
ــ اقعد ننتظره سوا
ــ أبقى ضمنت انك تسمع **الرواية** بتاعتى لغاية آخر كلمة .

واخذ الزميل **زين سليط** يقــرأ لى روايتـــه ، وكان قــد بدأ فى كتابتها منذ سقط **اسماعيل عبد الحكم** مريضا ، مع أن فكرتها كانت قد ولدت هنا ــ بجوار السور ــ منذ عامين خلال المناقشات الكثيرة التى كانت تجرى بيننا حول أوضاعنا الخاصة فى **السجن** .

ثلاثة شـــبان من رجال **المقاومة الشـــعبية** يقاتلون جنود الاحتلال الذين يطاردونهم ويدخلون شقة باحد المنازل يسكنها رجـــل وزوجته — التى على وشك الوضع — واختها . يحرص الجميع على الصـــمت التام حتى لا ينتبه اليهم **جنود الاحتلال الذين** يحاصرون المنزل . تبذل الام جهداً مضنيا وهى تكتم صراخ « **الطلق** » .. لكن صرخة تخرج رغما عنها تمزق السكون ، وتنطلق رصاصات **الاعداء** ، واصواتهم تطلب من يقطن المنزل ان يسلم نفسه ، ويجرى الاب كى يحضر طبيبا لكنه **يموت** على باب المنزل برصاص العـــدو . يلقى جنود الاحتلال قنبلة فى حوش المنزل تدمر السلم كله . ويظل الشبان والام واختها **محاصرون** .. وترتفع الاصوات ثانية تطلب منهم ان يسلموا انفسهم .. ويأتيهم الرد .. رصاصات رجال المقاومة تنطلق من نوافذ الشقة ، وتدور معركة يتبادل الطرفان اطلاق النيران **والوليد** فى بطن امه يصارع من اجل **الحياة** ، والام يتهددها الموت، فالولادة **متعثرة** ، ويقرر الشبان الثلاثة ومعهم اخت الام ، ان ينقـــذوا **الوليد** بأى ثمن حتى ولو كان هذا **الثمن** هو ارواحهم جميعا . ووسط النيران التى يطلقها جنود الاحتلال يقوم رجال المقاومة واخت الام ببذل كل جهودهم لانقاذ الوليد وأمه .

يقتحم جنود الاحتلال الشـــقة التى صعدوا اليها على سلم خشبى ويطلقون الرصاص على كل الرجال .. ويسقطون جميعا . جثثا هامدة.. بينما تصرخ الام صرخة **الموت والحياة معا** . **تموت** هى وتمنح حياتها **لوليدها** وتتركه وديعة عند اختها التى تأخذه بين احضانها وتهرب به من بين الجثث والانقاض .. والاعداء .

نور **الفجر** يزحف يبدد ظلام الليل .. **وزين سليط** يقرأ آخر كلمات روايته « **عندما نولد من جديد** » .

لكن مشكلتنا اكثر **تعقيدا** . فالقوى التى تحاصرنا ليست قوى معادية، انها قوى **ثورية** .. **حليفة وصديقة** .. نقف معها فى **خندق واحد** ضـــد عدو **مشترك واحد** . شكلت **مجالس عسكرية** لبعض من اشترك معها فى المعركة الوطنية قبل الثورة . وبعد توليها **السلطة** سجنت العشرات ، ومن بقى منا فى الخارج — اقصد خارج الســـــجون — **حتى عام ١٩٥٦** . حمل الســــلاح دفاعا من الوطن وعن النظـــام الذى يقوده **جمـــــال عبـــد الناصر** .

وعند اول **خلاف** حول شكل الوحدة بين مصر وسوريا ، اعتقلوا جميعا ، وسقط منهم الشهداء فى **السجون والمعتقلات** ، شهداء **التعذيب**.. وشهداء **المرض** ، ورغم كل ذلك فهذه أرواحنا فوق ايدينا نضحى بهـــا دفاعا عن هذا **النظام الوطنى** !

ويزيد المشكلة تعقيدا ان هـــذا **النظام الوطنى** يحاصره الاعـــداء من الداخل والخارج للانقضاض عليه فى اى لحظة ، يعطيهم هو نفسه مزيداً من الفرص حين يصر على ضربنا وابعادنا عن معركة كل ابنـــــاء

مصر المخلصين من أجل حريتها واستقلالها وتقدمها . وتبلغ المشكلة ذروتها حين يكون حصيلة **الصراع السياسى** بين التنظيمات المختلفة من جهة ، وداخل كل تنظيم من جهة أخرى ، هى هذه **الحيرة** التى يعيش فيها الغالبية الساحقة من الزملاء بعد **صدور قرارات يوليو ١٩٦١** ، والتى زادت بعد صدور **الميثاق الوطنى** .

كنا نتجمع كلنا حول الراديو نستمع الى **الرئيس جمال عبد الناصر** وهو يذيع الميثاق ، وبينما كان الزملاء ينصتون باهتمام لما تقوله هذه الوثيقة الهامة ، والخطيرة . كان البعض فى قيادات التنظيمات ، يصدرون احكامهم « **البابوية** » شديدة **التناقض** ، وغلبية فى **السطحية** .

— هو برنامج لتحقيق الاشتراكية !
— بل هو وثيقة خيانة وطنية !
— هو تدعيم لسلطة « المجموعة الاشتراكية » !
— بل يدعم سلطة « راسمالية الدولة الاحتكارية » !
— الـ ٥٠٪ عمال وفلاحين فكرة فاشية !
— انه يعبر عن فكر الطبقة العاملة !
— بل هو تعبير عن فكر البورجوازية الكبيرة !

كانت هذه الاحكام تصدر بسرعة مذهلة لم يعهدها فيهم الزملاء من قبل .

بعد الانتهاء من اذاعة **الميثاق الوطنى** ، دار حوار بين عدد من الزملاء وبين واحد من هؤلاء القادة .

— تعجلت فى اصدار حكمك على الميثاق ؟.
— كان موقفا سياسيا .
— ولم يكن رايا علميا ؟
— نعم
— ولماذا ؟
— حتى لا يخدع الزملاء بعباراته البراقة .
— فتحاصرون أفكارهم ؟
— بل نحميهم من الافكار الخاطئة .
— أحسب أنهم قد بلغوا سن الرشد
— ليست وصاية .. بل قيادة .
— وهل قالت القيادة رايها فى الميثاق ؟
— كل ما يجرى من أحداث يفسر على ضوء الراى الرسمى .
— ولا يفكرون الا فى حدود ما تقوله القيادة ؟
— هى المركزية الديموقراطية .

هكذا باسم المركزية الديموقراطية يا حبيبتى يا ابنة الستينيات كانوا يحاصرون الأفكار باسم الموقف السياسى .

وفى اواخر عام ١٩٦٣ نشرت جريدة « **ليموند** » الفرنسية حديثا **للرئيس جمال عبد الناصر** حول الاوضاع الداخلية والخارجية وعن المعركة ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية . وفى نهاية الحديث يسأل الصحفى « **ايريك رولو** » عن « **الشيوعيين** » **بالواحات** ويجيب عبد الناصر .. اننا بصدد تصفية المعتقلات فى **بداية عام ١٩٦٤** .

واعادت قيادة « الحزب الشيوعى المصرى » مناقشة خطها السياسى . وفى اجتماع عام اعلنت **تاييدها « للحكم الوطنى » ولاجراءاته التقدمية** . لم اكن سعيدا بهذا الموقف السياسى الجديد رغم أننى ناضلت سنوات من أجله ، « **لعنت** » خلالها على « **السبحة** » من هؤلاء أنفسهم الذين تبنوا ما انادى به . ويجرى حوار بينى وبين واحد من قيادة « **الحزب المصرى** » .

قال :

ــ هل رأيت وسمعت ؟
ــ وبئس ما رأيت وما سمعت

قال بدهشة :

ــ سياستنا انتصرت .
ــ والفضل لجريدة ليموند .
ــ بل لنضالنا داخل الحزب .
ــ وهم كبير تعيش فيه .
ــ المهم انهم اليوم يقفون الموقف الصحيح .
ــ لكن الاهم هو السبب ..
ــ ماذا يكون غير اقتناعهم ؟
ــ الافراج عنهم .
ــ كان الافراج معروفا منذ مدة .
ــ وتأكد بعد وعد الرئيس جمال .
ــ مهما يكن الامر فامامنا عمل كبير .
ــ شد حيلك .
ــ نحتاج اليك .
ــ اى خدمة .
ــ تعدل عن استقالتك من اللجنة المحلية .
ــ لماذا ؟
ــ كى تكون فى المستوى نفسه فى الخارج !!
ــ ...

ويسأل منزعجا :

ــ ماذا افهم ؟
ــ سوف اقدم لهم اليوم استقالتى من التنظيم كله .

بعدها .. اجد نفسى أعيش معك يا حبيبتى يا ابنة الستينات بكل كيانى . عندما دخلت السجن عام ١٩٥٢ كنت ما تزالين طفلة صغيرة ، بينما كنت أنا فى مثل عمرك الان ، وأراك اليوم كما كنت أرى نفسى وانا شاب مثلك ، يملاك الحماس لمواصلة المسيرة ، فاضمك بين احضانى بكل حبى وحنانى ، واهمس فى أذنيك الصغيرتين :

ـــ ليس بالحماس وحده تتحقق الامال .

تقولين وغضب الشباب يملا عينيك الواسعتين الجميلتين :

ـــ والهرب يحطم كل الامال .

واقول لك وابتسامة حزينة تملا وجهى :

ـــ كان محاولة لصياغة فكر جديد .

الساعة تقترب من العاشرة مساءا ومندوبى وكالة انباء « واس » ، لصاحبها عبد الستار الطويلة يصيحون :

ـــ آخر اخبار الافراج يا زملا .
ـــ الساعة عشرة ونصف فى عنبر (١) .

الافراج عن كل الزميلات المعتقلات وكن حوالى ٤٠ زميلة . من بينهن اسماء حليم التى ولد ابنها فى السجن وتضى عامين مع أمه فى سجن مصر ، ثم اعتقلت مرة أخرى فى سجن القناطر . وسميرة الصاوى زوجة احمد طه .. دخلا السجن وتركا ابنهما الصغير عند الجيران اكثر من اربع سنوات ، وسعاد بطرس خطيبة شكرى عازر ، اعتقلوهما قبل أن يتزوجا بشهور قليلة . وثريا حبشى زوجة فوزى حبشى ومنذ سنوات لا يعرفان من أخبار أولادهما سوى القليل جدا . وفاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى ومنذ زواجهما لم يستقرا معا أكثر من شهور . وثريا ابراهيم زوجة الدكتور مختار السيد .. اعتقلوهما معا وتركوا أولادهما الصغار وحدهم لا يعرفون الحكاية ، وثريا زوجة حلمى ياسين ، اعتقلوهما قبل أن يمر عام واحد على زواجهما .. وغيرهن .. وغيرهن ...

كان لهذا الخبر دوى واسع بيننا ، فهذه أول مرة منذ أربع سنوات يتم فيها الافراج عن مجموعة كاملة وبذلك الشكل الواسع ودون اى قيود أو شروط ..

ويصل الى « واس » آخر خبر يهمس به الزميل فوزى حبشى لعبد الستار الطويلة كى يذيعه قبل أن ينصرف الزملاء .

خطيبة شكرى عازر وخطيبة الدكتور فوزى منصور وزوجات احمد طه وفوزى حبشى والدكتور مختار السيد يحضرن فى زيارة غدا.. وكان غدا هو ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ ، وكانت الاستعدادات تجرى على قدم وســاق للاحتفال بالعام الجديد .. عام الافراح والحرية .

احكى لك عن ذلك الاحتفال فى الرسـالة المقبلة يا حبيبتى ..

٣ اكتوبر ١٩٧٧ ـــ القاهرة

الرســــالة رقم (٦٣)

حبيبتى

كانت الساعة حوالى السادسة صباحا حين كان الزملاء **فـوزى منصور وشكرى عازر ومختار السيد وفوزى حبشى واحمد طه** يقفــون على باب احدى زنازين سجن المحاريق يتناوبون « **التوسل** » **لمصطفى درويش** كى يقــوم من النوم ! كان هو الوحيــد بيننا الذى يســتطيع أن « **يشخط وينطر** » فينا جميعاً ، ولا يملك اى زميل الا أن يتحمله كى «يقص» له شعره و « يحلق » له ذقنه . ومع أنه كان معفيا من القيام باى عمل آخر كى يتفرغ لهذا العمل ، وانه كان يأخذ كل أسبوع علبة سجاير صغيرة كحافز مادى ، أنه كان يقبل ما « **يغمزه** » به بعض الزملاء بســيجارة أو سيجارتين كى يعتنى بهم « حبتين » . وفى موسم **الزيارات** ترتفع أسهم **مصطفى درويش** ويتضاعف محصوله من السجاير التى يأخذها من الزملاء بعد الزيارة . وكانت له « **شلة** » من الزملاء يجلسون معه مساء كل يوم يدخنون السجاير ويستمعون الى ما كتبه من زجل ركيك !

بعد أكثر من ساعة يقوم **مصطفى درويش** من نومه . يضع فوطة الوجه على كتفه ويسير فى خطوات متثاقلة الى دورة المياه ، والزملاء يغنون « **آخر ادب** » فى انتظار عودته .

الساعة تقترب من السابعة والنصف صباحا ، **ومصطفى درويش** لم يعد بعد من دورة المياه ، وتعبيرات القلق تبدو على وجوه الزملاء كلهم ماعدا **احمد طه** . ويسأل **الدكتور فوزى منصور** :

ــ اشمعنى انت يا احمد اللى هادى قوى كده !

يضحك **احمد طه** ويقول :

ــ اصل انا بقى يا دكتور فى مرحلة « **الخضار المسلوق** » فى رحلة الزواج

ويعلق **الدكتور شكرى عازر** بخبث :

ــ مش ده السبب الحقيقى يا احمد .

ويسأل الدكتور فوزى :

ــ ايه هوه السبب الحقيقى يا شكرى !

ويصرخ احمد طه :

ــ اسكت يا شكرى ماتبوظشى الشغل !

ويعود **مصطفى درويش** من دورة المياه بسير « الهوينى » وقبل أن يدخل زنزانته ينظر « **شذرا** » الى الزملاء ويقول :

ـــ مستعجلين قوى كده ليه .. مالسه بدرى على الزيارة ..

وبعد دقائق يخرج من زنزانته يحمل « **عدة الحلاقة** » ويلتفت الى **احمد طه ويسأله** :

ـــ نبتدى بمين يا احمد ؟

ويقول احمد طه :

ـــ طبعا الدكتور **فوزى منصور** .

ويتساءل الدكتور فوزى وحمرة الخجل تكسو وجهه :

ـــ مش ممكن . . ليه انا الاول ؟

ويقول **مصطفى درويش** ضاحكا :

ـــ احنا عندنا نظر يا دكتور .

ويضيف **احمد طه** :

ـــ وانت كلك كرم يا دكتور .

ويتهته الدكتور فوزى ، ويقول :

ـــ يا أولاد الايه .. عاملين «كومبينة» !

فى مساء اليوم نفسه ـــ بعد الزيارة ـــ كان الزملاء فى «شلة» **مصطفى درويش** يتجمعون حوله وفى يده علبة سجاير بلمونت «لارج» يتطلعون اليها («بحب») . قال وابتسامة تكسو وجهه الطيب :

ـــ «الغلة» النهارده محترمة .
ـــ واحنا معاك للصبح .
ـــ عاوزين نسمع القصيدة بتاعتك .

ويقول مصطفى درويش :

ـــ تصوروا القصيدة دى .. حسن فؤاد مش موافق يحطها الليلة فى برنامج الاحتفال براس السنة .
ـــ يا شيخ سيبك منه .
ـــ شوية مثقفين معقدين .
ـــ يا عم دى بلد «شهادات» .

وتزداد ابتسامة **مصطفى درويش** اتساعا ويبدأ فى توزيع السجاير ويقول :

ـــ كل واحد سيجارة بحالها .. بس بشرط !
ـــ ايه يا ريس ؟

تعبيرات وجهه تنطق **بحبه** العميق للزملاء :

ـــ كل واحد يولع سيجارته بحالها .
ـــ بس لسه الليل طويل .
ـــ وعاوزين نسمع قصيدتك الجديدة .

ويرد عليهم :

ـــ نوزع ثانى .. وثالث .. ورابع .. الخير كثير والحمد لله .

وتتوالى تعليقات الزملاء :

ـــ يعنى مفيش ((**تخميس**)) الليلة ..
ـــ بس خسارة الواحد يرمى ((**عقب**)) .
ـــ يا أخى الواحد **يحس بانسانيته** مرة ويرمى «العقب» .
ـــ والليله راس السنة الجديدة ..
ـــ بيقولوا فيه أخبار جديدة عن الافراج ..
ـــ فرصة نتمرن على شرب سيجارة بحالها قبل ما نخرج .

وينتبه **مصطفى درويش** الى ان **احمد طه** ليس موجودا بينهم على غير العادة ، ويسأل :

ـــ امال فين احمد طه ؟
ـــ تلاتيه تاعد لواحده سرحان فى (**(أم عبده)**) بعد ما زارته .

ويقول **مصطفى درويش** بعتاب :

ـــ أيوه .. لكن كان برضه أصول يحضر شوية ..

ويعلق أحد الزملاء :

ـــ أصل معاه سجاير .. مش محتاج ينافقك النهارده .

ويندهش الزملاء للتغيير المفاجىء الذى حدث **لمصطفى درويش** . **انفعالات حزينة** تحل محل **ابتسامته الانسانية** التى كانت تملأ وجهه وهو يوزع السجائر على زملائه . وفجاة **ينفجر** فى بكاء كالاطفال . وعبثا راحت محاولات الزملاء لتهدئته . ولم تجد اعتذارات الزميل صاحب التعليق . ويذهب بعض الزملاء يبحثون عن **احمد طه** .. ربما يستطيع اخراج **مصطفى درويش** من الحالة التى سيطرت على كل كيانه . ويجىء **احمد طه** تسبقه شتائمه « البذيئة » التى يتبادلها باستمرار مع **مصطفى درويش** ويفتتحا بها الجلسات المسائية اليومية للشلة :

ـــ يا ابن (...) ما احنا كل يوم بننافق فيك .

ابتسامة **طيبة** تبدو على وجهه **مصطفى درويش** ، ويقول :

ـــ أيوه .. أيوه .. لكن .

ثم بصوت مخنوق ..

— مش عارف أقول ايه .. مش عارف .

كان **مصطفى درويش** عامل النسيج بالاسكندرية محبوبا من عمال مصنعه ومن أهل حيه «كرموز» . قبض عليه فى **أوائل عام ١٩٥٩** وترك وراءه **زوجة وطفلين** وهم لا يملكون‌قوت يومهم ، وتكفل بهم أهل الحى حتى خرج من **السجن فى أوائل عام ١٩٦٤** .

كانت مشكلته أن احساسه بالاشياء **قوى** ولكنه لا يملك القدرة على **ادراكه** والتعبير عنه . وكان يدرك هذه المشكلة ولكنها لم تكن عقبة أمام علاقته بالناس الذين ولد وتربى وعاش بينهم طول حياته . **فالناس البسطاء** يحبون من يشعر بهم حتى وان لم يعبر عن مشاعره نحوهم بكلمات ، فصوت **الحوار الانسانى** هو الاعلى ، كان يجد نفسه خلال حواره الانسانى الصامت مع الآخرين **البسطاء** كما يجد **الحبيبان** ذاتهما فى لحظات **الوجد الصامتة** . وفجأة وجد نفسه فى عالم لغة التعامل فيه هى لغة « **الكلام** » .. وهو لا يجيدها .

كيف يجد نفسه فى هذا العالم « الكلمانجى » ؟ ماذا يعطيه ؟ وماذا يأخذ منه؟

تعلم كيف «**يقص**» الشعر وكيف «**يحلق** » الذقن كى يحلق لكل‌الزملاء، يعطيهم مجهوده .. وربما يتعلم منهم « **الكلام** » أثناء قيامه بالحلاقة لهم. حتى هؤلاء « **الاساتذة** » الكبار يمكن أن يتعلم منهم شيئا خلال حديث‌ودى بينهم وبينه أثناء الحلاقة ، « **فالزبائن** » — حتى المحترمين جدا منهم — يتواضعون مع «الحلاق» الذى يحلق لهم ! لكن ، ما الذى يعطيه الزبائن « للحلاق » غير المجاملات والابتسامات التى لا معنى لها ، و «**البقشيش**» !

ومع أنه كان يعرف أن معظم ما يقوله له بعض الزملاء من كلمات « **استحسان** » لقصيدة زجل كتبها أو رأى قاله ليست سوى «**مجاملات**» الا أنها كانت ترضيه **انسانيا** ! وكان يعرف أيضا أن السجائر التى يأخذها من بعض الزملاء ليست سوى «**تحية**» كتلك التى يقدمها « **الزبون** » « **للحلاق** » ، لكنه كان يقبلها منهم وهو على أى حال لا يدخنها وحده وانما يشاركه فيها عدد من الزملاء خلال جلساتهم المسائية اليومية . وهذه الجلسات بكل ما يجرى خلالها ، حتى تبادل الشتائم ، يحتاج اليها الزملاء للتخفيف من **أعصابهم** التى أرهقتها الاخبار المتناقضة عن الافراج ! .

ويعود الهدوء الى نفس **مصطفى درويش** ، وتستأنف « **الشلة** » مواصلة جلستها بعد أن يصيح **عبد الملك خليل** بكلمته الشهيرة :

— أى حاجة زى أى حاجة .

قالها ذات يوم من أيام **السجن العصيبة** ، وانتشرت بين كل الزملاء وكانوا يقولونها عندما **تختلط** عليهم الامور ، أو عندما تصل المناقشة

بينهم الى طريق **مسدود** ، خاصة خلال الثلاث سنوات الاخيرة منذ صدور قرارات **يوليو ١٩٦١** ، وما اعقبها من خطوات سياسية تقدمية ، وكثرة الاخبار عن الافراج « **العاجل** » جداً !

هل كانت الصورة واضحة امامنا يوم **٣١ ديسمبر ١٩٦٣** ، وهو اليوم الذى جاء فيه **خمس زميلات** افرج عنهن منذ ايام من سجن **القناطر الخيرية** فى زيارة **لازواجهن** ، يحملن معهن آخر اخبار الافراج ، وعدد كبير من خطابات اهالينا الينا ؟ .

احد جوانب الصورة ، كانت تلك الاخبار التى جمعتها وكالة أنباء «واس» من الزملاء الذين كانت عندهم زيارة ، ومن الخطابات التىوصلت الى الزملاء من اهاليهم :

* انه لا يزال هناك صراع داخل **السلطة** بين الرئيس جمال عبد الناصر وعدد من قادة الثورة من ناحية ، وبين عدد آخر من ناحية حول الافراج عنا . خاصة بعد الحديث الذى ادلى به ناصر الى صحيفة **«اللوموند»** الفرنسية والذى وعد فيه بالافراج **عنا فى اوائل عام ١٩٦٤** .

* أن اجهزة الامن وفى مقدمتها **المباحث العامة** بذلت ولا تزال تبـــذل كل المحاولات لعدم الافراج عنا . وآخر محاولة للمباحث العامة بعد ان صدرت اليها الاوامر الصريحة **بالافراج** ، هى أنها طلبت التأخير حتى لا نخرج بشعور **الابطال** !

* ان عدد من الكتاب التقدميين ، مثل **حسين فهمى** ، **وعبـــد الرحمن الشرقاوى** ، **والدكتور محمد أنيس** ، **ولطفى الخولى** ، **ومحمد عودة** يؤكدون أن الافراج عنا قد أصبح على الابواب .

وكان الجانب الثانى للصورة ، هى تلك **اللحظــة** التى بدأ الاهالى يعيشونها لاستقبالنا بعد ان اصبح الافراج عنا **يقينا** عندهم . خطاب وصلنى من **الفنان داود عزيز** الذى يعالج فى مستشفى القصر العينى من ذبحة صدرية يقول لى فيه ان **عايدة** خطيبته ذهبت اليه مع أخيه فخرى ومعهما قسيس وعقدا قرانهما وشهد **عقد القران** ضابط الحرس والجنود الذين يحرسون داود عزيز وبعض نزلاء المستشفى . ووزع الشربات وانطلقت **«الزغاريد»** بعض الممرضات .. والف مبروك يا درش .. عايدة تؤكد انها علمت من اوثق المصادر انه لم يبق على الافراج سوى أعداد القوائم !

وتعود ذاكرتى الى اوائل **عام ١٩٥٢** ، كنت مع عايدة وداود نجلس فى حديقة **«الجروبى»** نشرب قهوة الصباح وننشد دفء الشمس فى ذلك اليوم البارد من أيام يناير . سألتنى عايدة :

ـــ هل قال لك داود لمـــاذا لا يريد أن نتزوج ؟
ـــ ولا اوافق على رايه .
ـــ ومع ذلك يصر على رايه !
ـــ يخاف عليك .
ـــ لكنني لا أخاف .. ولن اتزوج غيره .

ولم يقتنع داود بكل ما قلته وقالته له عايدة . كانت حجته أن احتمال القبض عليه فى أى يوم احتمال قائم وهو لا يريد لها أن ترتبط بانسان مطارد ! ومضت شهور دخلت بعدها السجن وداود مصر على رايه . وفى اوائل عام ١٩٥٤ علمت ان داود وعايدة قد اتفقا على تحديد **يوم عقـــد قرانهما** ، وتشاء الصدفة أن يكون هذا اليوم هو تاريخ **القبض على داود عزيز** ! وبعد ١٥ يوما وهى المدة المحددة التى يستحق بعدها المسجون تحت التحقيق زيارة خاصة ، ذهبت عايدة يصحبها قسيس الى سجن **«القناطر الخيرية»** كى تزور **داود عزيز وتعقد قرانها عليه** . اذهلتـــــه المفاجأة .. بعد القبض عليه شكر الظروف ، فقد حدث ما كان يتوقعه قبل أن يتزوجا . فكيف يوافق اليوم على الزواج مع وقف التنفيذ لسنوات لن تقل عن عشرة !

ـــ وانت ايه ذنبك يا عايدة ؟
ـــ ليس ذنبا .. بل حبا .
ـــ تنتظرين عشرة اعوام .. وقد تزيد ؟
ـــ حتى نهاية العمر .
ـــ طيب نخليها خطبة .
ـــ ليـــــه ؟
ـــ ربما تجد ظروف وتعيدين النظر .

وتوافق عايدة عن غير اقتناع فلا فرق عندها بين الخطبة والقران . وحتى لو لم تتم خطبتها فهى تحبه وسوف تنتظره مهما طال الوقت، والمسالة عندها مسألة شكلية امام المجتمع ، ولكنها تعطيها الفرصة للوقوف الى جانب حبيبها .

وبعد عشرة سنوات من خطبتهما ـــ ٧ سنوات سجن وثلاث سنوات اعتقال ـــ وقبل أن يخرج داود من المعتقل يوافق على عقد قرانه .

وعبد الستار الطويلة يصله خطاب من زوجته التى حصلت على الطلاق منه بعد أن ضاقت بها الدنيا ويأست من خروجه ، تقول له انها سوف تحضر اليه فى زيارة غدا وتحمل معها أخبارا مؤكدة عن الافراج .

يســـــألنى :
ـــ ايه رايك ؟
ـــ موافق .

— تركتنى في محنتى ؟
— كانت محنتها أكبر .

واقرا فقرة من خطاب وصل الى **مجدى فهمى** من أمه تقول له «اعمل حسابك يا مجدى . عروستك **(الكوثر)** منتظراك . بعد شهر واحد راح نعمل الفرح . فرح الانفراج عنك وفرح زواجك .

— الف مبروك يا **مجدى** .
— الانفراج والا العروسة ؟
— الاحرار فقط هم الذين يتزوجون .
— ربما لانهم ضاقوا بالحرية .

واسمع صوت **(فاتن)** الابنة الكبرى **لرمزى يوسف** . « يا بابا أوعى تكون زعلان من ماما . أنا اتكلمت معاها بعد ما سمعت أخبار الانفراج عنكم علشان ترجع عن اللى فى مخها ونقعد كلنا مع بعض ، **(انا وانت وماما وماجدة ويوسف** . حافظ على صحتك يابابا واخـــــواتى وماما محتاجين لك » .

— بتحب ايزيس يارمزى ؟
— أخبارها مش كويسة .
— هربت من الســــؤال .
— طبعـــا لسه باحبها .
— تبقى تسمع كلام فاتن .
— يا ريت .
— الانفراج راح يحل حاجات كثير يا رمزى .
— لكن عقدة ايزيس لن تحل .
— كل عقدة ولها حلال .
— الا عقدة التطلعات الطبقية .

وخطابات أخرى كثيرة وصلت الى الزملاء . خطيبة تقول لخطيبهـــا أنها حصلت على شقة **(حلوة)** وكتبت العقد [illegible]
دهانها بعد أن حصلت على أجازة ، وانها [illegible]
اللوازم الضرورية للبيت واهمها حجرة النو[illegible]
« علشانه » . وتطلب منه أن لا يفكر ف[illegible]
(جمعية) ٢٠٠ **جنيه** .

وزوجة تقول لزوجها « بعت المصاغ [illegible]
لكن ولا يهمك بكره ترجع يا حبيبى وتعوض[illegible]

وابن يرسل الى ابيه يقول : « كنت [illegible]
بالثانوية العامة كى أساعد أمى واخوتى ف[illegible]
عن هذه الفكرة وسأواصل دراستى الجامع[illegible]

كانت الصورة عند اهلينا أننا على بعد خطوة واحدة من باب **الحرية.** وكانت الصورة عندنا أن الافراج ما يزال رهن **الصراع داخل السلطة** وهو لم يحسم بعد لصالحنا رغم تصريح عبد الناصر لصحيفة : « ليموند » الفرنسية ، وكنا نرجح كفة الرئيس ناصر بوزنه الهائل محليا وعربيا وعالميا . وعلى هذا الامل تمضينا ليلة راس السنة الجديدة **لعام ١٩٦٤،** احكى لك تفاصيل احتفالنا بها فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٨ اكتوبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٦٤)

حبيبتي

بعد مجهود شاق بذلته طول النهار في **ازاحة الرمال** من على «مقاعد» **مرح الروماني بسجن المحاريق** استعدادا لاستقبال جمهور المشاهدين تفالنا برأس السنة الجديدة**لعام ١٩٦٤** ، ذهبت الى **زنزانتي** لانام قليلا نى أكون في حالة تسمح لي باستقبال المأمور والضباط وبعض موظفي بافظـــة ووزارة الزراعـــة بالواحات ، فقد كنت احد اعضاء لجنة حتبـــال .

كانت الساعة حوالي السابعة مساء حين استيقظت على صـــوت ـــاة :

أصحى بقى يابابا علشان تلبس .

لم أصدق عيناى . حسبت انني في **حلم** واغمضت جفـــوني حتى تتوتني بقية **الحلم الجميل** . **بابا .. تلبس** .. وصوت فتاة !

يد تهزني ونفس الصوت ، يقول :

قوم يابابا .. شوف فستاني الجديد !
حلو قوى **يا حبيبتي !**

هل سمعوا هذه الكلمات فانطلقت ضحكاتهم التي جذبتني بعنف من مى الجميل ؟ وهل خرجت هذه الكلمات من فمي أم انها كانت احدى يات حلمي **المستحيل ؟**

الزميل **رؤوف حلمي** في زي فتاة رائعة الجمال ، **ومنير المغربي** وعلى بههما ابتسامة حبيبة .

يقول **رؤوف حلمي** بصوت ناعم رقيق :

. حلوه كده يابابا ؟

وتخرج من صدري تنهيده عميقة وطويلة ..

. بابا .. يا ريت يارؤوف .

«بابا» .. لم اسمعها من احد قبل دخولى السجن ، ومنذ التقيت به فى اوائل عام ١٩٥٩ وهو ينادينى بها ! كان وقعها فى نفسى منذ أول يوم نطق بها عميقا ، ينفذ الى وجدانى لحظة أفيق بعدها على صوت عقلى يشدنى الى الحقيقة ! فى هذه المرة ذاب كل كيانى فى لحظة الوجد مع « ابنتى وحبيبتى» .. وطالت اللحظة وغاب خلالها عقلى ، وأسمع حوارا بين الزملاء ، لا يخرجنى منها :

ـ هل اخطانا ؟
ـ آثرنا تسجونه . !
ـ ربما كانت قسوة !
ـ نتركه الآن .
ـ ستكون أكثر قسوة .

لكن صوت عدلى برسوم وضحكتــه يرنان فى أذنى ويشـــدانى من استغراقى :

ـ اثيل .. اثيل .. أين أنت يا حبيبتى ؟

واقول لرؤوف حلمى ضاحكا :

ـ زوجك روز نبرج يبحث عنك يا ابنتى !

وبكل قوة وحب الابن لابيه يندفع رؤوف نحـــوى ويضمنى بين احضانه .. يقبلنى .. واقبله . ويصرخ عدلى :

ـ مين ده يا اثيل ؟

ويقول رؤوف ضاحكا :

ـ ده بابا ياروز نبرج ..
ـ كنت فاكر انه راجل غريب !

وتخرج من اعماقى واعماق كل الزملاء ضحكات تحكى نغماتها سيمفونية معاناتنا وآلامنا وأحلامنا وحبنا ، سيمفونية الحياة .

وفى المساء حين فتحت الستار على مسرحية «اثيل وروز نبرج» بطولة رؤوف حلمى «اثيل» وعدلى برســوم «روز نبرج» كان المشاهدون يتأملون قصة حياة عالم الذرة «روز نبرج» وزوجته عالمة الذرة ايضا ، اللذان رفضا أن يسخرا العلم من أجل الحرب ، فلفقت لهما المخابرات الامريكية تهمة الخيانة الوطنية وصدر ضدهما حكما بالاعدام . وعندما يظهر على خشبة المسرح طفلاهما مع والديهما قبل تنفيذ حكم الاعدام ، يشرد ذهنى بعيدا .. خارج الاسوار ويستغرقنى عالمى الخاص .

لو أن «ميمى» زوجتى السابقة لم تقتل الجنين الذى تركته فى احشائها فى عام ١٩٥٢ وقبل دخولى السجن بشهرين ، لكان عمر ابنى أو ابنتى الآن

١٢ عاما ، كان سيستقبلني عند خروجي من السجن وهو مازال طفلا عمره ١٢ عاما أو تزيد شهورا اذا خرجت هذا العام ، وربما كان **سيستقبلني** وهو شاب اذا امتد بي العمر في **السجن** ، ثم خرجت منه بعـــد سنوات اخرى ، حتى لو **فارقت الحياة** داخل السجن فكان هو الذي ســـوف ينتظر **جثماني** ليرعاه حتى يذهب به الى مثواه الاخير .

دخلت السجن ، عمرى ٢٧ عاما ، وهو يقترب الآن من الاربعين،فعلى اى محطة يمكن أن الحق بالقطار لو خرجت من السجن هذا العام ؟ وكم سنة تستغرقها الرحلة الى المحطة التى أنشدها ؟

لست أنوى البحث عن «**بنت الحلال**» كي اتزوجها واستقر ، ما اتمناه هو تجربة **حب صادقة**. كنت «**غبيا**» قبل دخولى السجن، او كنت «**جادا**» بالمعنى التقليدى لهذه الكلمـــة ، او كنت افهم «**الحب**» على انه نقيض «**النضال**» ، أو كنت اسير قيم وتقاليد متخلفة . بل كنت كل هذا واكثر .

فى منتصف **عام ١٩٤٩** كانت لى تجربة **حب** بترتها بقســوة وهى فى بدايتها ، وها انذا أجنى ثمار موقفى «**الغبى**» **مرارة** . . **ووحـــدة** . . **واحباط** . ورغم موقفى «الغبى» وبعد دخـــولى السجن بسنوات كانت **حبيبتى** تتتبع أخبارى باهتمام وترسل لى بانتظام ، وحين عرفت بانفصال زوجتى عنى **عام ١٩٥٥** أرسلت الى تطلب عقد قراننا ، وارسلت اكرر نفس الاسباب التى رفضت من اجلها الاستمرار فى تجربة حبنا ، واهمها ان بينى وبينها فروق **طبقية كبيرة** ! فهى بنت رجل اعمال كبير ، وانا فى احسن الاحوال لن اكون أكثر من موظف يخرج على المعاش فى الدرجة الثانية ! ومن أسرة شعبية لا تملك سوى قوت يومها .

سوف ابحث عن **الحب** بعد خروجى من السجن حتى آخر **عمرى** . ولن يكون **الزمن** مقياسا مقياسا اقيس به المسافة الى **اللحظة** التى اريدها ولا الوقت الذى تستغرقه . ما أتمناه هو **اللحظة ذاتها** ، حتى ولو كانت **دقيقة واحدة اموت بعدها** . لكننى ســاكون قد عشت حياتى كلها خلال هذه **الدقيقة** .

المح فى عينيك يا حبيبتى سؤالا ملحا : هل وصلت الى المحطة التى تنشدها بعد خروجك من السجن ! ؟

انغام تنساب من بين اصابع **محمد حمام** يدق بها على الطبلة ، ويرتص عليها **زكى مراد ومحمد مختار وخليل قاسم ومحمود شندى** ، ويصدح صوته العميق الدافىء .. «عم يا جمال» .. وتنقلنى تلك اللوحة الرائعة ، الى النوبة واهلها البسطاء الطيبين .

كان **وليم اسحق** هو اول من اكتشف موهبة **محمد حمام** فى الغناء . فى البداية كان **محمد حمام** يظن أن وليم يمزح معه :

— اغنى ازاى يا وليم بس ؟
— زى اللى بيغنـــوا
— وانت تفهم فى الغنا كمان ؟
— انا ملك
— أيوه ملك .. بس ملك صحراء .
— فى صحراء النوبة عندكم .. مش بيغنوا .. ؟

ويسرح **محمد حمام** قليلا .. ويدندن بصوت منخفض جدا بينما تدق اصابعه على « **غطاء جردل مياه** » . ويصيح وليم :

— اقطع دراعى .. ولا صوت «بول روبنسون» .

ويكتب له وليم اغنية من اغنيات روبنسون ، ويغنيهـــا **محمد حمام** . ويقول له وليم :

— لو مش مصدقنى نخلى بعض الزملاء يسمعوك ويقولوا رأيهم .

ويرد **محمد حمام** بخجل شديد

— بقى معقول اغنى قدام حد .. انت بس .. وآدينى باسليك .
— يا حمام اسمع كلامى .. انت موهبة ..
— وحياتك يا وليم بلاش هزار .

وبعد مجهود مضنى يبذله **وليم اسحق** لاقناع **محمد حمام** بالغناء أمام بعض الزملاء ، يقتنع بشرط ان يختفى **وراء بطانية** بحيث لايراه أحد ، ولايرى هو أحد . وتجرى أول تجربة لصوت **محمد حمام** الذى يختبىء وراء بطانية فى احدى زنازين سجن **المحاريق** ، وعلى الجانب الآخر من البطانية كان الزملاء **حسن فؤاد وصلاح حافظ والفريد فرج وداود عزيز وشـــوقى عبد الحكيم ووليم اسحق ومحمود شندى** وهم أعضاء لجنة التحكيم يستمعون الى صوت **محمد حمام** يغنى أغنية نوبية ، وأخرى بالانجليزية **لروبنسون.** وتصدر اللجنة بالاجماع قرارها بأن صوت محمد حمام أمامه مستقبـــل عظيم . بعدها ظل **محمد حمام** لا يغنى الا من وراء بطانية فقد كان خجولا الى درجة مذهلة ، وتدريجيا تعود على مواجهة الناس وازداد ثقة بجمال صوته . وكانت هذه الاغنية التى يقدمها على المسرح فى شكل تابلوه هى أول مرة يغنى فيها حمام أمام عدد كبير من المشاهدين .

والغريب ان **محمد حمام** الذى كان يخجل من الغناء أمام عدد من الزملاء وهو فى السجن ، شهدته بعض **صالات القاهرة** يغنى فيها بعد خروجه ، وكان لذلك قصة طريفة . ففى ذات مساء دق جرس تليفون منزلى واسمع صوت **محمد حمام** :

— عاوز اعرف رأيك فى مسالة ربما يتوقف عليها مستقبلى .
— خير يا حمام ؟
— عاوز اغنى فى صالة من صالات شارع الهرم .

كدت لا أصدق اذنى وقلت بصوت مرتفع :

— مش معقول .. بتتكلم جد ؟
— ٤٠ جنيه فى نص ساعة يا درش .
— تغنى وسط السكارى ؟
— اعمل ايه مفلس .
— واذا قلت لك لا .. تسمع كلامى ؟
— طبعا .. امال باسألك ليه .

ووجدت نفسى امام **مشكلة حقيقية** ان نصحته بأن لا يبيع فنه لمجموعة من السكارى فمن أين يغطى احتياجاته العاجلة ؟ وان وافقت بلا شروط فسوف ينحدر حتما وربما ينتهى **كفنان** ، قلت لمحمد حمام :

— كام ليلة تغنى فى الصالة دى وتتوقف بعدها ؟
— شهر واحـــــد .
— شهر .. يعنى ١٢٠٠ جنيه ممكن تستحلى الحكاية ؟
— ولا يوم زيادة .

لمــاذا اضطر محمد حمام الى ان يلجا الى هذا ؟

صحيح أنه استطاع ان يحمى نفسه من الانحدار . لكن كم هى المواهب التى اضطرتها الظروف الى ان **تبيع نفسها** ؟ .

دقات الساعة تدق منتصف الليل . تطفأ أنوار المسرح دقيقة ، تضاء بعدها على الشاعر **محمود شندى** يلقى قصيدة **«حكاية الصبار»** وبعده مجموعة كبيرة من الزملاء تنشد « بلادى . بلادى » ويســـــدل الستار معلنا انتهاء الحفل الرسمى ويدعو الزملاء الى احتفالاتهم «الحرة» !

كان انتهاء الاحتفال على هذه الصورة **مفاجاة** للزوار وللزملاء . قال المــأمور :

— الضيوف كانوا يريدون مشاهدة مسرحية **حلاق بغداد** .
— الحلاق ارتفعت درجة حرارته الى ٤٠ بشكل مفاجىء !

ولم يكن هذا هو السبب الحقيقى . كان السبب هـــو **هروب** زميلين من السجن ويجب أن يتخذ الزملاء كافة الاحتياطات قبل أن تعرف ادارة السجن بالخبر وتعمل **«تكديره»** احكى لك قصة هروب الزميلين فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى ..

١٠ اكتوبر ١٩٧٧ . القــاهرة

الرســــالة رقم (٦٥)

هـــــبيتى :

فى مخازن الحكومة والقطاع العام يجرى جرد **((العهدة))** مرة واحدة كل عام ويسمونه «الجرد السنوى» . . صنف واحد من مئات أصناف العهدة فى المخازن يجرى «جرده» **مرتين كل يوم** . . هو **((المسجون))** ! ففى السجون يجرى **جرد** المساجين مرة فى الصباح ويسمونه **((تمام الصباح))** ومرة ثانية فى المساء ويسمونه **((تمام المساء))** . وبعد اجراء الجرداليومى **((للمساجين))** صباحا ومساءا ترسل السجون الى المسئولين فى المصلحة كشوف **((التمام))** حتى يطمئنوا على ((**العهدة**)) .

وبالهول ما يحدث فى سجن ينقص من «عهدته» مســـجون واحد . التحقيق فورا مع **المأمور والضباط والسجانة** لمعرفة المسئول وتوقيـــع العقوبة التى تصل الى الفصل من الخدمة . واثناء التحقيق وبعده واحيانا حتى يتم تسديد **((عجز العهدة))** بالقبض على المسجون الهارب تفرض حالة الطوارىء .

وحالة الطوارىء فى السجون تعنى **ضرب المساجين** وغلق **((الزنازين))** عليهم ووقف خروجهم الى العمـــــل وتعاملهم مع الكانتين ، ومنــــع الزيارات .

وفى سجن **المحاريق** كان يجرى «جردنا» صباحا ومساء ، وكان كله «تمام» ! ومنذ حوالى ستة شهور سابقة على يوم **٣١ ديسمبر ١٩٦٣** ، كان الذى يقوم **((بالتمام)) علينا** ، الزملاء « مسئولى النظام » . وكانت **قوة** السجن ، ابتداءا بالسجان حتى المأمور مطمئنون تماما . فمن هذا الذى يستطيع الهرب **من سجن فى قلب الصحراء يبعد مئات الاميال عن اقرب عمران** ؟ فضلا عن ذلك فان مسألة الافراج عنا خاصة بعد تصريح الرئيس الى صحيفة الموند قد اصبحت مؤكدة . **فمن هـــذا الذى يهرب والحرية على بعد خطوة منه ؟**

وكان تمام المساء يجرى كل يوم بعد دخول الزملاء الى الزنازين فى الثامنة وتغلق عليهم ، ويتولى « مسئول النظام » فى كل عنبر **مع سجان** العنبر **((جردنا))** . وبعد اجراء الجرد وعمل الكشف يوقع عليـــه سجان العنبر **والشاويش النوبتجى ، والصول النوبتجى ، والضابط النوبتجى ،** ثم **المـــأمور** الذى يقوم بابلاغ **المسئولين** فى القاهرة باشارة تليفونية ، أو برقيا اذا تعطل التليفون **((بالتمام))** . بعد ذلك تفتح الزنازين علينـــا مرة

اخرى . وظل وضعنا على هذا الحال شهورا حتى مساء ٣١ ديسمبر ١٩٦٣ .

عندما كان الزميل **سيد عبد الله** « مسئول النظام » فى عنبر (٢) **يقوم** بعمل التمام المسائى اكتشف وجود نقص فى **((العهدة))** !. لم يصدق نفسه واعاد الجرد مرة ثانية فوجد **((نقص زميلين))** ، ولم يصدق نفسه أيضا ، وفكر فى أن يعيد **((جردنا))** مرة ثالثة ولكن بالاسم هذه المرة بدلا من الرقم ! لـكن اذا قام بعمليـة حصرنا بالاسم فسـوف يتنبه السجان الى أن أمرا ما قد حدث ، فكلف بعض الزملاء مهمة شغل السجان حتى يجرى الحصر مرة ثالثة .

وبعد اجراء عملية ((**حصرنا**)) فى العنابر الثلاثة تأكد اختفاء **الدكتور المحامى ((هرارى)) وعامل النسيج ((عويضة))** ؛ فى البـداية اسـتبعد الزملاء أن يكون الزميلان قد هربا من السجن . وأخذوا يبحثون عنهمـا عند سور السجن الخارجى فهما صديقان حميمان وربما يكون الوقت **قد** سرقهما ولم ينتبها الى موعد « التمام » اليوم ولم يذهبا الى العنبر ، ولكن لا اثر لهما هناك. وذهبوا الى ((**المزرعة**)) و ((**حمام السباحة**)) **فربمـا** يكونا قد فكرا فى احضار « شوربة » خضار ، أو فى أن يسبحا فى ضـوء القمر .. ولا اثر لهما أبدا .

اذن فقد هربا من السجن . فما العمل ؟

خرجت المسألة من يد الزملاء المسئولين عن النظام الى يد الزملاء « القياديين » فى التنظيمات المختلفة الذين بداوا يتداولون فى الامر .

ستفرض حالة الطوارىء حتما بمجرد أن يعرف المامور الخبر . وعند أول تفتيش **للزنازين** سوف يعثرون على عشرات التقريرات السـياسية والتنظيمية والكتب الممنوعة ، فقد تحولت التنظيمات خـلال الشـهور الماضية الى ((**العلنية**)) الكاملة ، فضلا عن ((**الممنوعات**)) الأخرى ، لابد اذن من فرصة لاخفاء المهم منها والاستغناء عن غير المهم . **واتفقوا على** تكتيم الخبر عن كل الزملاء عدا الذين سيتولون القيام باخفاء **((الممنوعات))** المهمة جدا . فى نفس الوقت عدم ابلاغ الخبر **للادارة** الا فى مساء **الغـد** عند عمل ((**التمام**)) المسائى !

وحين رفعت الستار على خشبة المسرح الرومانى بسجن المحاريق للاحتفال بليلة راس السنة الجديدة **لعام ١٩٦٤** . كان العدد الأكبر من الزملاء فى قاعة المسرح مع ضيوفهم من موظفى ادارة السـجن وموظفى المحافظة ، بينما كان هناك عدد آخر من الزملاء يقوم ((**بفرز**)) الممنوعات للاحتفاظ بالمهم جدا منها والتصرف فى الباقى ، وحرصنا على أن **لا** يعرف الزملاء الممثلون والمشرفون على الحفل أى شىء عن **هروب** هذين الزميلين حتى لايرتبكون وهم يؤ دون أدوارهم .

وحين أسدل الستار على خشبة **المسرح** بعد منتصف الليل بقليل وكان المفروض أن يمتد الاحتفال حتى **الفجر ، كان من اجل اعطاءالفرصة** لكل زميل كى يراجع ماعنده من « **ممنوعات** » خاصة ، ولما سألوا عن السبب ، قيل لهم لاحتمال قوى بان يقوم **رجال المباحث العامة** بعمل تفتيش دقيق فربما يعثرون على « **مطبوعات** » يتخذون منها حجة لتعطيل **الافراج**، وبعد اقل من ساعة كانت هناك اكداسا من الممنوعات . الاوراق تم حرقها بسرعة ، والملابس الملكى والشاى والسكر وأمواس الحلاقة وضعت فى المخزن ، ومع شروق شمس اليوم التالى لم يكن فى أى زنزانة « ممنوعات » من اى نوع .

وقام «مسئولو النظام » بعمل « **تمام** » الصباح وكان « **تماما** » ارسلته **ادارة السجن** الى القاهرة ، وكأن شيئا لم يحدث ، ولا نقص فى « **عهدتها** » من المساجين .

طول نهار **اول يناير** ١٩٦٤ والزملاء الذين يعرفون خبر هروب الزميلين كانوا يستعيدون تذكر تصرفات وتحركات الدكتور **هرارى والعامل عويضة** خاصة خلال الشهور الاخيرة .

كان **الدكتور هرارى** محام قديم لعدد من الشركات الكبيرة **المصرية والاجنبية** . وكان له مكتب فخم فى شارع قصر النيل بالقاهرة ويساعده فى عمله الضخم ٤٠ **محاميا** . ويقال انه **نصف مليونير** على الاقل . ومع انه كان على هذا الجانب الكبير من **الثراء** فان احدا لم يقم بزيارته منذ قبض عليه فى **اوائل عام ١٩٥٩** حتى يوم هروبه فى ٣١ **ديسمبر عام ١٩٦٣** . مرة واحدة زارته زوجته قبل هروبه بحوالى شهرين ، ولم تحضر معها شيئا لزوجها منذ أكثر من خمس سنوات . كان عدد من الزملاء يتراهنون حول « **الخير** » الذى سيأتى به هرارى من الزيارة ، من الطعام ، والسجاير ، والحلويات والنقود . كان الرهان حول الكميات التى ستحضرها معها زوجته التى كانت فى فرنسا ، ولهذا لم تزره ، بل ولم تكن ترسل له نقوداطوال السنوات السابقة . كان**صلاح هاشم** «مسئول الحياة العامة » من بين المتفائلين جدا وكان ينتظر **اعداداً هائلة** من طرود الطعام والملابس والحلويات والفاكهة ، والمعلبات ، ربما يحتاج نقلها الى « لورى » !

فى صباح يوم الزيارة ذهب اليه الزميل **مصطفى درويش** كى « يحلق » له كما جرت العادة . ومع أن دقنه كانت « طويلة » فقد رفض أن يحلق :

— ليه يا متر ؟
— أصل عندى مرض جلدى فى وشى .

وباسم « **المرض الجلدى** » لم يحلق هرارى شعر دقنه شــهورا . فقد كان يشذ بها « **سكسوكة** » !

كان اول من تنبه الى مجىء الزيارةهو **صلاح هاشم** . جرى بسرعة الى هرارى يزف اليه الخبر ثم صحبه حتى مكتب الضــابط « النوبتجى » حيث تتم الزيارة . قال له صلاح وهما فى طريقهما الى الزيارة :

— أظن بقى يامتر المدام جايبه معاها حاجات كثيرة ؟

ويرد عليه هرارى :

— دى من يومين بس وصلت من باريس .
— تبعت أى خدام يشترى اللى هيه عاوزاه ..
— خدام مين ياصلاح .. المدام باعت الشقة وعايشة فى باريس .
— تبعت فراش من المكتب .
— فراش ايه ياصلاح .. ما أنا بعت المكتب .

ويصرخ **صلاح هاشم** :

— يعنى مالكش حد أبدا فى مصر ؟
— أبدا ياصلاح .. مراتى وأولادى من يوم مادخلت السجن وهمه فى فرنســا .

يخرج صلاح من جيبه سيجارة « **فرط** »ويمد يده يعطيها لهرارى قائلا:

— خد سيجارة هدى أعصابك .
— ما انت عارف ياصلاح .. أنا مش باشرب سجاير .

ويرد عليه بسخرية :

— يمكن المدام بتدخن !

ويعود **صلاح هاشم** حزينا ، يائسا ، محبطا ، كان حمله مستحيلا ولم يأت « اللورى » المحمل بالخيرات مع زوجة هرارى ، وكانت لاتحمل فى يدها سوى شنطة اليد !

وبعد الزيارة راح هرارى يبحث عن صلاح هاشم وحين وجده مد اليه يده وقال :

— خد يا صلاح ..

ويصيح صلاح :

— ايه ده كله .. خمسة جنيه ! ؟
— وحياتك يا صلاح. دى كل الفلوس اللى كانت مع المدام .
— وتسيبها من غير فلوس ؟ . كنت خللى معاها أجرة التاكسى .
— تروح ماشيه .. ماهو البيت قريب قوى من محطة السكة الحديد .
— انت مش بتقول بعت البيت ؟

— بيت امها يا صلاح .. فى أول عماد الدين .

كان **هرارى** حريصا منذ دخل **السجن** على ان يؤكد **فقره** بمختلف الاساليب وكان حريصا فى نفس الوقت على أن يبدو امام كل الزملاء ((**ابلها ، وعبيطا**)) . وعشت **معه انا ومجدى فهمى ورمزى يوسف ووليم طانيوس وماجد حافظ وسعد باسيلى ووليم اسحق فى زنزانة واحدة فى سجن المحاريق** . كنا عادة ناكل فى مجموعات ، كل ثلاثة فى **((قروانة))** واحدة ، وكان هرارى هو الوحيد الذى ياكل فى «قروانته» الخاصة ، يأخذ فيها نصيبه من الطعام ، ثم يضع عليه كمية كبيرة من **((الردة))** بصرف النظر عن نوع الطعام . فول ، أو عدس ، أو فاصوليا ، فى الغداء . وفى العشاء يضع الارز على الخضار المطبوخ على كمية كبيرة من «الردة» ثم يبدأ فى تقطيع نصيبه من اللحم **باسنانه** الى قطع صغيرة بطريقة **((مقززة))** ولكن متعمدة اوفى الفطور يكتفى بخلط «الردة» بالماء وشوية عسل اسود ان وجد . وفى كل ليلة قبل النوم اذا لم يسخر منه الزملاء ويعاكسونه يأتى بحركات بهلوانية ، كأن يقف على **راسه** ، أو يخلع ملابسه كلها ويدهن جسمه **بالزيت** حتى يستفز أى زميل كى يعاكسه ! وكان لا يستحم الا **مرة واحدة** فى الشهر كى تكون رائحته كريهة ولا ينام احد الى جانبه ، وابتليت **((زنزانتنا))** به فقد رفض كل الزملاء المسجونين ان يعيش معهم ولم يكن امامى غير اقناع زملائى فى السكن بان يعيش معنا ونتحمله .وعاش بيننا اكثر من عامين ، استطاع خلالها أن يقنع كل الزملاء بانه **عبيط وابله !** .

ذات يوم ارتفعت حرارته ونام حتى حل موعد احضار **((العيش))** من الفرن وكان يقوم بهذه المهمة يوميا ، واذا به ينهض من نومه ويجرى لاحضار العيش .

— انت مريض يا هرارى .. خللى حد تانى يجيب العيش المره دى .
— مش ممكن .. لازم اقوم بعملى .
— طيب نشوف لك عمل تانى أخف ..

يرد منزعجا :

— ده انسب عمل ليه ..
— انت راجل سنك كبير والعيش وزنه تقيل جدا .

ويزداد انزعاجه ويقول :

— مش ممكن اقوم باى عمل آخر .
— طيب انهم ليه ؟

ابتسامة **بلهاء** على وجهه . ويقول :

— اصل انا عندى روماتيزم فى ظهرى .. والعيش السخن يطلع الرطوبة منه .

واضع أمامه علامة استفهام . وتشاء الصدفة أن يعطيني احد السجانة ورقة صغيرة ملفوفة ويطلب مني أن أعطيها للدكتور هراري لانه مسافر حالا وليس لديه وقت للبحث عنه أو انتظاره الى الغد كي يسلمها له عند حضوره لاستلام « العيش » ! ما حسبته كان صحيحا . عملية احضار العيش من الفرن تعطي من يقوم بها — مهما كانت ظروف السجن صعبة — ان يتصل **بالسجانة** المشرفون على العمل فى **الفرن** وبالتالى يمكن الاتصال **بالخارج** عن طريق واحد منهم ، اما بالصداقة ، او بالفلوس .

كان اذن مصرا على أن يقوم بهذا العمل الشاق كي يستثمره فى **اتصالات خاصة** ! وكانت الورقة الملفوفة التى وصلت الى صدفة بداخلها **١٠٠ جنيه** ، وورقة أخرى مكتوبة **بلغة** غير معروفة ، وكنت حتى ذلك الوقت أملك **سلطة اتخاذ القرار** ، فمنعته من القيام بعملية احضار «العيش» . غير ان هذا المنع لم يستمر أكثر من يوم واحد ، بعدها صدر قرار من المستوى الاعلى بعودة هراري الى عمله ! فقد كان «القادة» قد وصلوا منذ شهور ، وكان «القائد» الاكبر من نفس « التيار التاريخى » للدكتور هرارى !

واستمر هرارى يقوم بعملية احضار العيش حتى يوم هروبه !

أما عن علاقته بعامل النسيج **«عويضة»** فلها قصة . حين تكونت فصول لتدريس اللغات الاجنبية ، لم يكن من بينها **اللغة الالمانية** ، وتطوع الدكتور هرارى أن يقوم بتدريسها ، وبدأ الفصل من عشرة زملاء **«وصفصف»** على زميل واحد هو : «عويضة» ، ومع ذلك فقد كان الفصل أكثر الفصول انتظاما . يوميا وأكثر من ساعتين يلتقى هرارى بعويضة كي يدرسه الالمانية ! والزملاء كلهم مبهورين بالتزام هرارى واصرار عويضة على تعلم الالمانية ! **ولم يعرفوا لماذا كان هذا «الالتزام» وذاك «الاصرار» الا بعد هروب الاثنين يوم ٣١ ديسمبر ١٩٦٣** .

شمس يوم أول يناير ١٩٦٤ تغيب وراء الافق ، والساعة تقترب من الثامنة مساء ، وموعد «تمام المساء» يحل . يدخل الزملاء **«زنازينهم»** وهم يعرفون انها لن تفتح عليهم مرة أخرى الا للذهاب الى دورة المياه ولاجل غير معروف . **«التكديرة» هذه المرة بسبب هروب زميلين فما حجتهم ؟** .

بعد «التمام» يذهب وفد من الزملاء يبلغون المأمور الذى يصرخ :

— امتى ؟
— أمس .
— وليه انتظرتوا للنهارده ؟
— لم نكن متأكدين .

ويجد المامور نفسه أمام الامر الواقع . لا مفر من ان يكون تاريخ هرب الزميلين **هو أول يناير ١٩٦٤** . وليس ٣١ ديسمبر ١٩٦٣ وإلا أصبح هو والضابط النوبتجى وسجان العنبر هم المسئولين . ويصـــدر المامور أوامره بعمل الاجراءات المعتادة فى مثل هـــذه الاحـــوال . اعلان **حالة الطوارىء** ويبدأ بضرب « **بروجى** » هرب مســـجونين .. وتغلق الزنازين على كل المسجونين . وتخطر **مصـــلحة السجون لاسلكيا** ، وتعبأ قوة السجن لمطاردة الهـــاربين . وتبدأ « **تكديرة** » جديدة لنا فى السـجن .

احى لك عنها فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى .

١١ أكتوبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـــالة رقم (٦٦)

حبيبتى

مثل شعبى يقول : **جت الحزينة تفرح مالقيتش مطرح** . وكنـــا نحن خلال اليومين الاول والثانى من **يناير ١٩٦٤** ، صورة مجسدة لآلام ومعاناة تلك « **الحزينة** » . ولم تدم محاولتنا للفرح بقرب الافراج عنـــا اكثر من **٣٦ ساعة** ، عشنا بعدها هذين اليومين على أعصابنا . **الزنازين** مغلقـــة علينا طول اليوم ، وتتوقع بين لحظة وأخرى حملة **تفتيش** ، أو حملة **تأديب** ، وفكرة أن المباحث العـــامة سوف تســـتغل هـــروب الزميلين لتعطيل الافراج عنا تسيطر على عقولنا وتتضاعف آلامنا ومعاناتنا مع كل دقيقة تمر .

وتتوالى علينا الاخبار :

- حالة الطوارىء فى السجن ستمتد حتى يقبض على **الهاربين** .
- اهالى جاءوا من القاهرة لزيارتنا **وحجزوهم** فى الواحات . لان الزيارة **ممنوعـــة** .
- لجنة تحقيق من ضباط مصلحة السجون وصـــلت للتحقيق فى حادث **الهرب** .
- بعض الاهالى الذين جاءوا لزيارتنا عادوا الى القاهرة بعد أن يئسوا من امكانية **الزيارة** فى موعد محدد .

كانت هذه هى اخبار اليوم الاول الذى مر دون **تفتيش او تأديب** ، وتتوالى تعليقات الزملاء :

— يعني مفيش تأديب ولا تفتيش ؟
— ولا حتى سؤال لاى واحد منا ؟
— فاكر يوم ما هرب مسجون من **ليمان طره** ؟
— كان يوم أسود على كل المساجين .
— مع انه كان مسجون عادى !
— لكن هروبه كان عادى !
— وهروب الزميلين دول مش عادى !
— عند جهينة الخبر اليقين .
— يظهر انها لعبة كبيرة .

ـ حيكون ايه هدفها ؟
ـ تعطيل الافراج .
ـ الحجة ضعيفة !
ـ مع تصريحات مضادة تبقى قوية .
ـ مش ممكن هرارى يعمل كده .
ـ وموقفه السياسى اصبح واضحا ..
ـ وهو مشكلة .. يغيره .
ـ لزوم الشىء
ـ ويصرح بيها فين ؟
ـ فى باريس .
ـ ويخرج ازاى من مصر ؟
ـ اسأل جهينه .
ـ السياسة قررت الافراج عنا .
ـ يبقى من وراء ضهرها !
ـ بل وضـــدها !
ـ ســتعرف .
ـ ان كان فى جدول اعمالها
ـ وســتضرب .
ـ ان كان محل اهتمامها .
ـ نحن معها فى نفس الخنــدق .
ـ وهى تعـــرف هذا جيــدا .
ـ اتفقنا اذن .
ـ ولم نتفق ايضــا .
ـ كيف ؟
ـ الذات تغلب .
ـ الخطر يحيط بها .
ـ هذا رأيك .
ـ ورأيهـــا ايضـــا .
ـ المهم ان يــكون .
ـ وقبل فوات الاوان .
ـ ومن اجــل مصر حبيبتى .

كان هذا الحوار صورة مكثفة **للصراع** بين الزملاء خلال الساعات القليلة السابقة على اعلان **حالة الطوارىء** ، وغلق **الزنازين علينا** ، وكان غلقها حائلا دون اتخاذ الصراع اشكالا **عنيفة** !

وتشرق علينا شمس اليوم التالى ، ثم تغيب ، ويزحف ظلام الليل ، وحصيلتنا من الاخبار هى :

- انتهى التحقيق وسافرت اللجنة الى القاهرة .

- تنتهى حالة الطوارىء صباح الغد .

● الاهل الذين لم يعودوا الى القاهرة سيحضرون غدا .

ويجرى حــوار :

— تبقى المسالة عدت .
— حاجـــة تلخبط .
— اللعبـــة نشلت .
— وربما هي جـــزء منها .
— ضربتها الســياسة .
— لمصلحة من ؟
— الوحـــدة الوطنيـــة .
— آمنت السياسة بهــا ؟
— بالتاكيـــــد .
— لهــا ســوابق !
— تعلمت من خبرتها .
— ربما .. بطريقتها الخاصة .
— المهم .. الهدف .
— الوســيلة جــزء منــه .
— تختلف الوسائل .
— والديمقراطية جوهرها .
— الديمقراطيـــة موجهـــه .
— من يوجههــا ؟
— قيــادة الجبهـــة .
— كيف تمـــارس ؟
— الاتحـــاد الاشتراكى .
— ليس جبهـــة .
— تحالفقوى الشـــعب .
— لا تحالف بدون أحزاب .
— مرحــلة ضرورية .
— ودوافعها ذاتية .
— بل طريق خاص .
— الخاص لا يلغى العام .
— التطبيق محك .
— وهو ليس التجـــربة والخطا .
— مرحــلة مؤقتـــة .
— ونســـتخدم خلالهـــا ؟
— بل نفرض وجـــودنا .
— أرجو ذلك .
— سنخرج اذن ؟
— نعم .. ولـــكن .
— المهم نخـــرج .

وفى صباح اليوم التالى تفتح علينا الزنازين لتعود حياتنا فى السجن كما كانت منذ يومين ، وكان شيئاً لم يحدث !

ويصل الى السجن **الاهل** الذين كانوا محجوزين فى **الواحات** بسبب حالة **الطوارىء** ، يحملون معهم أخبار **الافراج** ، وخطابات للزملاء من أهلهم تزف اليهم خبر الافراج القريب .

وقبل أن يودع يناير ١٩٦٤ أيامه الاخيرة ، كان الزملاء يودعون عددا من بينهم يصل الى الخمسين جاءت أسماؤهم فى أول كشف يصل الى سجن المحاريق . فى الوقت نفسه كان معتقل **الفيوم ومعتقل القلعة** قد أصبحا خاليين بعد خروج كل الزملاء هناك وبغير قيد أو شرط .

فتحوا باب المعتقل .. فمن الذين عليه الدور كى يخرج منه ؟

وجاء فبراير ومضى أكثر من نصفه .. ولا حس ولا خبر !

حديث الصحف عن **الاشتراكية** لم يتوقف ،بل يزداد ، وبعض الزملاء الكتاب والصحفيون الذين خرجوا يكتبون .

— ايه الحكاية ؟
— المباحث العامة تماطل .
— هل تنجح فى تعطيل الافراج ؟
— لا يمـــكن .
— من يدرى .. ربما ؟.

ومع كل صباح **يقف** الزملاء الذين يتوقعون أن يـكون عليهم الدور بالقرب من مكاتب **ادارة السجن** فى انتظار الكشوف التى تحمل **أسمائهم** . وتصل فى نهاية فبراير **كشوف جديدة** بأسماء الذين افرج **عنهم** . **ويقيم** المسجونون والمعتقلون الذين لم ترد أسمائهم فى الكشوف احتفالات لتوديع المفرج عنهم :

— هى اذن مسالة أيام .
— لكن ليه . الخروج بالقطارة كده ؟
— المباحث العـــامة وراء هـــذا .
— لكن قرار الافراج صدر بالفعل .
— ربما يحدث ما يعطل الافراج .
— انقـــلاب مثـــلا ..
— يا شيخ .. تف من بقك .

وفى **منتصف مارس** تخرج دفعة كبيرة ولا يبقى فى المعتقل **سوى ١٠٠** معتقل ، وكل المسجونين وعددهم يزيد عن المائة .

ويمضى النصف الثانى من **مارس ١٩٦٤** ويهل **اول ابريل ١٩٦٤** ولا يخرج احد .

— يظهر ان **الـ ١٠٠** معتقل دول بقى راح يخلوهم « **خميرة** » .
— زى **الـ ١٤** زميل اللى خلوهم خميرة فى سجن الاجانب بعـــد الثـورة .

وفى **٢ ابريل** جاءت كشوف تحتوى على اسماء **٣٠** زميلا فقط !

— يبقى **الـ ٧٠** الباقين دول بقى همه « الخميره » !
— فعلا .. كشوفات قبل كده كان فيها اكثر من **١٠٠ اسم** .
— وكثير من اللى افرج عنهم كانوا بيطالبـــوا باسقاط الحكومة من كام شهر فقط !
— وفيهم أسماء لامعة جدا .
— والغريب أن كثيرين من زملاء « حدتو » ماخرجوش !
— وكل المساجين القدامى تقريبا لم يخرجوا !

ويضحك **رمزى يوسف** ويقول :

— أصل احنا بقى خدنا على السجن والمعتقل .

ويضيف **مجدى فهمى** :

— اصل المتعوس .. متعوس من يومه .

وأقول ضـــــاحكا :

— يا جماعه .. احنا **رواد** .. أول من يدخل السجن **وآخـر** من يخرج منـــــه .

ويعلق **وليم طانيوس** :

— المهم مانخرجش محمولين !
— أو نخرج على أعناق الجماهير .

ويمضى يوم **٢ ابريل ١٩٦٤** ، وتشرق شمس يوم **٣ ابريل ١٩٦٤** ويمضى النهار ويحل الظلام وتسيطر علينا فكرة ان هؤلاء السبعين زميلاهم « **الخميره** » !

— نعمـــل ايــــه ؟
— ننـــكب على القـــراءة .
— ما جدواها بعد أن فقدنا الامل ؟
— أن نموت مثقفين خير من ان نموت جهلة .

ورحت فى **نوم عميق** واحساس بالاستقرار **يملأ كيـانى كـله** .
سوف **أموت** هنا ولا داعى للتفكير فى **الافراج** . كانت فكرة يائسة ، ولكنى كنت **احتاج** اليها احتياجى الى **الحياة** نفسها . كانت هى الفكرة الوحيدة التى استطيع بها أن استعيد **هدوء نفسى** .

وافتح عينى فى صباح **يوم ٤ ابريل ١٩٦٤** على صوت ينادينى :
ـــ قوم البس علشان تروح .

لا اصدق وارد بغضب :

ـــ وحياتك بلاش هزار سخيف .

كانت فكرة اننى سأموت هنا قد سيطرت على كل كيانى الى حد اننى رفضت وانا فى تمام يقظتى ما يناقضها .

ويرد الضابط الذى أيقظنى ..

ـــ ودى حاجة فيهــا هزار برضه ؟
ـــ يعنى البس بدلتى « الملكى » ! ؟
ـــ بسرعــة .
ـــ **افراج .. يا له**

١٢ اكتوبر ١٩٧٧ . القاهرة .

اود ان اعبر عن عميق امتنانى لجميع الاصدقاء الذين شجعوا هــذا العمل ، وخصوصا المجموعة التى تجاوزت حدود التشجيع المعنوى الى المساندة المادية ، ولولاهم ما خرج هذا الجزء الى النور .. اليهم : **فؤاد زكريا ، ورمزى يوسف ، ونادر الفرجانى ، ومحمد حمام ، وسمير اكرم ، ومحمد الشاذلى ، وعواطف عبد الرحمن ، وزينب الديب ، ونهير امين ،** والآخرين الذين لا اعرف اسمائهم ، ولكنى اعتز بمشاركتهم المخلصة .

مصــطفى طيبــة

١٨ ابريل ١٩٨٠

رقم الايداع ٨٠/٣٤١٢

مطبعـــة
يوم المستشفيـــات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى ــ القاهرة

قضى المؤلف اثنى عشر عاما فى سجون وليمانات ومعتقلات المملكة المصرية ، وجمهورية مصر ، والجمهورية العربية المتحدة . وبعد خروجه ظل سنوات أخرى يتأمل بعض احداث جيله ... وفى لحظة صدق مع نفسه سجل هذه التجربة الفنية .

ان رحلة المؤلف فى سجون مصر كما سجلها فى هذا الكتاب لم تكن رحلة حقد على أحـد .. ولم تكن انتقام بالـكلمات من الـسجانين .. لان السجانين ببساطة مذهلة يموتون فى اللحظة التى يقبلون فيها هذا العمل .

ان رحلة هذا الكتاب تؤكد أن سؤال الانسان عن حقه فى الحب أمر طبيعى .. وأن فهم الانسان لظروف مجتمعه أمر عادى جدا حتى وان كان غال الثمن .

والكتاب قد يبدو فى ظاهره مجرد رحلة فى السجون السياسية .. لكنه فى اعماقه رحلة انسان يبحث عن حقه الطبيعى فى الحرية والحب . انها رحلة الاصرار على الحق التى تجعل العذاب الذى يفرضه السـجان هو طاقة جديدةً يثرى بها الانسان أيام المستقبل .

وفى هذا الجزء الثانى يقدم المؤلف — من وجهة نظره — صورة لحقبة سياسية هامة فى تاريخ مصر . قد يختلف معه البعض أو يتفق .. وهو أمر طبيعى لان المجال مفتوح أمام من يريد أن يقول كلمته عن نفس الحقبة التاريخيـة .

غير أن قيمة هذا الكتاب تتجسد فى تقديمه نماذج للانسان المصرى المناضل الذى يدفع عمره كله من اجل مصر . هو صديق لسجانه ، مشفق عليه ، متحديا لسلطة لا تملك سوى السوط والقيد .. بينما هو يملك الحب والفكر ، وخصوصية أرضه وتراث نضال شعبه منذ آلاف السنين .

هذا الكتاب يقدم نماذج لبطولات مصرية .. تملأ قلبك بمزيد من حب هذا البلد .. وتؤكد لك أن الزهور يمكن أن تنبت فى الصخر طالما ان هناك وطنا والسانا وعشق يجمعهما .

وحين تمضى بك السنون وتبهت فى ذاكرتك تفاصيل الاحداث ، لن تنسى أبدا « عم شعبان حافظ » .

حاول أن تفهم حقك فى حب الحياة والناس بأن تقـرأ هذا الكتاب أكثر من مرة .

الناشر